القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • مايو - يونيو 2009

- "الرأسمالية الخيرية"..!
- "إيباي".. تجارة التجزئة الجديدة
- التصميم هو المسؤول!

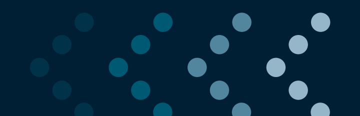
ملف العدد

البحر



العدد 3
المجلد 58

قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. هدف هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

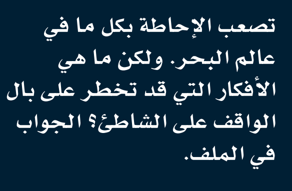
للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتَّابها.

صورة الغلاف



تصعب الإحاطة بكل ما في عالم البحر. ولكن ما هي الأفكار التي قد تخطر على بال الواقف على الشاطئ؟ الجواب في الملف.

صورة الغلاف: مصلح جميل

القافلة



الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
خالد بن عبدالعزيز الفالح

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
خالد عبدالله البريك

رئيس التحرير
صالح محمد السبتي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

سكرتير التحرير
عبود عطية

سكرتير تحرير مساعد
د. فكتور سحاب

قافلة الأبحاث ومكتب جدة
فاطمة الجفري

مكتب بيروت
رولان قطان

مكتب القاهرة
ليلى أمل

أمريكا الشمالية
أشرف إحسان فقيه

الإنتاج والموقع الإلكتروني
طوني بيروتي

المخرج المنفذ
حسام نصر

الصور الفوتوغرافية
أنور الخليفة

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع التريكي

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

مايو - يونيو 2009
جمادى الأولى - جمادى الآخرة 1430

توزع مجاناً للمشتركين
- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
الموقع الإلكتروني: www.qafilah.com

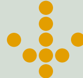
- **الهواتف:** فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

يشهد العمل التطوعي والخيري عموماً تحولاً بارزاً عن مجراه التقليدي، فظهرت مفردات جديدة في قاموس هذا العمل مثل «الرأسمالية الخيرية» التي تدير و«تستثمر» الأموال المخصصة للمشروعات الخيرية بحيث تصبح مجدية أكثر للمستفيدين منها. والقافلة تستهل رحلتها لهذا العدد بتناول هذا المفهوم الجديد للعمل الخيري على المستوى العالمي، وعلى المستوى المحلي بعد أن كانت الريادة فيه لجهات سعودية.





وينقلنا باب «قول في مقال» إلى قراءة غير تقليدية لما يسميه البعض «الفراغ» الذي يعاني منه الشباب العربي، ولحالة الملل العام الناجمة عن غياب الطموحات والآمال والتوقعات. وتتجاوز هذه القراءة وصف الحالة إلى تصور مخرج منها.



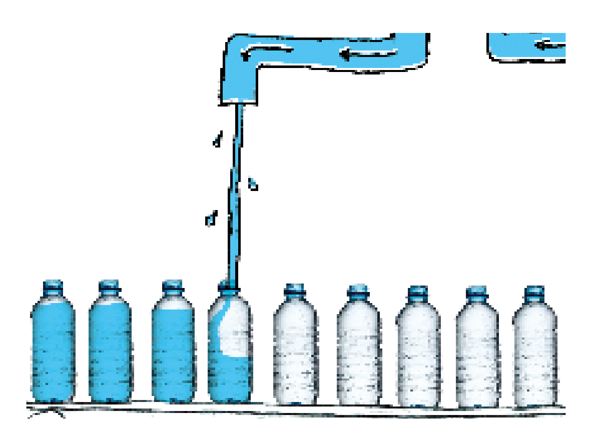
2 طاقة واقتصاد

أما التحوُّل الثاني الذي يحتل هنا مناخ الاقتصاد، فهو ما طرأ على تجارة التجزئة في العالم من خلال التجارة الإلكترونية. فمن خلال إلقاء نظرة عن كثب على موقع «إيباي» المعروف عالمياً، يتضح لنا الشوط الكبير الذي قطعته التجارة الإلكترونية على صعد حماية التجَّار والمستهلكين من مطبات التجارة الإلكترونية، كما أن نمو هذا الموقع الذي يشهد 80 مليون متعامل يومياً، قد يكون مؤشراً على مستقبل تجارة التجزئة في العالم بأسره.



3 علوم وبيئة

ويلتفت مناخ البيئة والعلوم إلى واحد من أبسط السلع في حياتنا اليومية: المياه المعبأة، التي تطرح أسئلة غير بسيطة على الإطلاق، تبدأ بنوعيتها، لتنتهي عند مبررات نشوء هذه الصناعة المتنامية، والمسألة الأخلاقية التي يطرحها بيع الماء وهو حق من حقوق الإنسان مثل الهواء الذي يتنفسه.

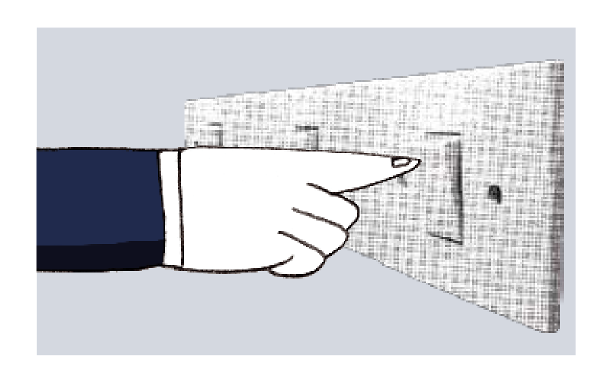


الفاصل المصور

أما الفاصل المصور فيستضيف في هذا العدد عيّنة من أعمال المصوِّر السعودي يوسف الدبيس مصدرها حلبات الرياضة وملاعبها، تؤكد أن الصورة الصحافية إذا ما تعزَّزت بالموهبة والإحساس بالجمال، يمكنها أن ترقى إلى أعلى مستويات الصورة الفنية.









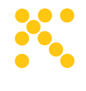
4 حياتنا اليومية

وبالوصول إلى مناخ الحياة اليومية يطالع القارئ في هذا العدد بحثاً موسعاً في أهمية تصميم الأشياء البسيطة التي نستخدمها باستمرار، وكيف يمكن للتصميم الجيد أن يكون مصدر راحة في تعاملنا مع هذه الأشياء، وكيف يمكن أن يربكنا التصميم السيء الذي، وللأسف، بات يتكاثر من حولنا ليشمل عدداً لا يُحصى من الأشياء التي نستخدمها أو نحتك بها يومياً من الأبواب إلى الأجهزة الكهربائية، مروراً بالطباخ العامل على الغاز.



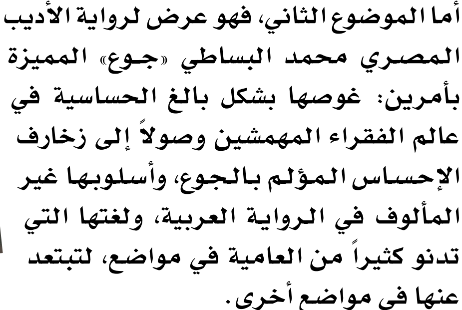






5 الثقافة والأدب

وفي مناخ الثقافة والأدب موضوعان: الأول يبحث في الأسباب التي تجعل بعض الموسيقى والغناء رائجاً أكثر من غيره، وأيضاً في مواضع الاختلاف ما بين العامة من جهة والنقَّاد والخبراء من جهة أخرى على صعيد الأسس المعتمدة في تقييم العمل الموسيقي.



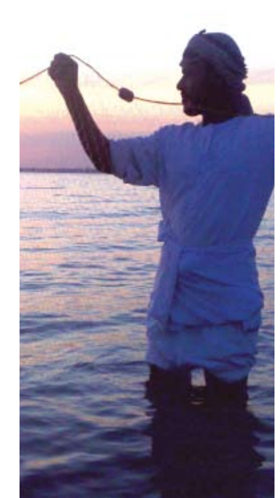
أما الموضوع الثاني، فهو عرض لرواية الأديب المصري محمد البساطي «جوع» المميزة بأمرين: غوصها بشكل بالغ الحساسية في عالم الفقراء المهمشين وصولاً إلى زخارف الإحساس المؤلم بالجوع، وأسلوبها غير المألوف في الرواية العربية، ولغتها التي تدنو كثيراً من العامية في مواضع، لتبتعد عنها في مواضع أخرى.





6 ملف العدد

أما ملف العدد فهو هذه المرة عن البحر.. وهل يمكن لفريق القافلة أن يحصر البحر وعالمه في ست عشرة صفحة؟ القارئ يعرف الجواب. ولكن مجرد وقفة على الشاطئ بقدر ما يسمح المجال، يمكنها أن تتركه يجول بوجدانه على كل بحار العالم وعلى كل ما لم يتسع له هذا الملف.



الرحلة معاً

ثقافة التطوع... حاجة ملحة

يتطرق أحد موضوعات هذا العدد للعمل التطوعي، ويناقش جوانبه المتعددة، ويتنقل به بين تراث الماضي وواقع اليوم.

وإذا كان العمل التطوعي من أهم أعمال الخير التي تحض عليها الأديان السماوية والثقافات السامية، فإنه أيضاً من أهم سمات المجتمعات الإنسانية المتحضرة، التي لا تفترض أن تقوم الحكومات بكل شيء، وترى أن على من تتوافر لديهم زيادة في المال أو الوقت أن يقدِّموا للمجتمع شيئاً من تلك الزيادة.

ولذلك عدة أسباب منها أنه ليس هناك جهة تستطيع أن تقوم بكل ما هو مطلوب، حتى ولو كانت حكومة تتوافر لها الموارد المطلوبة. كما أن الحاجات تكون في بعض الأحيان طارئة، كما يحدث في الكوارث الطبيعية وغيرها، تستطيع الجمعيات الخيرية أن تبادر بالمساعدة خلالها بسرعة وأن تدعم الجهات الرسمية.

ومن جهة أخرى فإن آثار العمل التطوعي، كأحد أعمال الخير، على من يتلقونه واضحة للعيان، ولا تحتاج إلى شرح. ولكن ما يخفى على البعض هو أن للعمل التطوعي آثاراً إيجابية على من يقدِّمونه، فلنستعرض بعض هذه الآثار:

- شعور المتطوع بالرضا بعد مساعدته للمحتاجين ورؤية آثار تلك المساعدة عليهم وعلى أوضاعهم.
- تركيز المتطوع على أوضاع الغير فيه ابتعاد عن أوضاع ومشكلات الذات. والابتعاد قليلاً عن مشكلات الذات، في كثير من الأحيان، هو أحد عناصر حلها، لأن التصاقك المستمر بمشكلاتك يضخمها ويخرجها عن أبعادها الطبيعية، ويجعل حلها أكثر صعوبة.
- الانخراط في العمل التطوعي ينمِّي قدرات الاتصال والعمل بروح الفريق فيمن ينخرطون فيه. وهاتان القدرتان هما من أهم القدرات المطلوبة فيمن يسعون للحصول على وظيفة في سوق العمل المعاصر ومن أهم أسباب النجاح فيه.
- التطوع لمن لديهم وفر في الوقت فيه مصلحة



للمتطوِّع. فانخراط الباحث عن عمل في عمل تطوعي يشغل وقته ويزيد من فرص حصوله على عمل، لأن ذلك سيكون له تأثير إيجابي على الجهات التي تتلقى طلب توظيفه.

وإذا كانت هذه الفوائد ليست دائماً واضحة لكل فرد قادر على التطوع فإن على المجتمعات أن تحث الأفراد على العمل التطوعي بوسائل مختلفة، لعل من أهمها:

- أن تقوم الجهات الرسمية بالحث على العمل التطوعي المنظَّم، وتكرِّم المشاركين فيه.
- أن تقوم الشركات والمؤسسات بحثِّ القادرين من موظفيها وأفراد عائلاتهم على الانخراط في العمل التطوعي وتدعمهم في ذلك.
- أن تقوم الأسر بحث أبنائها على المشاركة في تلك الأعمال التطوعية.
- أن تشجِّع الجامعات والمعاهد العليا العمل التطوعي بحث الطلاب على المشاركة فيه. ولعل من المناسب أن يكون من ضمن متطلبات التخرج في كثير من التخصصات أن يشارك الطالب في أعمال تطوعية. وهذا أسلوب متبع في بعض الجامعات في دول العالم المتقدِّم.
- أن يتم فرض ساعات من العمل التطوعي على من يرتكبون مخالفات غير جنائية مثل المخالفات المرورية.

ورغم أن العمل التطوعي في مجتمعاتنا العربية والإسلامية له جذور دينية وتأريخية إلا أنه يحتاج إلى قفزات نوعية وكمية ليرقى إلى مستوى العمل التطوعي الذي تتطلبه ظروف هذا العصر، الذي تتقارب مسافاته، وتتعقد مشكلاته، وتتزايد حاجاته.

ولعل أهم نقطة هنا هي أن يشمل العمل التطوعي كل مناحي الحياة التي يحتاج فيها البشر إلى العون والمساعدة، وتحتاج فيها الجهات الرسمية إلى من يشاركها في تقديم هذا الدعم بشكل منظم، لا يُساء استغلاله.

البعض منا يشكك، بين الحين والآخر، في أهداف ونوايا الجمعيات والمنظمات العالمية التي تبادر إلى تقديم العون في بعض مجتمعاتنا العربية والإسلامية. ونحن هنا لسنا في مقام تقويم تلك القضية، ولكن من الأجدى، دون شك، أن نسد الفراغ ونقوم بتلك الأعمال بأنفسنا.

ولا بد لنا في ختام هذا المقال أن نعبِّر عن تقديرنا للكثير من الأعمال التطوعية التي بدأت تزداد في المملكة والوطن العربي خلال العقود الماضية. لقد زادت أعداد تلك الأعمال، وتنوعت مجالاتها، وتضاعف متلقوها مرات ومرات. كما استفادت تلك الأعمال الخيرية من التقدم التكنولوجي، وخاصة في مجال تقنية المعلومات، ووظفته لدفعها إلى الأمام.

ولتقوية ذلك التوجه المحمود لعل من المناسب أن يكون هناك متخصصون في تقنيات العمل التطوعي، يدرسون ويستفيدون من أحدث الآليات والأساليب العلمية لدفع هذا العمل الخيري، ويوظفون تلك الآليات لخدمة مجتمعاتنا. فالعمل الاجتهادي خير، ولكنه إذا بُني على أسلوب علمي تضاعف خيره وحقق أكبر الأهداف من خلال أقصر الطرق وأقلها تكلفة.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

فيض العطاء

جهد مشكور ...
وخير كثير ...
وظلال وارفة ...
هذا هو فيض العطاء الذي أنتم أهل له ..
وأهل لأجره وثوابه -إن شاء الله-.
لكم كل الشكر والتقدير لمشاركتي التواصل معكم، ولرفْدي بالإثراء والمعرفة والعلم من معين إصداركم.
شُرفت وأفدتُ وغَرفتُ كثيراً.
كما أتمنى أن تقبلوا مشاركاتي التي سأرسلها مستقبلاً.
تقبلوا فائق التحية مقرونة بدعاء مخلص أن يوفقكم الله، ويتوج عملكم بالاستمرارية والتألق دوماً.

د. مريم سعود أبو بشيت
المشرف العام لمركز مريم أبو بشيت للاستشارات التربوية التعليمية

القافلة: شكراً على العاطفة التي تخصين القافلة بها، ونرحب بمشاركتك.

مرجع لطلاب المدرسة

حديقة غنَّاء وكنز متجدد من العلم والثقافة وصلني اليوم 4 ربيع الآخر 1430هـ: العدد 1 المجلد 58 لشهري يناير - فبراير 2009م.
بارك الله فيكم وجزاكم الله عنَّا خيراً.
بدأت ألمس في محيط عملي التربوي اهتمام الزملاء والطالبات بالمجلة وما تحويه من موضوعات قيمة وشيقة ومفيدة.
كما أنها أصبحت تشكِّل مرجعاً مهماً لمن يرتاد المكتبة من طالبات المدرسة والجامعة.
وفقكم الله وسدد خطاكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

منصور سليمان عبدالله
مدرسة الشهيد زيد الموشكي الأساسية الثانوية للبنات
تعز - الجمهورية اليمنية

للبحث والتوثيق

نتلقى بمزيد من الشكر مجلة «القافلة» هدية إلى مكتبة مؤسستنا.
ونظراً لأهمية دوريتكم لعملنا البحثي والتوثيقي، نرغب أن تكون مجموعتنا منها كاملة، لذا نتقدَّم من حضرتكم برسالتنا هذه راجين تزويدنا بكل ما صدر بعد المجلد 57، العدد 5 (أيلول-تشرين الأول 2008م) وهو آخر عدد وصلنا منكم حتى الآن.
راجين أن تتكرموا بإرسال الأعداد المطلوبة، بواسطة البريد الجوي، على عنواننا التالي:
مؤسسة الدراسات الفلسطينية
المكتبة
ص.ب 7164 - 11
الرمز البريدي 2203 1107
بيروت، لبنان
آملين أن تلقى رسالتنا اهتمامكم المعهود.
وتفضلوا بقبول فائق الشكر والتقدير.

جيهان سلهب درغام
مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت

القافلة: سيصلكم ما طلبتم -إن شاء الله-.

ملف الملاكم

حين رأيت على غلاف العدد الأخير أن في العدد موضوعاً عن الملاكم، ظننت أنكم ربما ستمتدحون الرياضة العنيفة هذه، وحين بدأت أقلب الصفحات، وصولاً إلى الصفحات الأخيرة، غيَّرت ظني واعتقدت أنكم ربما بالعكس، انتقدتم اللعبة، بسبب عنفها أو التلاعب الذي أساء إلى سمعتها بعض الوقت.
ثم قلت لنفسي، لنقرأ الموضوع، فالقافلة عودتنا على اختيار الموضوعات الصعبة ومعالجتها من جوانب كثيراً ما لا تخطر بالبال.
وفعلاً، حين قرأت النواحي النفسية والتاريخية والأدبية والسياسية التي تضمنها الموضوع، وكيف أن المحرر تنبه إلى ناحية العنف، ولكنه تنبه إلى نواحٍ أخرى في هذه الرياضة، أحسست أن كل موضوع يبدو لنا بسيطاً، قد يخفي ما لا نتوقع في ثناياه، والكاتب الشاطر هو الذي يغوص في هذه الخفايا.
أهنئكم على هذا الغوص، وأرجو أن أستمتع في الأعداد المقبلة بالتشويق الذي يسبق القراءة، ثم بالقراءة نفسها، مثلما استمتعت هذه المرة.

سعيد العبدالله
صنعاء

أقرأها باهتمام

يتسنى لي بحمد الله ومَنِّه بين الفينة والأخرى الاطلاع على أعداد «القافلة» الراقية مادة وإخراجاً، وذلك حين أرتاد مكتبة مركز صالح بن صالح الاجتماعي بعنيزة، وأجد متعة ولذة كبيرتين في استعراض محتوياتها، وفي الغوص في مكنوناتها بما تتضمنه من معلومات ومعارف وخبرات متنوعة في كل المجالات الحياتية درجت المجلة على تنوعها وتميزها، فأقرأ مقالاتها باهتمام، وما يزعجني في بعض الأوقات أني لا أجد متسعاً من الوقت يسمح لي بمتابعة وقراءة جميع محتوياتها نظراً لارتباطي بمهام بحثية من أجلها أرتاد المكتبة من جهة، ولالتزام المكتبة من جهة أخرى بأوقات محددة للدوام. لذا فإنني أتطلع بشغف لأن أحصل على كل أعداد المجلة بانتظام، وذلك بأن تقبلوني مشتركاً فيها.
شاكراً ومقدراً لكم فضلكم وجهدكم سلفاً.

أحمد بن حمد بن إبراهيم القاضي
القصيم - عنيزة

القافلة: أحلنا اسمك وعنوانك على قسم الاشتراكات، وستصلك أعداد القافلة خاصة بك -إن شاء الله-.

كبرنا مع القافلة

يسعدنا أننا عشنا مع مجلتكم الرائعة، وكبرنا معها. فمنذ أن كنا صغاراً كان والدنا ووالدتنا يقولان لنا: «لن تجدوا مجلة أفضل من مجلة القافلة، فحافظوا عليها، ولا تهملوها. وكنا نأخذ بكلامهما فعلاً.

فنحن لن نجد أفضل من مجلتكم. وعائلتنا تحتفظ بها. ويوجد لدينا أعداد قديمة جداً من الثمانينيات. وازداد عشقنا لها بعد أن كبرنا، وأصبحنا نقدِّر معنى المجلة بشكل أفضل، وأصبحت القافلة في حلَّة جديدة. فصرنا نتسابق عليها.. من هو أول من سيأخذ المجلة من والدنا عندما يحضرها معه إلى البيت.

ولكن في السنوات الأخيرة، بات الحصول عليها صعباً. وأحياناً تنقطع عنَّا لأكثر من سنة. وبعد أن مللنا قررنا أن نكتب هذه الرسالة متمنين أن نجد من يهتم بالأمر ويرسل لنا المجلة لكي نقرأها أولاً بأول. نتمنى أن ترسلوا لنا أعداد المجلة على بريد الوالد، الذي سيرتاح من إلحاحنا عليه ليعطينا نسخته.

علياء وفاطمة علي المجحد

القافلة: لم يحصل أي إلغاء لأي اشتراك في الآونة الأخيرة. فالمشكلة قد تكون مشكلة بريد أو موضع تسليمه. على كل حال، سيكون لكم ما طلبتم -إن شاء الله-.

النافع من العلم والأدب

أتوجه إليكم بكتابي هذا متمنياً أن يصلكم وأنتم ترفلون بثوب السعادة. فأنا من قرَّاء القافلة ذات الاسم المتألق في سماء هذه المنطقة من وطننا الحبيب لأكثر من خمسين سنة مضت، هذا الاسم المشتق من القوافل السيارة في الصحراء الواسعة، اللائق بمجلتكم التي تسير على روابي الأدب والفكر منذ أن احتلت مكانها بين كبريات المجلات الأدبية والعلمية بموضوعاتها المنتقاة بعناية. فأسهمت أيما إسهام في نشر الثقافة على مدى حقبة طويلة من الزمن، وازدادت زينة على زينتها بحضرتكم وبالعاملين فيها، فسارت في طريقها تضاهي كبريات المجلات الثقافية والعلمية في وطننا العربي.

وإن دلَّ هذا على شيء، فإنه يدل على مدى جهودكم واطلاعكم الواسع على حاجات القارئ ورغباته بالنافع والمفيد من العلم والأدب.

أذكر حينما كنت أطلبها، كنت أبذل قصارى جهدي للحصول عليها مستعيناً بكل الوسائل. وحينما لا أستطيع الحصول على نسخة منها، ينتابني شيء من الحزن، وكأنها بمثابة الأم التي يفتقدها ابنها. إلى أن طرقت بابها، فأجابتني بتواصل دائم (كل شهرين)، شاكراً لكم هذا التواصل.

مسلم عبدالكريم المسلم

القطيف

صحارى الطين

(مقتطفات من قصيدة طويلة)

(1)
ألا أيُّهذا الحمأ
إلى أين تركض..
فوق صحارى الضياع
وحيداً
إلى أين؟
وهي المقاديرُ
تمضي بنا..
حيث شاءت
لتُلقي بنا
حيث جاء النبأ

(2)
ألا أيُّهذا الحمأ
تناول جحيمَك خبزاً
يجيئك..
قد أنضجته صنوفُ المواجع
منغمساً في الدماء
تناولْهُ ملتهباً
ثم ألهبْ حشاك..
بنار الظمأ!

(3)
ألا أيُّهذا الحمأ
متى كنتَ تهنأ؟
هذا طريقُك منذ الأزلْ
ألستَ ترى
كيف قد لوّنتْه الدماء
ألستَ ترى الأفقَ
حين يعُجُ
بأشباح موتاك..
مخنوقةً تتلوّى!
وموكبُ قابيلَ..
ما زال يسري
وهذا النعيق
يشقُّ المدى..
منذ أن بعثتْه المقاديرُ
كيما يواري على الأرض
سوأةَ قتل
وينهي الصراع
ولكنها..
-إذ تريدُ النهايةَ-
تأتي المقاديرُ..
عمداً!
وكان الصراعُ
الذي قد بدأ!

(4)
ألا أيُّهذا الحمأ
أما زلت تحلُم بالغد..
بالأمنيات..
بدرب الخلاص؟
وتبغي القصاص
أما زلتَ تُخدَعُ
حين تؤوبُ الظلال
وحين تدفَّئُ
شمسُ السماء..
الرمال!
أما زال
يكذبك الدربُ
يهزأُ منك مَداك..
ببعض السراب
ألا أيُّهذا..
تيقَّظْ
فأمسُك
قد تاهَ عنك
وتهتَ عن الغد
بعد جفاف خُطاك
وبعد اشتعال مسائك..
بؤساً
تيقَّظْ
فهذا نهارُك..
منكَ انطفأ!

علي جبريل أمين

مكة المكرمة

المشتركون الجدد

سليمان بن إبراهيم المزعل، عنيزة - أيمن بن أحمد ذو الغنى، الرياض - عبدالمحسن آل مرزوق، القطيف - عطية رديفان القرافي، المدينة المنورة - د. عبدالإله بن فهد السويدان، الرياض - د. يمنى رجب إبراهيم، القاهرة - ذكريات حسن هاشم، صفوى - عبدالله صالح علي خديش، جدة - م. حسام بن عبدالحميد خيمي، جدة - الدكتور عزمي السامرائي، الدانمارك - عبدالرؤوف مرزوق، الجزائر - سامي الصالح، الرياض - أحمد ابن خضران الزهراني، المدينة المنورة - محمود محمد درويش، المنصورة، مصر - عبدالله نجيب، حلب - ناصر بن حمد بن ناصر المفرج، الأحساء - علي عبدالله العباسي، الطائف - عبدالله نجم الفهيد، الظهران - حمودي قمري، الجزائر - شيخ بن محمد صديق قطب، مكة المكرمة.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحِّب بكم أصدقاءَ لـ «القافلة» التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

حول

هجرة النص بين أبي ريشة ونزار

طالعت ديوان الأمس في حلته الجديدة الباهرة العدد 2 المجلد 58 مارس-أبريل 2009م، الذي استضاف الشاعر السعودي أحمد علي المنعي واختياراته الرائعة المشرقة التي تسبح في بحور الشعر العربي وعصوره.

ومن جميل اختياره تلك الإشارة الذكية الباهرة في إيراد جزء من قصيدة عمر أبي ريشة، وجزء من قصيدة نزار قباني، مما أعادني إلى خاطرة كنت قد توقفت عندها قبل ذلك. ومما حفزني على خط هذه الكلمات ما ذكره الأستاذ الشاعر تعليقاً على أبيات أبي ريشة «وأحسب أن نزاراً كان أجمل وأبلغ...».

فلقد قرأت قبل فترة ليست بالقصيرة قصيدة رائعة للشاعر نزار قباني بعنوان «غرناطة». ثم بحثت في ذاكرتي عن أبيات جميلة قرأتها قديماً للشاعر عمر أبي ريشة، وتحمل الموضوع والبناء نفسيهما. وعندما وجدت أبيات أبي ريشة، وجدت أنه كتبها عام 1953م، في حين كتب نزار قصيدته «غرناطة» في الستينيات، وعلى وجه التحديد في الفترة من 1962 إلى 1966م. وهي نتاج التجربة الإسبانية في مرحلة الانفعال القومي والتاريخي كما يسمّيها الشاعر في كتابه «قصتي مع الشعر».

قصيدة نزار

ولنبدأ بهذه الأبيات من قصيدة نزار «غرناطة» من ديوانه «الرسم بالكلمات» الصادر عام 1966م. في هذه القصيدة يستيقظ الوجع التاريخي الأندلسي، على حد تعبير الشاعر، حيث يلتقي في القصيدة (بالفتاة/التاريخ). وتتثاءب المرئيات لتفيق من سبات عميق استغرق سبعة قرون، وقد أتاح له المكان بسطوته التاريخية أن يتجول شعرياً في جنات العريف ومدخل الحمراء، وأن ينصت إلى الزقزقات والزركشات على السقوف بقول نزار:

في مدخل الحمراء كان لقاؤنا
ما أطيب اللقيا بلا ميعاد
عينان سوداوان في حجريهما
تتوالد الأبعاد من أبعاد
هل أنت إسبانية؟ ساءلتها
قالت وفي (غرناطة) ميلادي
غرناطة!! وصحت قرون سبعة
في تينك العينين بعد رقاد
وأمية راياتها مرفوعة
وجيادها موصولة بجياد
ما أغرب التاريخ كيف أعادني
لحفيدة سمراء من أحفادي
وجه دمشقي رأيت خلاله
أجفان (بلقيس) وجيد (سعاد)

ودمشق أين تكون؟ قلت ترينها
في شعرك المنساب نهر سواد
في وجهك العربي والثغر الذي
مازال مختزنا شموس بلادي
في طيب (جنات العريف) ومائها
في الفل في الريحان في الكباد
سارت معي والشّعر يلهث خلفها
كسنابل تركت بغير حصاد
ومشيت مثل الطفل خلف دليلتي
وورائي التاريخ كوم رماد
الزخرفات أكاد أسمع نبضها
والزركشات على السقوف تنادي
قالت هنا الحمراء زهو جدودنا
فأقرأ على جدرانها أمجادي
أمجادها!؟ ومسحت جرحًا نازفًا
وكتمت جرحًا آخرًا بفؤادي
ياليت وارثتي الجميلة أدركت
أنّ الذين عنتهمو أجدادي
عانقت فيها عندما ودّعتها
رجلاً يسمى (طارق بن زياد)

على أن جمالية هذه القصيدة لا تحول دون الإشارة إلى الإسقاط التاريخي غير الموفق الذي لابد للقارئ أن يلاحظه في البيت الأخير. فلو كان الشخص الذي عانقه نزار رجلاً إسبانياً لبدت الإحالة إلى طارق بن زياد طبيعية ومستساغة، أما وأن الشخص هو فتاة حسناء فإن الإحالة إلى شخصية ذكورية لا تبدو في مكانها.

جذورها عند أبي ريشة

هذه القصيدة لنزار قباني، نجد جذورها في شعر عمر أبي ريشة، وتحديداً في قصيدة له بعنوان «في الطائرة» حيث يصدّر عمر أبوريشة قصيدته بالكلمات التالية: «كان في رحلة إلى الشيلي وكانت إلى جانبه حسناء إسبانيولية تحدّثه عن أمجاد أجدادها القدامى العرب دون أن تعرف جنسية مَن تحدث».

وثبت تستقرب النجم مجالا
وتهادت تسحب الذيل اختيالا
وحيالي غادة تلعب في
شعرها المائج غنجًا ودلالا

طلــــعــة ريــــا وشـــــيء بــاهــر
أجـــمــال؟ جــل أن يُـســمـى جـمـالا
فـتـبـسّـمـت لـهــا فـابـتـسـمـت
وأجـــالــت فـــيَّ ألــحـــاظـاً كـسـالى
كــل حـــرف زل عـــن مـرشـفـهـا
نـثـر الـطـيـب يـمـيـنـا وشـمـالا
قـلـت يـا حـسـنـاء مَـن أنــت؟ ومـن
أي دوح أفــرع الـغـصـن وطـالا
فــرنــت شـامـخـة أحـسـبـهـا
فــوق أنــســاب الـبـرايـا تـتـعـالى
وأجــابــت أنــا مــن أنـدلـس
جـنـة الـدنـيـا سـهـولا وجـبـالا
وجـــدودي ألـمـحَ الـدهـر عـلى
ذكـرهـم يـطـوي جـنـاحـيـه جـلالا
بـوركـت صـحـراؤهـم كـم زخـرت
بـالـمـروءات ريـاحًـا ورمـالا
حـمـلـوا الـشـرق سـنـاء وسـنـى
وتـخـطـوا مـلـعـب الـغـرب نـضـالا
فـنـمـا الـمـجـد عـلـى آثـارهـم
وتـحـدى بـعـدمـا زالـوا الـزوالا
هـــؤلاء الـصـيـد قـومـي فـانـتـسـب
إن تـجـد أكـرم مـن قـومـي رجـالا
أطــرق الـقـلـب وغـامـت أعـيـنـي
بـرؤاهـا وتـجـاهـلـت الـسـؤالا!!

الجدير بالذكر أن كلا الشاعرين -أبي ريشة ونزار- لديهما الكثير من السمات المشتركة، وإن كان السبق فيها لأبي ريشة، فهو أكبر سناً من نزار وأسبق منه في قول الشعر. فهما من قطر عربي واحد (سورية) أجادا في الشعر وعملا في المجال الدبلوماسي.

وُلد عمر أبو ريشة عام 1910م ودخل المجال الدبلوماسي سنة 1950م ثم عيّن وزيراً مفوضاً لسوريا في البرازيل ثم الأرجنتين ثم الهند. يقول عنه السفير والشاعر بديع حقي: «إن عمر أبا ريشة الدبلوماسي لم يكن سفيراً لبلده في دول شتى فحسب، بل كان سفيراً للكلمة العربية الشاعرة الملهمة التي قدّر لها أن تمرع على شفتيه كما ولا أروع، لتزهى به سوريا معتزة بأن ممثلها في هذا البلد أو ذاك هو قمّة باذخة في الشعر العربي المعاصر».

أما نزار قباني، فهو الأكثر شهرة بين شعراء العصر الحالي، ولد عام 1923م. تأثر بالشاعر الأندلسي يحيى الغزال في بداية حياته الشعرية. ثم عدل عن هذا الطريق وأخذ طريقاً لم يسلكه شاعر من قبل أخرج به الشعر العربي من جل خصائصه وأكثر مقوماته.

وبعد، إذا كنتم لا ترون معي أن النص السابق لعمر أبي ريشة قد هاجر موضوعاً، ورؤية (التقنية التعبيرية القائمة على الحوار السردي، إضافة إلى المقاربة والسياق والخاتمة، فالفارق بين القصيدتين يكاد ينحصر في الخلفية المكانية، حيث يلتقي أبو ريشة الفتاة الإسبانية على متن طائرة مسافرة إلى تشيلي، بينما يلتقي نزار فتاته المماثلة في قصر الحمراء. أما ماعدا ذلك فالمناخات والصور والمعاني تتقاطع بشكل لافت).

وإن كان اختلاف المكانين في النصين لمصلحة (غرناطة) نزار قباني، حيث أتاح له المكان بسطوته التاريخية أن يتجوَّل شعرياً في أرجائه، إلا أن الطائرة كمكان، لم تستطع أن تحد من شاعرية أبي ريشة في قصيدته تلك التي كتبها عام 1953م، أي قبل قصيدة نزار بسنوات عشر.. فأرجو أن تعيدوا القراءة مرة أخرى.

صلاح عبد الستار محمد الشهاوي

مصر - طنطا - نواج

تعقيباً على ديوان الأمس «القافلة» عدد مارس-أبريل 2009



مصروف البيت بيد مَنْ؟

كان مقال «مصروف البيت بين الزوج والزوجة» من أفضل مقالات العدد الأخير (مارس - أبريل) من مجلة القافلة. فقد أثار اهتمام الكثيرين ممن أعرفهم، وربما أثار نقاشاً في بيوت كثيرة. ولكن هذا النقاش لم يخرج إلى العلن، لأنه من النادر أن يخرج مثل هذا النقاش إلى العلن كما أشارت الأستاذة نوال حسين حقي كاتبة المقال.

طبعاً، لا يمكن مناقشة كل الأمثلة التي وردت في هذا المقال. ولا يمكن إسقاطها على حالات محددة نعرفها. فلكل حالة خصوصيتها، ويجب على العقل أن يكون سيد الموقف. ولكن هناك جانباً من الموضوع لفت نظري بشكل خاص، وهو عندما تحدثت الكاتبة عن دور الروابط الأسرية المتينة في مجتمعنا العربي، والتي تميزنا عما هو عليه الحال في المجتمعات الغربية. وكانت الكاتبة على مستوى عال من الشجاعة عندما اعترفت بأن لهذه الروابط الأسرية المتينة حسناتها وسيئاتها.

فبحجة أن مجتمعنا الشرقي يتميز بكذا وكذا، فعلينا أن «نستمر» بالتصرف بشكل محدد، وفق ما تقتضيه التقاليد، أو بعبارة أخرى تماماً كما كان يتصرف أهلنا وأجدادنا من قبلنا. وفيما يتعلق بمصروف البيت وإدارة أموال العائلة، أعرف صديقات كثيرات يقبلن بملء إرادتهن ببقاء «النظام الداخلي» تماماً كما كان في بيوت ذويهن وأجدادهن، وحجتهن في ذلك «إن مجتمعنا الشرقي يقول كذا وكذا..».

إنني لا أنتقد هنا مجتمعنا الشرقي ولا تقاليده، ففيه وفي هذه التقاليد الكثير مما هو جيد ومفيد. ولكن لا بد من أن يعترف الجميع بأن نمط حياتنا تغيَّر (برضانا أو غصباً عنا). وللحياة العصرية موجباتها وحسناتها وسيئاتها وبشكل خاص «مخاطرها». وتفرض هذه المخاطر علينا أن نتجاوز «المسلَّمات» التي سادت حياة ذوينا وأجدادنا، لنأخذ التدابير الاحتياطية اللازمة لمواجهتها. ولو شئتم، لرويت لكم ألف قصة واقعية عن سيدات وقعن فجأة في مصائب عائلية، لأنهن كن يعتمدن على «الترابط الأسري» وعلى «أبدية» العلاقة الزوجية الممتازة الكفيلة بدرء احتمال أية مشكلة.

إن قناعتي الشخصية تقول إن على المرأة أن تكون شريكاً كاملاً في إدارة أموال العائلة، إذا كنت تتمتع بالأهلية اللازمة.. وإذا كانت امرأة عاملة، فيجب أن تكون الحدود ما بين أموالها وأموال زوجها واضحة، من دون أن يعني ذلك احتكار كل واحد من الزوجين لحصته من مدخول البيت، ولا إلغاء التكاتف والتعاون ودعم الواحد للآخر.

بعبارة أخرى، يمكنني القول إنني مع الحد الأقصى من التعاون ما بين الزوجين، ومع الحد الأعلى من الثقة التي يجب أن تسود بينهما. ولكنني من جهة أخرى مع أدنى حد ممكن من «التشابك» في الاستفادة من المال المشترك. فالشراكة الواضحة تصنع الصداقات (والزيجات) الجيدة.

برلنتي فؤاد حسن

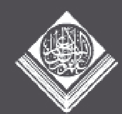
القاهرة

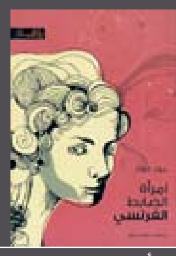
تعقيباً على مقال «مصروف البيت.. بين الزوج والزوجة» «القافلة» عدد مارس-أبريل 2009

قافلة النشر

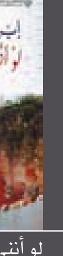
إصدارات جديدة

الدار العربية للعلوم ناشرون







خواطر جريئة عن التعليم السعودي
منيرة جمجوم

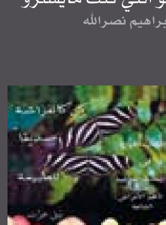
امرأة الضابط الفرنسي (رواية)
جون فاولر

غومورا (رواية واقعية)
روبيرتو سافيانو

لو أنني كنت مايسترو
إبراهيم نصرالله

توكايا غراندي (رواية)
جورجي أمادو

دار العلم للملايين








كيف نبني العائلة
جون روزموند

دليل الفيتامينات والمعادن الضرورية
سلسلة الطبخ العالمي

دليل المعلم للتدريس الفعال
ديبرا ديفلي وشارلوت ساسمان

كن كالفراشة صديقاً للطبيعة
نبيل عزت

العلاج الطبيعي للنساء
سوزن بيرغ

دار الفراشة





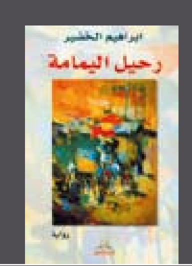
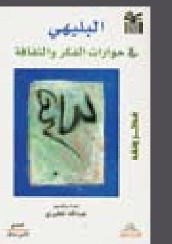
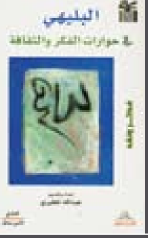
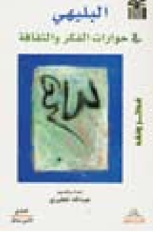


العلاجات المعجزة للصحة النفسية
باتريك هولفورد

السكر والدهون
باتريك هولفورد

جسمك يتكلم.. اسمعه!
ديب شابيرو

مؤسسة الانتشار العربي




رحيل اليمامة (رواية)
إبراهيم الخضير

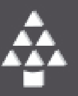
البليهي في حوارات الفكر والثقافة
عبدالله المطيري

تحولات النقد وحركية النص
عالي سرحان القرشي

الوقت أصفر أحياناً (قصص)
عبدالله الزماي

وداعاً للخجل
ليلى لونديز

مكتبة لبنان ناشرون








موسوعة الحيوانات للناشئين

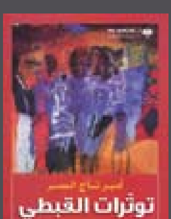
موسوعة جسم الإنسان للناشئين

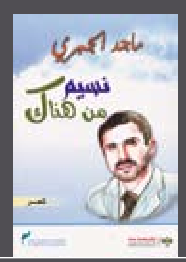
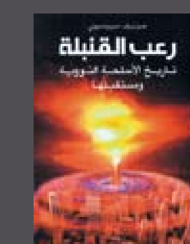
ما الذي يجعل مني ما أنا ومن أنا؟

فكِّر عددياً

موسوعة الحيوانات الشاملة

دار ثقافة للنشر والتوزيع




توترات القبطي (رواية)
أمير تاج السر

النزع الأخلاقي في الشعر الإماراتي النبطي
زيدان عز الدين علوه

رعب القنبلة
جوزيف سيرينسيوني

نسيم من هناك (شعر)
ماجد الجبري

مسائل الجوار والحماية عند البادية في الجزيرة
قاسم بن خلف الرويس

دار الفارابي






الموسيقى العربية في القرن العشرين
إلياس سحاب

شربنا من الكون حتى العدم (قصائد)
فيصل أكرم

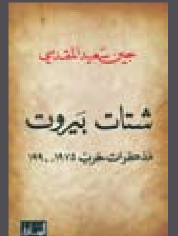
الانحدار (حكايات)
محمد منصور الشقحاء

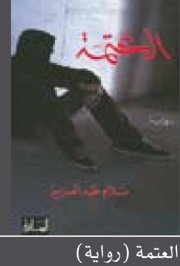
ظل يسقط من مرآة (قصص)
نبهان الحنشي

علم النفس الثقافي
برتران ترودك

دار الساقي





شراع العطايف (رواية)
عبدالله بن بخيت

شتات بيروت
جين سعيد المقدسي

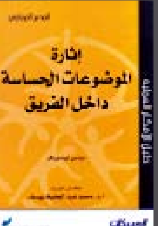
الخليج 2025
محمد الرميحي

العتمة (رواية)
سلام عبدالعزيز

فرح (شعر للأطفال)
حسن عبدالله

مكتبات ونشر العبيكان



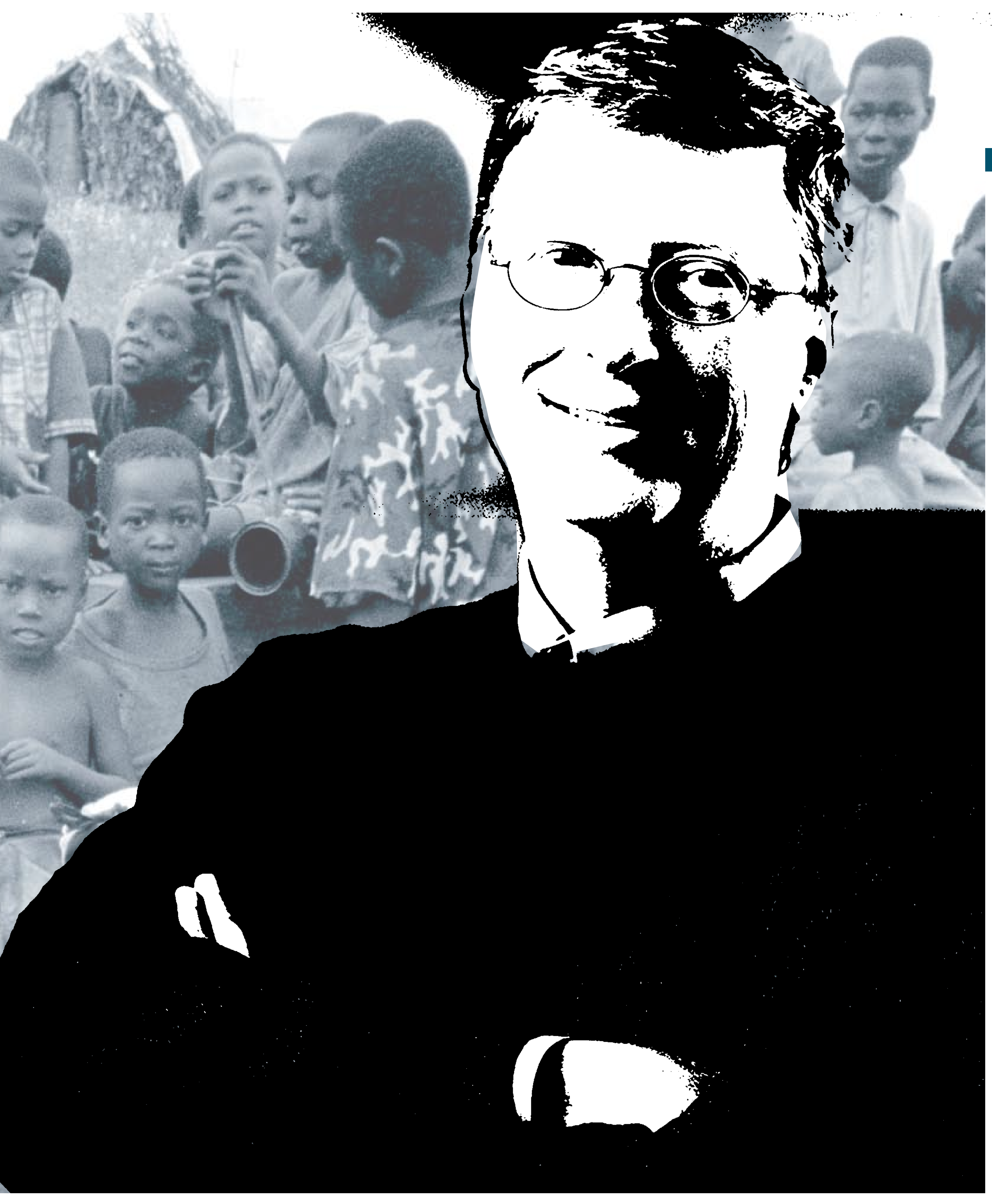




الطريق (رواية)
كورماك ماكارثي

إثارة الموضوعات الحساسة داخل الفريق
دينس ليندورفر

التعلم من الحياة
ماريان ن. رودرمن

قيادة الفرق المشتتة
مايكل إي. كوسلر



مفردة جديدة في العمل التطوعي:

الرأسمالية الخيرية..

يشهد العمل التطوعي تحولات جذرية تطال جذوره وحتى مفهومه، وتعطيه دفعاً لم يسبق أن عرفه خلال تاريخه الطويل. وما الثروات العملاقة التي أوقفها أصحابها على الأعمال الخيرية في الآونة الأخيرة، إلا واحدة من هذه التحولات العميقة، لأنها جاءت مشفوعة بنظرة جديدة إلى الرأسمالية ودورها.

عبدالله بشرى الهاشمي* يحدثنا عن «الرأسمالية الخيرية»، هذا الوجه الجديد للعمل الخيري وللرأسمالية في آن، وما يتوخى منها على صعيد معالجة الفقر في العالم.

* باحث ومترجم من السودان

Magnum Photos

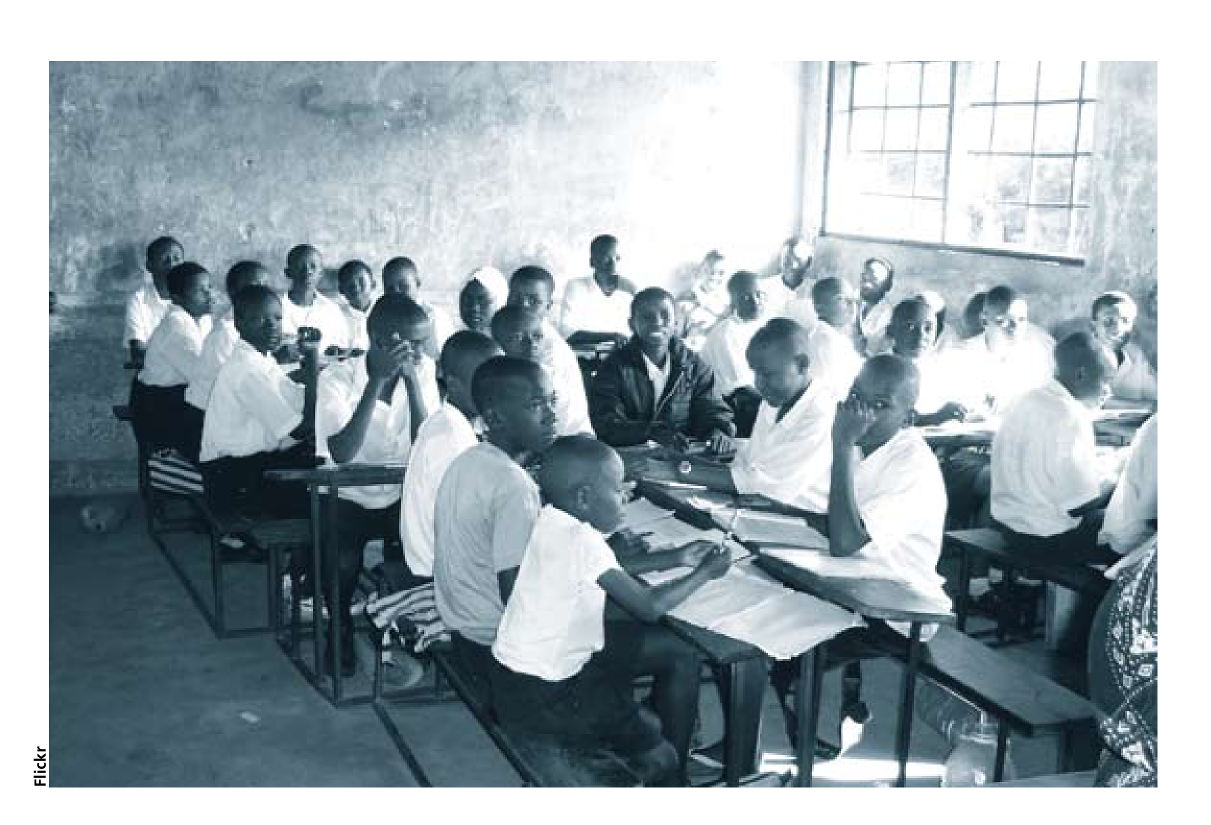
ظهرت بوادر العمل التطوعي بشكلها الراهن في العالم العربي، خلال القرن التاسع عشر. واستمر بوتائر مختلفة حسب الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لكل دولة، وكان له إسهامات مقدرة في تقديم العون والمساندة للمحتاجين.

تشكِّل الثقافة والقيم السائدة عوامل مهمة بالعمل التطوعي، لما للمنظومة الثقافية والقيمية من تأثير على الدوافع والأسباب التي يحملها الناس. ومما لا شك فيه، أن الموروث العربي والإسلامي يحتوي على العديد من القيم التي تحفز الفرد على السعي من أجل مساعدة الغير. ففي الثقافة الإسلامية، حظي العمل التطوعي بمكانة عالية من الاهتمام، إذ نجد الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تحث على كفالة الأيتام، ومساعدة الضعفاء والمعوزين والفقراء، ومدّ يد المساعدة للعاجزين والمعوقين، والإسهام في التعليم ونشر العلم، والحفاظ على البيئة، والمشاركة في العمران والتطوير، إلى آخر ما هنالك من مجالات متعددة ومتنوعة للعمل الخيري والتطوعي.

لا يوجد مفهوم واحد للعمل التطوعي عند المختصين بهذا المجال، ولكن أغلب التعريفات تتفق على الأقل بأن كلاً من الجوانب التالية يشكِّل عنصراً مهماً في مفهوم العمل التطوعي.

- إنه يعكس وعي المواطن وإدراكه لدوره في المجتمع وانتماءه إليه.
- إن العمل التطوعي هو الجهد الذي يبذله المواطن من أجل مجتمعه أو من أجل جماعة معيَّنة من الناس من دون توقع جزاء مادي مقابل جهوده سواء كان هذا الجهد بالنفس أو المال.
- إن العمل التطوعي هو جهد إرادي يقوم به الفرد أو الجماعة من الناس طواعية بتقديم خدماتهم للمجتمع أو إحدى فئاته.

من هذا، يمكن الاستنتاج أن العمل التطوعي هو حركة اجتماعية تهدف إلى تأكيد التعاون وإبراز الوجه الإنساني للعلاقات الاجتماعية، مع إبراز أهمية التفاني في البذل والعطاء عن طيب خاطر في سبيل سعادة الآخرين. ولكن لا يجب أن ينظر إلى العمل التطوعي بمنظور مثالي لجهة أهداف الأفراد الذين ينخرطون بالعمل التطوعي ودوافعهم، حيث قد تكون هناك أهداف غائية وإن كانت غير مباشرة للأفراد، تؤثر على العمل التطوعي سلبياً في بعض الأحيان.


Flickr

الحل في التعليم وليس في المساعدة الآنية



أوبرا وينفري
كارلوس سليم حلو
محمد يونس خاتون

جاءت أهمية العمل التطوعي من عدم قدرة الدول على الاستجابة لكل الحاجات المجتمعية، أو تلك الخاصة ببعض الفئات لأسباب مادية بحتة، تتلخص في عدم القدرة على توفير المصادر المالية الكافية لسد حاجات كافة أفراد المجتمع. وفي عصرنا الحالي بتحولاته الثقافية والتكنولوجية والاقتصادية، صار العمل التطوعي محركاً لكثير من الشباب المتحمسين بدوافع مختلفة. وسنحاول هنا، ونحن نستشرف الذكرى 150 لإنشاء أعرق منظمة للعمل الإنساني هي الهلال والصليب الأحمر الدوليين، رصد هذه التحولات والدوافع لدى المتطوعين الجدد، لمعرفة أثرها بالنسبة لعمل عرف بمثالية دوافعه عبر التاريخ.

كيف يمكن جمع العمل الخيري كنشاط إنساني مثالي والاقتصاد الرأسمالي الهادف إلى الربح فقط؟

ثورة العمل التطوعي

بدأت أولى الخطوات التي بدلت وجه العمل التطوعي، ربما إلى الأبد، في السادس والعشرين من يونيو 2006م عندما تبرع وران بافت، الملياردير الأمريكي، بمبلغ 31 مليار دولار من ثروته للأعمال الخيرية، واضعاً هذا المبلغ الضخم بين يدي منظمة بيل وميلندا غيتس الخيرية، إضافة إلى ستة مليارات أخرى من الدولارات وضعها تحت تصرف منظمات أخرى تديرها عائلته. سبقه في ذلك بأيام فقط بيل غيتس «محرك» مايكروسوفت العملاقة الذي تبرع برقم مشابه لإنشاء منظمة بيل وميلندا الخيرية. فما الذي دعا اثنين من أغنى أغنياء العالم إلى بذل مثل هذه المبالغ التي تعادل اقتصاديات عدد من الدول مجتمعة؟. هل كان ذلك من أجل صرفها على فقراء العالم كما فهمنا عبر العصور من تعبير «عمل خيري»؟ أم وراء ذلك أسباب وأفكار أخرى؟

إن الاختلاف الكبير في العمل التطوعي مقارنة بالعقود السابقة، نابع من التحولات الثقافية التي طرأت على الإنسان، وهي تحولات طبيعية تمر بها الأمم عبر العصور. لقد عرفنا عبر التاريخ، أن لكل أمة عقولاً تجدد دمائها كلما ركدت، وأشخاصاً يحملون راية الطلائع في عصرهم، وهم أكثر الشخصيات تأثيراً على الثقافة الجمعية للناس. في الغرب مثلاً، يمكن أن يكون بيل غيتس هو المحرك لتلك الثقافة الجمعية. فالرجل استطاع أن ينقل شركته التي أنشاها في عام 1975م، من شركة صغيرة إلى أكثر الشركات تأثيراً في العالم من خلال إسهاماتها في إرساء ما يسمى «عصر العولمة». إن الحراك الثقافي الكبير الذي أحدثته المنتجات التكنولوجية في هذا العصر، هو ما حفز أحد عرابيه لتجربة حظه مرة أخرى. لكن هذه المرة في مجال اتفق الناس على أنه يصب في مساعدة الآخرين دون انتظار أجر على ذلك. ليس هذا فقط، وإنما أن يتنازل عن إدارة شركته العملاقة مايكروسوفت، متفرغاً للعمل بدوام كامل في منظمته «بيل وميلندا غيتس الخيرية»، مستصحباً في ذلك الخبرات التي جناها طوال أكثر من ثلاثين عاماً في عالم الأعمال. وهو التحدي الجديد الذي وضع صاحب مايكروسوفت نفسه فيه.

الرأسمالية الخيرية

ربما كان المصطلح في حد ذاته غريباً نسبة لجمعه بين متناقضين «Philanthrocapitalism». فقد اتفق الناس على التفريق بين العمل الخيري كنشاط إنساني يرتاده المثاليون، وبين الاقتصاد الرأسمالي كنشاط تجاري هدفه المعلن هو الربح فقط. فما هي حقيقة هذا المصطلح الجديد؟.

يؤمن المتبرعون الجدد بعدم فعالية نظام العمل الخيري القديم في مواجهة مشكلات العالم الحديث المتغيرة. فعلى الرغم من المليارات التي تصرف سنوياً على العمل الخيري، إلا أن القليل من التغيير فقط يحدث نحو الأفضل على أرض الواقع. لذا، يعتقد الرأسماليون الجدد بإمكانية القيام بعمل أفضل مقارنة بمن سبقهم

فـي هذا المجـال. وبعدما شكلت العقـود السابقة حقبة ذهبيـة للرأسماليـة، لـذا يفكـر المتبرعون الجـدد أن بإمكانهـم تطبيـق نجاحاتهم التـي اكتسبوها في مجال الأعمال على العمل الخيـري التطوعي بالكفاءة نفسها. ومـن هنا جـاءت تسمية هذه الاتجـاه الجديد في العمل الخيري.

تعتقـد «الرأسماليـة الخيريـة» أن بإمكانها إنقـاذ ملايين الأرواح مـن براثـن الفقر والجـوع والمرض والجهل التي تعصـف بالعالـم الحديث، عـن طريق الأمـوال والخبرات المتراكمة المكتسبة خلال عقود من أوجه النشاط في مجال الأعمـال. مما يدل على جديـة هذه «الحركـة» الرأسمالية الجديـدة. فقد تفرَّغ بيل غيتس للعمل في مؤسسته الخيرية ابتـداءً من شهر يونيو 2008م. وهو يقول في مقابلة أجريت معـه «إن اثنين من خمسة أشيـاء مهمة حققتها في حياتي، همـا الحاسـب الشخصي الذي غيـر حياة المليـارات من الناس، أمـا الثانـي فهو ما آمـل تحقيقه في مجـال العمل التطوعي».

تقـوم منظمة بيل وميلندا الخيريـة بمحاربة الأمراض التي تعصف بالدول النامية في إفريقيا وآسيا مثل الملاريا والسل والإسهـال والإيدز. كما تقـوم بتمويل أربعـة عشر مشروعاً للأبحاث في مجال اللقاحات وتطوير طرق اقتصادية فعَّالة لقياسـ الصحة العامـة. كما تقـوم المنظمة بتوفيـر مئـات الملاييـن مـن الـدولارات سنوياً لتسريع عجلة النمو الاقتصادي في الـدول الفقيرة، إضافة إلـى تحالفها مع «مؤسسة روكفلر الخيرية» التي تعمل منذ عـام 1940م علـى مساعـدة المزارعين للحصول علـى محصول أفضل في دول إفريقيا وآسيا.



مما لا شك فيه، أن حركة الرأسمالية الخيريـة سوف تنمو باطـراد بزيادة عـدد الأثريـاء فـي العالـم. ففـي عام 2008م، ذكـرت مجلـة فوربـز أن عـدد أصحـاب المليـارات في ذلك العـام وصل إلـى 1125 مقارنـة بـ 140 فقـط فـي عـام 1986م، هـذا إضافة إلـى آلاف المليونيرات.

وبظهـور الرأسماليـة الخيريـة، تطـورت مصطلحـات اقتصاديـة جديـدة لتصـف هـذا الاتجـاه المختلـف في العمـل الخيـري، مثـل «المضاربـة الخيريـة» (Venture Philanthropy)، حيـث ينظـر العاملون في هـذا الشأن إلـى أنفسهـم كمستثمريـن اجتماعيين وليـس كمتبرعين تقليدين، وكمجددين يدعمون الذين يقدمون حلولاً خلاَّقة لمشكلات المجتمع «Philanthropreneurs»، وكمسخرين للأربـاح التي يجنونها من العمل الخيري لفائدة المجتمع. وهذا بالطبع مخالـف لتقاليد العمل الخيري التي يفترض أن يمنـح المال لا أن يأخذ!. لكن ترى الرأسمالية الخيرية أنه إذا كان في الإمكان منح المال من أجل حلول لمشكلات المجتمع، ونتـج عن ذلك مردود مـادي، فإنه من الممكن جـذب الكثير من رؤوس الأمـوال بصورة أسرع، مما يخلق أثـراً إيجابياً سريعاً أكثر من مجـرد التبرع بهذه الأموال، وهـذا ما يجعـل أمر التبرع بها أكثـر فاعلية. ويثبت صدق هـذه النظـرة العدد المطرد مـن الأعمـال التقليدية التي تتجـه الآن إلـى الاستثمار في العمـل التطوعي في الغرب. ويـري غيتـس أن هـذه هـي البدايـة لمـا يسميـه «ابتكار النظـام» (System Innovation) لما سماه «الرأسمالية الخلاَّقـة» (Creative Capitalism). فما هي طبيعة هذه الرأسمالية؟

مبادئ الرأسمالية الخلاَّقة

يعتقد بيل غيتس، وهـو أول من طرح مصطلح «الرأسمالية الخلاَّقة» في منتدى دافوس الاقتصادي بسويسرا في يناير 2008م، أن على الرأسمالية التي خدمت الأغنياء في زيادة ثرواتهـم، أن تتحـول الآن إلى خدمة الفقـراء أيضاً. ونادى بنظـام اقتصـادي جديد قادر علـى جذب رجـال الأعمال إلى العمل الخيري. هـذا النظام لديه مهمتان هما: تحقيق الأربـاح وفي الوقت نفسه خدمـة أولئك الذين لم يستفيدوا مـن قـوى السـوق. وللمحافظة علـى ديمومة هـذا النظام، يجب أن تتوافر فيه الربحية كمحفز حيثما كان هذا ممكناً. لكـن، بما أن الربحية لا تتوافر في مثـل هذا النظام دائماً، لذا يكـون الحافز البديل دائماً هو الاعتـراف بفضل العمل وبالتالـي تقديـر الجهود التي تقـوم بها المنظمـة من قبل «الزبائن» والسوق.

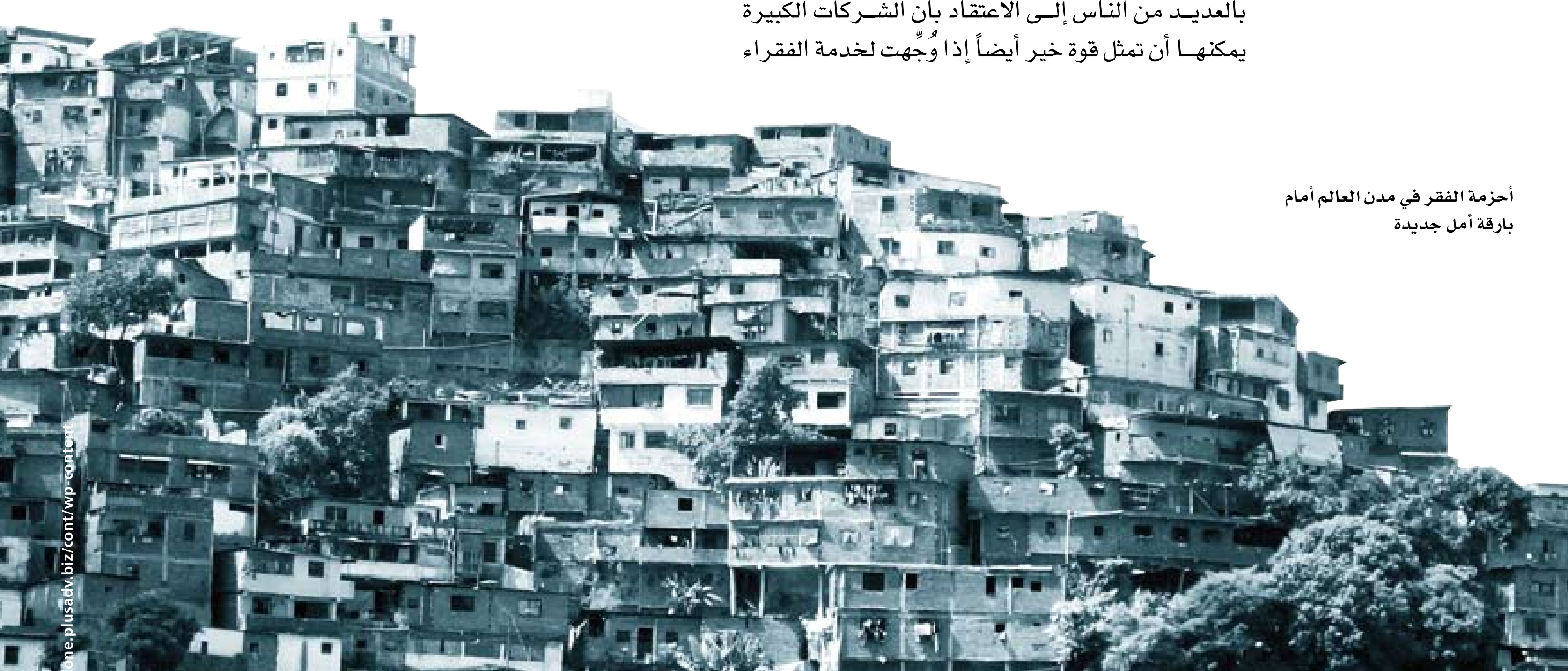
يكمـن التحـدي الأكبر فـي تصميم نظام يجمـع ما بين حوافز السوق والاعتراف بالفضل والأرباح من أجل قيادة هذا التحول فـي النشاط الرأسمالي. فهـذه الرأسمالية

الخيرية يمكن تبنيها بواسطة كل المؤسسات الخيرية بطريقة أو أكثر للوصول إلى خدمة أكبر عدد ممكن من المحتاجين، والإسهام في إيجاد نوع من العدالة الاجتماعية سلبتهم إياها السوق التي تستجيب فقط للطلب لا إلى الحاجة. وأحوال الناس قد تكون بصدد التحسن، ولكن ببطء كبير. والثورة التكنولوجية من جانبها، زادت من حجم الظلم الذي يقع الآن على حوالي مليار شخص حول العالم. كما أن تغيرات المناخ سوف تزيد من حجم الضرر الواقع على هؤلاء الفقراء والذين لم يسهموا في حدوثه بالقدر نفسه الذي سببته الرأسمالية.

كارنج: «إن أفضل طريقة لإدارة الثروة هي منحها خلال حياة صاحبها، لا توريثها لعواقبها الوخيمة على الوارثين»

تختلف الرأسمالية الخلاَّقة عن نظيرتها الرأسمالية التقليدية، أو رأسمالية الأعمال التقليدية التي تعتمد على منح مبالغ قليلة من المال لقاء الشهرة في الغالب وليس رغبة في تغيير العالم نحو الأفضل. كما تختلف عن المؤسسات الاجتماعية القديمة التي لا تلعب دوراً سوى ممارسة نوع من أنواع العلاقات الاجتماعية في أغلب الأحيان. هذه الأدوار غير الفعالة لاتجاهات العمل الخيري التقليدية في حياة غالبية البشر، هي التي حدت بالعديد من الناس إلى الاعتقاد بأن الشركات الكبيرة يمكنها أن تمثل قوة خير أيضاً إذا وُجِّهت لخدمة الفقراء وفق آلية جديدة. وللاستدلال على ذلك، فإن العديد من الشركات الكبرى بدأت في تضمين خطط أعمالها جوانب تعود بالخير على المجتمع وبالربح على الشركة. مثلاً، شركة وول مارت العملاقة في أمريكا، ترى أن مجال الحفاظ على البيئة فرصة مربحة لها من خلال التوفير في مواد التعبئة التي تضر بالبيئة أحياناً كثيرة، كما أن توفيرها يساعد في خفض النفقات بالنسبة للشركة من ناحية أخرى.

يرى الملياردير الهندي عظيم بريمجي المسجل رقم 18 في قائمة أثرى أثرياء العالم لعام 2008م، بثروة تقدر بحوالي 12,7 مليار دولار، وصاحب «مؤسسة عظيم الخيرية» التي تهتم بتعليم الفقراء، أن أي طفل متعلم هو مهم من أجل الديمقراطية، وأن الانفجار السكاني الذي تعاني منه الهند يمكن كبحه عن طريق أية فتاة تصل في تعليمها إلى المستوى الخامس أو السادس من سلم التعليم. مثل هذه الفتاة، يمكنها أن تعي أهمية الأسرة الصغيرة في المستقبل، وأن أي تعليم أساسي يزيد المعرفة بالصحة الأولية، فيخفف من نفقات العناية الصحية مستقبلاً، وبالتالي من الضغوط الاقتصادية على الأسر. وبالنسبة إلى بريمجي فإن ازدهار أعماله قد يرتبط بالديمقراطية والصحة في الحدود الدنيا وربما بالشهرة أيضاً.



أحزمة الفقر في مدن العالم أمام بارقة أمل جديدة

klone.plusadv.biz/cont/wp-content

ومثلما كانت العولمة إحدى القوى المحركة للحقبة الرأسمالية الذهبية التي عاشها العالم منذ الثورة الصناعية وحتى الآن، فإن فكرة انضمام الأثرياء بجدية إلى العمل الخيري قد بدأت تنتظم في العالم أيضاً.

في عام 2007م أعلن ثالث أغنى رجل في العالم، وهو المكسيكي كارلوس سليم الحلو أنه سوف يمنح عشرة مليارات دولار أمريكي من ثروته لمؤسسته الخيرية. حتى نجوم الغناء أمثال مغنية البوب الكولومبية شاكيرا ونجمة التلفزيون المليارديرة الأمريكية أوبرا وينفري انضموا إلى رسملة العمل الخيري، حيث راحت تعمل هذه الأخيرة كشريكة في مؤسسة بيل غيتس الخيرية.

قد يتساءل الناس ما الذي تفقهه نجمة البوب عن الفقراء في إفريقيا؟ والإجابة هي أن نجوم المجتمع هم جزء مكمل من الرأسمالية لمقدرتهم على التأثير في «سوق» الجماهير، خصوصاً في المواضيع التي تتعلق بتحريك الرأي العام. لذا، فالعمل الخيري لا يلغي دور أحد مهما كان صغيراً.

من النواحي الأخرى، إن كان الهدف هو مساعدة الناس، فإن الرأسمالية الخيرية تملك القابلية والمرونة اللازمتين لذلك. فهي تملك القدرة على القيام بأعمال أساسية أفضل من غيرها. حيث يمكنها المخاطرة بتنفيذ أفكار تعجز حتى الحكومات عن القيام بها. كما أن لها القدرة على تحريك المصادر بسرعة أكبر حين الاحتياج إلى ذلك، فهي ليست مطالبة برفع سقف الأرباح كما في شركات المساهمة التقليدية.

تاريخ الرأسمالية الخلاَّقة

في بدايات الثورة الصناعية كتب رجل الأعمال اندرو كارنج «إن مشكلة عصرنا هي الإدارة الرشيدة للثروة، التي يبدو أن روابط الإخوة بين الفقراء والأغنياء ما زالت تساعد على انسجام عراها». أما في القرن الواحد والعشرين، فيبدو أن هذه الفجوة بين الفقراء والأغنياء قد كبرت، وآن الأوان إلى إيجاد هذه الإدارة الرشيدة للثروة. وهذا ما يقوم به الرأسماليون الخيريون في محاولتهم إيجاد طرق بديلة لإشراك الفقراء في العمل.



Reuters

العمل التطوعي التقليدي.. للحالات الطارئة

يعتقد كارنج أن أفضل طريقة لإدارة الثروة هي منحها خلال حياة صاحبها لا توريثها لعواقبها الوخيمة على الوارثين. كما يرى أن منحها للدولة، يعني عدم معرفة الموهبة التي تمتع بها صاحبها في جمعها للصالح العام. ويرى أيضاً عدم العدالة في امتلاك الثروة بسبب النمو الاقتصادي المطرد الذي يجعلها في جانب واحد لذوي الحظوة بينما يترك الأغلبية في الجانب الآخر، وأن ما يجب أن يقوم به الرأسماليون الخيريون الآن هو مساعدة الناس بمنحهم المال مع الخبرة التي اكتسبوها لمساعدة أنفسهم. وبذلك، يُعد أصحاب الثروات مجرد أوصياء عليها في إدارتها لأجل الصالح العام.

نشوء مؤسسات تمد المتبرعين بمعلومات عن أكثر المنظمات فاعلية في مساعدة الناس

روح الرأسمالية الخيرية

بحسب رؤية بيل غيتس، فإن قيمة الإنسان في إفريقيا يجب أن تكون مثل نظيرتها في الولايات المتحدة، وأن أي شخص على كوكب الأرض له الحق في الحصول على الصحة السليمة، وأن الفرصة واتته الآن لاستخدام ثروته الطائلة لتصحيح هذا الظلم.

من هنا تنبع روح الرأسمالية الخيرية في إيمانها بقدرتها على معالجة مشكلات المجتمع الكبيرة والمزمنة، وأن عليها القيام بذلك. فهناك مشكلة تحتاج لمعالجة، ولديهم المصادر المالية، والخبرات العملية لحل هذه المشكلة. لكن، ربما كان السؤال الأقرب إلى الذهن هو: هل ما يقومون به هو لأجل الإنسانية، وهل من المهم ذلك؟.

أظهرت دراسة قام بها عدد من الباحثين في عام 1990م على عيِّنة من 99 متبرعاً من نيويورك، أن المتبرعين ينظرون إلى التبرع كالتزام مدفوع بعوامل التدين. ولكن حتى ولو لم يكن مدفوعاً بالغايات الدينية، فالأهم هو قدرته على معالجة مشكلات المجتمع. فالعمل الخيري يجب ألاَّ يقتصر في مضمونه على رجاء ثواب الآخرة فقط، ونسيان غاياته الأخرى وهي منفعة الإنسانية. وفي ذلك تقول الكاتبة السعودية إيمان القويفلي في جريدة الوطن الصادرة بتاريخ 30 أبريل 2009م إن «ثقافتنا السائدة نجحت فعلاً وبشكل ما في فصل مفهوم «الخير» عن غايته الدنيوية، وفي تكريس مفهوم لفعل الخير مفرغ من الخيرية». إذن، خير الآخرة وخير الدنيا مفهومان لا ينفصلان في ثقافتنا الإسلامية إذا عرفنا كيف نقوم بالأعمال الخيرية بالطريقة الصحيحة. وفي أمثلة الأعمال الخيرية الناقصة تقول القويفلي «هذا البذل المالي الكبير دون تدقيق في طريقة توظيفه وإنفاقه، لأن الثواب الإلهي متحقق بمجرد البذل، وكذا البذل المالي دون التطوع بالجهد الشخصي، حتى عندما تكون حاجة الواقع إلى العمل لا إلى المال، وبناء المزيد من المساجد في مكان يحتاج إلى مدرسة أو مشفى ... المهم أن الأجر متحقق بمجرد الفعل وبمعزل عن فائدته العملية في الحياة وللآخرين». من هذا نستشف أن العمل الخيري يظل ناقصاً ما لم تكن غايته الدنيوية أيضاً متحققة، فلا فائدة من مال لا يرفع الفقر عن فقير، ولا جهد شخصي يعلم الآخرين مساعدة أنفسهم. لذا وجب أن تتوافر آلية محددة تؤكد أن أموال المتبرعين وجهودهم تذهب إلى غايتها في تحقيق أكبر قدر من التغيير نحو الأفضل.

الشفافية للتأكد من الجدوى

في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً، صارت المعلومات متاحة على موقع «Charity «Navigator، الذي يوفر معلومات عن حجم الإنفاق على الجوانب الإدارية لهذه المنظمات. لكن لا توجد معلومات مؤكدة عن حجم الإنفاق أو الفائدة التي يجنيها المستهدفون بهذه المنظمات. ولمعالجة الأمر، بادر كل من هولدن كارنوفسكي وإيلي هاسنفيلد الموظفين في إحدى الشركات الأمريكية، بإنشاء منظمة في عام 2006م أطلقا عليها اسم «Givewell»، هدفها مساعدة المتبرعين على الحصول على معلومات عن أكثر المنظمات فاعلية في مساعدة الناس. والتأكد من أن تبرعاتهم تذهب إلى مبتغاها، وذلك من خلال التقارير التي تعدها الهيئة التابعة لها والمسماة «The Clear Fund».

وفي التقرير الأول للمنظمة والمنشور على موقعها، توجت منظمة «Population Services International» الأولى من حيث الكفاءة في مساعدة الناس في إفريقيا، تلتها منظمة «Partners in Health».

إن التقييم الذي تمنحه هذه المنظمة التي أنشئت بغرض تشجيع الشفافية في العمل الخيري، يشجِّع بدوره الناس على التبرع للمنظمات الأكثر كفاءة في خدمة الفقراء. وفي

النهايــة تتحقق الغاية المنشودة بطريقة أفضل. وما ينطبق على المنظمات التقليدية هنا، ينطبق أيضاً على المؤسسات التجارية التي تتضمن خططها أعمالاً خيرية.

هــذا النمــوذج الــذي تقدِّمــه منظمــة «Givewell» يساعد المانحين في معرفة أفضل المنظمات التي يمكن أن يعهدوا إليها بأموالهم. كما يساعــد المنظمات الخيرية على إبداء قدر أكبر من الشفافية تجاه هؤلاء المانحين وتجاه الغايات الجيدة التي قامت من أجلهــا هذه المنظمات في الأساس. كما أن استخدام تكنولوجيا المعلومات لتوفير هذه الخدمة، يعـد مثالاً بسيطاً لما يمكن أن يكون عليه عمل الخير. فليس الأثرياء فقط هم المنوط بهم القيام بكل الأعمال، حيث إن هنــاك الكثير من الوسائل البسيطة التــي يمكن أن يوظفها كل فرد منا بحسب قدراته ومهاراته لخدمة البشرية.

إن عصرنــا الحالي بمــا يتميز به من سهولــة نقل وتخزين المعلومات عبر شبكة الإنترنت، يؤكد على الحاجة إلى شباب عربي قــادر على تطويع هذه التكنولوجيــا لخدمة الأهداف الإنسانية الراقيــة، خصوصاً في ظل وجــود الدافع الديني لــدى مجتمعاتنا العربية المسلمة. وهــذا الشباب يمكنه أن يحدث الكثير مــن التغيير على وجه العمل التطوعي العربي نحو الأفضل.



Flickr

الهلال الأحمر.. يبقى ضرورياً، ولكن هل يكفي

دور المنظمات الخيرية العربية

فــي دراســة غيــر منشورة، قــدِّر الإنفــاق الخيــري في دول الخليج، كما أوردت الأستاذة إيمان القويفلي، بمبلغ تراوح ما بين 15 و20 مليار دولار أمريكي سنوياً. هذا الكم الهائل من الأموال إذا تمــت إدارته بالطريقة الصحيحة فهو قادر على جعل العالم مكاناً أفضل للبشر. لكن يبدو أن ما ينقصنا هو المعرفة بثقافة العمل الخيــري والتطوعي، وضعف الانفتاح علــى التجــارب الجديدة. على الرغم مــن أن ديننا الحنيف قــد حثنا على ذلك في أكثر مــن موضوع في القرآن الكريم: «فاستبقــوا الخيــرات ...» المائــدة: الآيــة 47، ومــن السنة المطهرة: «خيــر النــاس أنفعهم للنــاس». فالمطلوب منا أن نضــع جنبــاً إلى جنــب الرغبة فــي الثواب عنــد الله تعالى، إلى الرغبــة في مساعدة الإنسانية في الدنيا التي استخلفنا فيهــا. والإيمان بــأن الغرض من العمــل التطوعي حثنا عليه الإســلام أصلاً لمساعــدة الناس في الدنيا مــع رجاء ثواب الآخرة. إن العبرة ليست في منح الأموال دون معرفة طريقة صرفها فــي حل مشكلات المجتمع، ولكــن في معرفة كيفية حل المشكلات القائمة من خلال المشاركة الفعَّالة بالمعرفة والــرأي والعمل. من هنا تنبع أهمية وجود «رأسمالية خيرية إسلامية» تتعامل مع مشكلات المجتمع بواقعية أكبر وعلمية تنبع من الممارسات الاقتصادية الإسلامية. تلك الرأسمالية التــي تسهم في التطــور التنموي والمعرفــي للجماهير، وفي خدمــة أكبر عدد ممكن مــن الناس المحرومــين وتحويلهم إلى منتجين بدلاً من أن يكونوا متلقين.

نحو رأسمالية خيرية إسلامية

العالــم الإسلامي ليس بمنأى عن بقيــة العالم. فما يحدث فــي الغرب نتأثر به بطريقة أو بأخرى. خصوصاً مع سهولة انتقــال الأفــكار في عصــر المعلومات، وهذا فــي حد ذاته يمكــن أن يطلق عليه «العولمة الفكرية». وبالنظر إلى واقعنا الخيــري الإسلامــي المتأرجح ما بيــن المسؤوليات الهائلة التــي يضطلع بها، وثقافة طوعية ضعيفــة نوعاً ما، فإن من أفضل السبل الدخول في شراكات مفيدة مع رؤوس الأموال وتدويرها في مشاريع خيرية تعود بالنفع على كل الأطراف. مستخدمين في ذلــك أفضل ما وفرته التكنولوجيا الحديثة من وسائل لإدارة العمل التطوعي بفعالية أكبر.

كذلك تـزداد الحاجة إلى كـوادر إدارية فعَّالـة لنقل العمل التطوعـي إلى مستويـات أكثر انضباطاً، وذلـك بإخضاعه لقوانيـن الأعمـال التجارية بغض النظر عـن مفهوم الربح والخسـارة. هكذا يستطيـع العمل التطوعي الإسلامـي الخـروج مـن مأزقـه الحالـي ليصبـح أكثـر فاعليـة وأجـدى فـي خدمة البشريـة. وهـذا لا يتعارض إطلاقـاً مـع نظرية العمل التطوعي، بـل يقوم بتعزيزها وضبطها، والاستفادة من أموال المتبرعين حتـى أقصـى درجـة ممكنـة. ومـع ذلـك، فلا بد من المحافظة على الأهداف السامية للعمل الخيري والتطوعـي بعدم الانزلاق بـه إلى حب الظهـور والشهرة أو استغـلال الفقراء. بل يجب تعزيـز دوره عبر تحبيب الناس بـه، وخصوصاً الشباب، من خلال برامج مدروسة في إطار المنفعـة الإنسانية. فمن الأفضـل تمليك الفقير ما يدفع به الفقر عن نفسه ويكون منتجاً، بدلاً من مساعدته على الفقر عبـر تقديم الهبـات في كل مرة. ومن التجـارب الإسلامية الرائدة في هذا المجال، نذكر تجربة الدكتور يونس خاتون فـي بنغلاديـش، التـي نـرى أنه مـن المفيد الاطـلاع على معالمها.

محمد يونس خاتون: «المجتمع لا يترك للفقير فسحة للنمو رغم امتلاكه للطاقة وروح الإبداع»

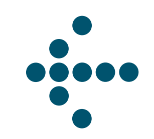
بنك القرية

«إن المجتمع شحيح جداً ولا يترك للفقير فسحة حتى ينمو نمواً طبيعياً... فهو يملك كل الطاقة وروح الإبداع اللازمة... ولكننا لم نسمح له بتفجيرها واستخدامها». قالها الدكتور محمـد يونس خاتون الحائز لجائـزة نوبل للسلام مناصفة مـن «بنك غراميـن» (بنك القرية) الذي أنشـأه لمساعدة فقـراء بنغلاديش. ولد الدكتور يونس فـي عام 1940م في مدينة شيتاجونـج Chittagong المركز التجاري لمنطقة البنغـال الشرقـي فـي ذلـك الوقت. وبعـد إكمالـه دراسة الدكتوراة من جامعـة فاندربيلـت Vanderbilt الأمريكية وعودتـه إلى بـلاده في عـام 1972م، أصبح رئيسـاً لقسم الاقتصـاد في جامعـة شيتاجونـج إبان سنـوات المجاعة التـي عصفت ببنغلاديـش عقب انفصالها عـن باكستان. بعـد عامين مـن التفكيـر المتواصـل عن كيفيـة مساعدة فقـراء بلاده، قرر يونس ترك عملـه بالجامعة، ثم اقترض مبلغـاً صغيراً من البنـك ليقرضه بدوره لبعـض الفقراء. وبعـد سنوات نجـح الأمر نجاحاً باهراً بخـروج 500 أسرة مـن دائرة الفقـر. ثم تبنى البنـك المركزي فكـرة إنشاء «بنـك القريـة» للقروض الصغيرة. وتتلخـص فكرة البنك فـي تقديم قروض صغيرة للفقراء لا تتجـاوز مائتي دولار أمريكـي يبدأ بها الفقير عملاً لكسب قوته وقوت أهله. هذه القروض ميسَّرة الدفع وبلا فوائد أو ضمانات. والآن هناك آلاف الأسر البنغلاديشية التي خرجت من تحت خط الفقر بسبب هـذه الفكرة البسيطة على يد رجل لم يكن يملك إلا الفكرة والإيمان بها.

إنـك حيـن تقـرأ قصـة الدكتور يونـس وهو يسـرد ملامح مسيرته مع نظامه وكيفية ابتداعه في إيجاد الحلول الواقعية لمعانـاة شعبه، فإنك تجد في كل هذا حكمة ودرساً تستفيد منه وتستخلصه، بعيداً عن استنساخ الأفكار. وهذا ما أكده الدكتـور يونس نفسه حين استدعي لزيـارة عدد من الدول العربيـة لغرض نقـل تجربته، فكان من بيـن أهم نصائحه «ابـدأ بسيطاً، صغيراً، حتى تتعلـم وأنت تكبر، وحتى يسهل عليـك وضـع نظـام وشـروط عملـك الخاصـة دون التقيد بقوانين البنوك المعقدة في بلدك».

مثل هذا المشروع يمكن استلهام فكرته وتطبيقها في عالمنا العربي كجـزء من النشاط الخيري بعـد إدخال التعديلات التـي تناسب أوضاع مجتمعاتنا. وعوامل نجاحه كثيرة منها توافـر صيـغ التمويل الإسلامـي. هذه الصيـغ التي كشفت الأزمة الماليـة الراهنة قدرتها على تقديم حلول لمشكلات التمويل والائتمان العالمية.

إن كان بيـل غيتس هو أول مـن أطلق الدعوة إلى رأسمالية خلاَّقـة، فيمكن القول إنه هو كذلـك الذي أرسى قواعدها مـن خلال نشر وسائل المعرفـة التكنولوجية الحديثة عبر العالـم، على الرغم من أثرها في زيادة الهوة بين الفقراء والأغنيـاء. ولردم تلـك الهوة، جـاءت الدعـوة إلى حقبة رأسمالية جديدة تخدم الطرفين من خلال خدمة المبدأين المتصارعيـن فـي النفـس الإنسانيـة وهمـا المصلحـة الشخصية والاهتمام بالآخرين. ومن هنا فإن الرأسمالية الخلاَّقة نظام يخـدم المصلحة الشخصيـة مع الاهتمام بالآخريـن فـي الوقـت نفسه عبـر دوافع الربـح والإشادة بالجهـود. هذا النظام لا يتحقـق بالطريقة التقليدية التي تفصـل الدوافـع البشرية عن بعضها البعـض، وبالتالي لا يتحقق الغرض من كليهما في الوصول إلى خدمة البشرية. والصيغـة التـي يمكن أن نطرحهـا نحن فـي المقابل هي صيغة الرأسماليـة الخيرية الإسلامية التي تجمع بين حق الغني وحق الفقير في الاستفادة من الثروة.



برامج أرامكو السعودية..

الريادة في المسؤولية الاجتماعية

من التجارب التي تستحق الإشارة في المسؤولية الاجتماعية تجربة أرامكو السعودية. فالشركة التي أنشئت أساساً لإنتاج النفط وتسويقه، كانت وما زالت صاحبة بصمات واضحة على قطاعات عديدة بدءاً بالإسهام في تأسيس البنية التحتية في المنطقة الشرقية من المملكة، وصولاً إلى مجالات لا تمت إلى صناعة النفط بصلة مثل قطاعات الصحة والتعليم وحتى السلامة المرورية.

وبسبب اقترانها بحاجات المجتمع في مسيرة نموه وتطوره، فقد تنوَّعت البرامج الاجتماعية في أرامكو السعودية وفق متطلبات كل مرحلة زمنية. وهي بشكل عام ثلاث مراحل: مرحلة البدايات، حيث كان التركيز على الإسهام في تأسيس البنية التحتية في المنطقة الشرقية، ثم مرحلة التنمية الصناعية منذ سبعينيات القرن الماضي، تليها مرحلة التحول إلى الاقتصاد المعرفي التي بدأت مع انطلاقة القرن الجديد.

مرحلة البنية التحتية

ففي مرحلة البدايات، لم تكتف الشركة بتأسيس البنية التحتية لصناعة النفط فحسب، بل امتدت لتشمل العديد من القطاعات الحيوية. ومنها على سبيل المثال إنشاء مشاريع عملاقة بمعايير تلك المرحلة، مثل مشروع سكة الحديد التي ربطت الدمام بالرياض، ومشروع ميناء الملك عبدالعزيز بالدمام، وتعبيد الكثير من الطرق التي تربط مناطق المملكة. كما قامت الشركة بإنشاء برنامج المساعدة الزراعية للإسهام في الوصول إلى مصادر المياه وتنمية الثروة الزراعية والحيوانية وفقاً لمعايير وأساليب الإنتاج الحديثة. وقد أتى ذلك البرنامج بنتائج مدهشة حينئذ.

التنمية الصناعية

وحين ارتفع الطلب العالمي على البترول في بداية السبعينيات الميلادية وبدأت الطفرة الاقتصادية آنذاك، كانت المملكة قد بدأت في وضع خطط التنمية الخمسية وتنفيذها، وتشكلت المؤسسات الحكومية المختصة، التي أصبحت مسؤولة عن شتى جوانب التنمية. فأسهمت الشركة في تنمية القطاع الصناعي الذي يُعد مصدر قوة لدى الشركة ولم تكن المملكة في تلك الفترة تمتلك القدرات الفنية اللازمة، فتولت أرامكو إنشاء شبكة الغاز الرئيسة، التي كانت أكبر مشروع من نوعه في العالم آنذاك. وقد أصبحت شبكة الغاز هذه العمود الفقري للصناعة الأساسية في المملكة، ممهدة الطريق لسلسلة من المشروعات الصناعية الكبرى من أبرزها الصناعة البتروكيميائية السعودية في مدينتي الجبيل وينبع.

كما قامت الشركة بتأسيس شركة الكهرباء في المنطقة الشرقية (سكيكو)، التي دمجت فيها أكثر من 13 شركة صغيرة في كيانٍ واحد. وبالفعل شكَّلت سكيكو الشرقية آنذاك نموذجاً حديثاً ورائداً لشركات الكهرباء السعودية الكبيرة التي توالت بعد ذلك في مناطق المملكة، ثم اندمجت فيما بعد في الشركة السعودية للكهرباء. وشملت إسهامات الشركة في تلك المرحلة أيضاً برنامجاً رائداً لتنمية الصناعات الصغيرة والمتوسطة لدى القطاع الخاص.

تنمية العنصر البشري

وبالرغم من تغير طبيعة برامج المسؤولية الاجتماعية في الشركة لتتواكب مع حاجات المملكة التنموية عبر السنوات، فإن محوراً واحداً لم يتغير، وظلت أرامكو السعودية تطبقه وتمنحه الأولوية منذ بداياتها حتى الآن وهو التركيز على تنمية العنصر البشري الوطني كونه مفتاح كل العمليات التنموية في المملكة.

ففي هذا الجانب الحيوي قامت الشركة منذ أوائل الخمسينيات بتنفيذ عدد من المشاريع التنموية التعليمية، شملت بناء نحو مائة وأربعين مدرسة في مدن المنطقة الشرقية، ثم تأسيس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، التي أصبحت مصدراً للقيادات الصناعية والإدارية في المملكة. كما دعمت الشركة ولا تزال الجامعات المحلية بتبني عدد من الكراسي البحثية في إطار شراكاتها مع تلك الجامعات لرفع مستوى التعليم الأكاديمي وتطوير البرامج التعليمية والتدريبية المتخصصة، ودعم البحث العلمي لما يخدم قطاعي النفط والصناعة في المملكة.

الريادة في الشراكة حتى في قطاع الصحة

وفي الجانب الصحي، أسست الشركة في وقت مبكِّر نموذجاً يحتذى للشراكة، حين تعاونت قبل نحو 60 سنة مع جامعة هارفارد بهدف التوصل إلى اكتشاف أمصال واقية من مرض التراخوما الذي كان يصيب الآلاف من المواطنين بالعمى آنذاك. فأنفقت الشركة الملايين على الأبحاث والتدريب والتوعية لمواجهة هذا المرض حتى قضت عليه. كما أسهمت في مطلع الستينيات في تأسيس مستشفى الدمام المركزي. وشاركت قبل سنوات قليلة في مكافحة حمى الوادي المتصدع بجازان.



مقطورة السياقة الآمنة إحدى مبادرات الشركة لرفع مستوى الوعي المروري



صورة تخيلية لمركز «إثراء»

في زمن اقتصاد المعرفة

وتسعى أرامكو السعودية حالياً إلى تحقيق التنوع الاقتصادي والتحول إلى اقتصاد ومجتمع المعرفة عبر التركيز على أربعة محاور:

- أولاً: محور تنمية الاقتصاد
- ثانياً: محور تنمية المجتمع
- ثالثاً: محور تنمية التعليم والأبحاث
- رابعاً: محور تنمية البيئة

ففي محور الاقتصاد، نشطت الشركة خلال السنوات الماضية في جذب الاستثمار الأجنبي بطريقة تراعي المسؤولية الاجتماعية والوطنية عبر مجموعة من المشاريع الصناعية الاستراتيجية. وتتوزع هذه المشاريع على مناطق مختلفة في المملكة مثل مشروع بترورابغ. كما تقوم الشركة بدعم جهود المملكة وخططها الوطنية للمجمعات الصناعية العملاقة بطريقة «الكلسترز».

جسر ثقافي

أما في محور التعليم والأبحاث فقد أنشأت الشركة، بتوجيه من خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، حفظه الله، جامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية في ثُوَل، على ساحل البحر الأحمر، التي تُعد من أكبر المشاريع الجامعية طموحاً في العالم، وستشكِّل رافداً لإنتاج المعرفة المرتبطة بالتنمية الاقتصادية وجسراً يربط الشعوب والثقافات.

«إثراء»

وفي محور تنمية المجتمع، يجري العمل حثيثاً لتخطيط وتنفيذ صرح عالمي مبتكر على الساحل الشرقي من المملكة سيكون الأبرز من نوعه على مستوى الشرق الأوسط، حين يتم افتتاحه بعد سنوات ثلاث -إن شاء الله- وسيركِّز على إبراز العمق الحضاري الذي تتمتع به المملكة والجزيرة العربية، والارتقاء بجوانب الفكر والثقافة. هذا الصرح هو مركز الملك عبدالعزيز للإثراء المعرفي في الظهران (إثراء).

السلامة المرورية

ومما يشمله محور تنمية المجتمع هناك برنامج مهم أطلقته الشركة قبل أشهر استناداً إلى نجاحها في حملات التوعية بالسلامة المرورية وهو بمثابة البصمة التي تود أن تتركها الشركة في المجتمع، وهذا البرنامج لا يزال في مرحلته التأسيسية ويهدف إلى الحد من الحوادث المرورية التي تشكِّل تحدياً وطنياً ملحاً يحصد الأرواح ويسبب الإعاقات كل يوم، بل كل ساعة. إذ أن معدلات الحوادث المرورية في المملكة تُعد من بين الأعلى في العالم. وقد سخرت الشركة خبرتها في القيادة الوقائية ومواردها في سبيل نجاح هذا البرنامج الذي بدأ عبر فترة تجريبية في المنطقة الشرقية بالشراكة مع جميع الجهات الحكومية المعنية ومؤسسات المجتمع المدني الفاعلة تحت قيادة إمارة المنطقة الشرقية، ويؤمل أن تكلل الجهود بنجاح ملموس في حفظ الأرواح والممتلكات، وأن يمتد أثر البرنامج لمناطق المملكة المختلفة.

وفي مجال برامج التوعية وحملاتها والنشاط الخيري، تعكف الشركة على إعادة ترتيب وهيكلة برامجها التي تزيد على 60 برنامجاً سنوياً، لتكون متركزة في خمسة برامج رئيسة ذات طابع مؤسسي تشمل كافة مناطق المملكة هي السلامة، والصحة، والتعليم، والعمل الخيري والتطوعي. وسيحقق ذلك قدراً أكبر من الفاعلية والتأثير في التنمية الاجتماعية.

قول في مقال

للخروج من الملل العام

كثر في الآونة الأخيرة الحديث عن رتابة الحياة اليومية، وعن حالة الملل العام الذي يعاني منه الشباب العربي. وغالباً ما يتوقف هذا الحديث عند وصف الحالة ولا يتوسع إلا في ضرب الأمثلة حولها، أو تسليط الضوء على بعض وجوهها دون الأخرى. إبراهيم الشاخوري* يتجاوز توصيف الحالة، باحثاً عن السبب ومتطلعاً إلى مخرج.

لوهلة، تظن العالم العربي يعيش حالة من الملل العام، فجموع الشباب العربي ما بين الخليج والمحيط تصنف لحظات كبيرة من حياتها تحت عنوان «الملل»، بل وتُعده تذكرة مجانية للقيام بقائمة طويلة من «الحركات» الشبابية الغريبة.

ولوهلة، يعود صدى مصطفى الرفاعي متحسراً ليتردد «يقولون

* كاتب من البحرين

إن في شباب العرب شيخوخة الهمم والعزائم، فالشبان يمتدون في حياة الأمم وهم ينكمشون، وإن اللهو قد خف بهم حتى ثقلت عليهم حياة الجد، فأهملوا الممكنات فرجعت كالمستحيلات».

ثم لوهلة أخيرة، تستفيق لتسأل: هل صحيح أننا بعدما ملأنا حياتنا بالفراغ صرنا نعيش «وهم الامتلاء» بدل المشي الحثيث نحو حلم أكبر من «خديعة اللحظة» و«فخ الرتابة»؟

وما الذي يحركنا فعلاً في حياتنا؟ هل خياراتنا وإنجازاتنا قائمة على اتصال عميق مع الذات ومعرفة وثيقة بالقدرات وإيمان عميق بحلم أكبر؟ أم إننا لسنا أكثر من «تفاصيل» مسكونة بالآخرين؟ وهل يمكن الهروب من ذاكرة تسكننا نحو حلم نسكن فيه؟

«الكذب المنطقي» على الذات

لعل أولى الخطوات في الإجابة عن هذا كله هو تسجيلنا لاعتراف أنه من السهل الحياة مع الأسئلة بدل العيش مع الإجابات، وأننا أحياناً نحيط أنفسنا بسور من «الكذب المنطقي» الذي يسكّن ويخفف ألم الانفصال عن الحلم، ففي كل مرة نستمر في عمل الكثير من أعمالنا اليومية التي لا تتفق مع القناعات العميقة داخلنا، نلجأ إلى «كذبة منطقية» لنتغاضى عن ألم الفشل. فعدم قراءة كتاب كنا نتوق لقراءته كان بسبب مقاطعة وتشتيت الآخرين لنا، والوصول إلى موعد متأخرين هو بسبب الازدحام غير المتوقع أو بسبب النسيان. وعدم تحقيقنا للأحلام التي كنا نتمناها صغاراً من أن نصبح مهندسين أو أطباء كان بسبب التعليم الذي أحبطنا، و«الواسطة» التي أحرقت فرصنا وعدم دعم وتقدير الأهل! ولكل فشل أو انفصال عما نؤمن به هناك قائمة تطول من المبررات. وحين لا تنجح هذه المسكنات، هناك «الملل» الذي نتنفسه في دخان «الشيشة» ونسمعه في أحاديث «القهاوي» ونقرأه في غرف الدردشة. كلها مسكنات أخرى تساعد على تخدير حواسنا وتعطيل عقارب الساعة ولو مؤقتاً.

وحتى نستفيق من حالة «الملل القومي» الذي نعيشه، يجب أن ندرك أن أي شيء عدا الارتباط الواعي بما هو مهم، ليس أكثر من ارتباط لا واعي بأمور تافهة، أو بتعبير أفلاطون فإن الحياة التي لا نتفحصها حياة لا تستحق العيش. هناك دائماً تلك الرغبة الدفينة عميقاً في داخلنا لتحقيق طموح كبير، وهي رغبة لا تموت، لكن إذا ما أردنا فعلاً أن نحوِّلها إلى واقع، فلا بد من العمل على تغيير بعض تفاصيل حياتنا. فأحد تعريفات الغباء «هو القيام بنفس الأشياء بنفس الطريقة وتوقع نتائج مختلفة». لو توقفنا لثوانٍ وتساءلنا، ما هو الشيء -شيء واحد فقط- الذي لو قمنا به بصدق وبشكل مستمر فإنه سيغيِّر كثيراً من حياتنا الشخصية والعائلية؟ وما هو ذلك النشاط الذي لو قمنا به بكفاءة وبشكل متواصل فإنه سيغيِّر من حياتنا المهنية أو الدراسية بشكل هائل؟ وحين تجيب عن هذه التساؤلات يأتي السؤال الأخطر، إذا عرفت هذين الشيئين وكنت موقناً بهما، فلماذا لا تقوم بفعلهما الآن؟ وهنا نعود إلى خزان «الكذب المنطقي» الذي نشرب منه كلما أظمأنا عطش الإنجاز. إحدى أكبر «الكذبات المنطقية» في حياتنا هي عدم وجود وقت كافٍ! فالكل يتعلل بأننا لو امتلكنا وقتاً كافياً لكان بالإمكان إنجاز الكثير في حياتنا، ولكن المسألة ليست في إنجاز كم أكبر من المهام في وقت أقل، المسألة الأهم هي في القيام بالأمور الصحيحة وليس الثانوية، لهذا لا بد من العودة إلى السؤالين السابقين والإجابة عنهما بصدق.

التخلي عن أرشيف الكذبات المنطقية ومعرفة ما نريد هو أول خطوة نحو القضاء على حالة الملل العام وتبديد وهم الامتلاء الذي نعيشه. ولكن، ولأننا نعيش الواقع، فإن أموراً كثيرة ستستمر في تشويشنا وحرفنا عما نريد. ما يهم في هذا كله هو التأسيس لأهدافنا، بمعنى أن إيماننا العميق الذي يتكئ على الدين والثقافة والعائلة يجب أن يصوب مسارنا دائماً كلما فقدنا الإحساس بالاتجاه. ولأن الإحساس بالاتجاه مهم، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل نملك بالفعل اتجاهاً واضحاً في الحياة أم أننا لا نستطيع رؤية أبعد من عطلة نهاية الأسبوع؟ وبأبعد نظر، فإننا لا نرى سوى الراتب في نهاية الشهر؟ كيف يمكن لنا أن نخلع ثوب الملل وأن نعيش الإنجاز إذا لم نعرف ما هو هذا الإنجاز؟ بل أحياناً كثيرة ما نبحث عن ذواتنا وطموحنا في مرايا الآخرين. فكل ما نفعله أو نختاره نقوم به هو بناءً على توقعات الآخرين. وحين نقع في هذا الشراك، فإن الملل يتسلل سريعاً إلينا، وسرعان ما سنتخلى عن أحلامنا لأنها ليست لنا في الأساس. وقد قيل إن الإنسان فقد روحه يوم اكتشف المرآة. لهذا لا بد للحلم أن يمتد عميقاً في جذور الإيمان والقيم حتى يكون ثابتاً كلما اهتزت ذواتنا في خضم الحياة.

أحلام الطفولة.. أغلى مما تبدو عليه

إحدى المقولات التي استمروا في إخبارنا بها، هي أن الأحلام التي نحملها في بداية حياتنا عن رغبتنا في أن نكون أطباء أو مخترعين هي «أحلام طفولة». وإذا ما عاشت هذه الأحلام قليلاً فإنها «أحلام يقظة» سرعان ما تموت بذهاب سن المراهقة. وفي رأيي، فإن تلك أكبر «الكذبات المنطقية». تلك الأحلام هي ما يجب أن نتمسك به طيلة حياتنا، قد نغير قليلاً في تفاصيلها بعد استيعابنا للحقائق حولنا لكننا يجب ألاَّ نتخلى عنها أبداً. إذ إن المبدع ليس أكثر من طفل كبير.

فلو تخيلنا طفلاً قادراً على وصف خياله بالشعر مثلاً، ألن يكون أكثر الشعراء إبداعاً في تصويراته وخيالاته؟ ولو تخيلنا طفلاً قادراً على رسم خياله في لوحة فنية، فإن إبداعه لن يكون محدوداً.

وحين نحاول أن نتذكر تلك الأحلام، أو أحلام اليقظة التي راودتنا ونحن في بداية الشباب، فإننا في الأغلب لن نتذكر تحديداً تاريخ وفاة تلك الأحلام. لكننا سنعود مرة أخرى إلى قائمة المبررات لنختار منها واحداً نرفقه مع شهادة وفاة أحلامنا. تلك الأحلام التي نخرت فيها رتابة الحياة، وقتلها ضعف الهمة، ووأدها غياب الإيمان العميق بما نفعل، يمكن لها أن تولد من جديد بل وبملامح أجمل ونبض أقوى لو وقفنا لوهلة وتأملنا عميقاً في ذواتنا، وحاولنا كسر «العادة». لأن من يريد أن يمتلك الإرادة، فعليه كسر «العادة». ولو فعلنا ذلك فإننا سنجد ذلك الوميض الذي يجعل من بشريتنا كينونة مختلفة عن كل الأشياء في هذا الكون، ولكسرنا حالة الملل التي نخرت كل مفاصل حياتنا، ولأنجزنا ما نفتخر به في حياتنا ولأضفنا شيئاً جميلاً على هذه الحياة.

ولنتذكر دائماً «إذا لم تزد شيئاً على الحياة، كنت زائداً عليها». ◼

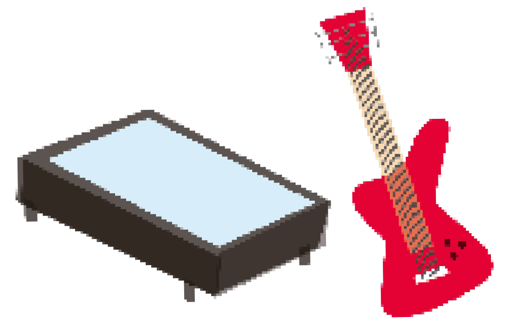
إيباي..

تجارة التجزئة الجديدة.. مختلفة بالكامل

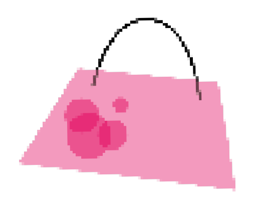


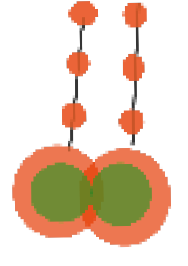
يمثِّل الموقع الإلكتروني «إيباي» حكاية مختلفة تماماً عن حكايات المواقع الإلكترونية الناجحة، وحتى عن باقي مواقع التجارة الإلكترونية. فما بدأ في العام 1995م كموقع منزلي أصبح اليوم أكبر سوق إلكترونية في العالم، ونموه الأسطوري حوَّله إلى نموذج يقلَّد، الأمر الذي ينبئ بالتحولات الجذرية التي بدأت تطرأ على تجارة التجزئة في العالم، والتي ستنحرف بها بعيداً جداً عن التجارة التقليدية كما عهدناها في الأسواق التقليدية.

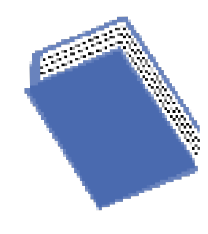
عبود عطية يعرض خصائص هذا السوق العالمي الجديد والميزات التي كانت وراء نجاحه، واحتمالات جذب تجارة التجزئة في العالم بأسره نحو منعطف يصبح فيه الدكان وموقعه والبائع والمتسوق بمهاراتهما التقليدية جزءاً من الماضي.











Quantity: 0 available

حتى سنوات قليلة مضت، كانت «المخازن الكبرى» قبلة أنظار المتسوقين في المدن، نظراً لتنوع السلع التي تعرضها، بما يرضي أكبر عدد ممكن من الأذواق وأصحاب القدرات الشرائية المختلفة. ولكن أكبر المخازن الكبرى في العالم يصبح اليوم أشبه بدكان القرية الصغير إذا ما قارناه بكمية السلع المتنوعة التي يعرضها موقع «إيباي» الإلكتروني.

وللتأكيد على أن هذه المقدمة لا تحوي أية مبالغة، نشير إلى أن هذا الموقع يعرض للبيع كل أنواع السلع من ضروريات وكماليات (أي كل ما يمكن للمال أن يشتريه) باستثناء ما هو ممنوع قانوناً مثل المخدرات والأسلحة (غير الأثرية) والعاج وما شابه ذلك.

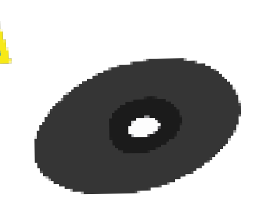
ولإعطاء صورة أوضح عن معروضات هذا المتجر العالمي، ولأن عمليات تسجيل سلع جديدة وبيع أخرى تتواصل بالآلاف خلال كل دقيقة على هذا الموقع، كان علينا في لحظة محددة إلقاء نظرة على عدد المعروضات في بعض الأقسام، علماً بأن هذه الأرقام لا تختلف إلا قليلاً عمَّا يمكن أن نحصيه في أي وقت.

ففي 21 أبريل الماضي تضمنت فئة الملابس والأحذية 4,048,322 قطعة، والكتب 3,351,149 كتاباً من ضمنها، على سبيل المثال، أكثر من 117 ألف كتاب لهواة جمع الكتب النادرة. وفي فئة المجوهرات والساعات كان هناك 2,076,098 قطعة، من ضمنها أكثر من 119 ألف حجر كريم. كما يجد هواة جمع التحف والأشياء القديمة أكثر من 216 ألف قطعة من ضمنها 16 ألف سجادة، وأكثر من 10 آلاف أطلس وخريطة قديمة. أما الباحث عن الإلكترونيات فسيجد أكثر من 730 ألف قطعة، وهو العدد نفسه تقريباً الذي يجده من يريد هاتفاً جوالاً. وإذا شئت أن تشتري زورقاً، فستجد على هذا الموقع 2,790 زورقاً، من ضمنها 167 زورقاً شراعياً و743 زورق صيد، و1,765 زورقاً سياحياً بمحرك.. وإذا شئت قطعة فنية من الخزف أو الزجاج فستجد نحو ربع مليون







قطعـة، وإذا شئت عقاراً فستجد نحو ثلاثة آلاف عقار.. وقس على ذلـك أي شيء يمكن للمال أن يشتريـه. وقبل الغوص في تفاصيـل التحـولات التـي يمكـن أن يحملها هـذا الموقع على تجارة التجزئة، يجدر بنا التوقف أمام تاريخه القصير جداً.

من موقع منزلي إلى شركة عالمية

تأسست «إيباي» في شهر سبتمبر من العام 1995م، على يد شاب فرنسي من أصل إيراني يدعى بيار أوميديار يعيش في مدينـة سان فرانسيسكو الأمريكيـة. فقد خطر لهذا الشاب أن يصمـم جزءاً مـن موقعه الشخصي علـى الإنترنت لبيع الأشياء بالمزاد العلني. وكان أول ما باعه جهاز ليزر محطم بمبلـغ 14.83 دولاراً، وبسبـب دهشته من بيـع شيء لا يعمل بمثل هذا المبلغ، اتصل بيار هـذا هاتفياً بالمشتري ليسأله إن كان قد انتبه إلى أن الجهاز معطل، فكان جواب المشتري: «أعرف ذلك، ولكنني أجمع أجهزة الليزر المعطلة».

أدرك بيـار من هذا الجواب فـوراً أن أي شيء في هذه الدنيا قد يكـون مطلوباً من قبل البعض إذا عرفـوا بوجوده ومكانه وثمنـه. وخـلال أشهر قليلـة، في مطلـع العـام 1996م، تم تعييـن أول موظف فـي الشركة الوليـدة، وأيضـاً تعيين أول رئيسـ لها. وفي العام التالي 1997م، حظيت الشركة بتمويل استثمـاري من شركة «بنشمـارك» قيمته 5 ملايين دولار. وفي سبتمبر من السنة نفسها غيَّرت الشركة اسمها من «مزاد الشبكـة» إلى «إيباي». وبعد ذلـك بسنة واحدة، في سبتمبـر 1998م، أصبحت «إيبـاي» شركة مساهمة، وبلمح البصر أصبح أوميديار ورئيس الشركة من أصحاب المليـارات. ومنذ ذلك الحين لـم تعرف هذه الشركة أية انتكاسة تذكر، بل استمرت في النمو.

فبالإضافـة إلـى مقرهـا الرئيس فـي كاليفورنيا، راحـت تفتـح مواقـع محلية فـي عدد مـن البلدان (لـلأداء باللغـات المحلية) حتى وصـل عدد هذه المواقع الفرعية إلى 38 في 38 بلداً من الهند والصين إلى المكسيك مروراً بهولندا وتركيا وبولندا وغيرها.. وعلى هـذه المواقع يمكـن لأي شخص أن يبيع أي شـيء في أي وقت.

1900 دولار كل ثانية

يبلغ عـدد مستخدمي موقع «إيباي» حاليـاً أكثر من 84 مليون شخص (من باعة ومشترين). وفي العام 2007م، بلغت قيمة السلـع التي بيعت من خلال هذا المتجر الإلكتروني حوالي 60 مليـار دولار. أي إن مستخدمي هذا الموقـع تبادلوا من السلع مـا توازي قيمتـه 1900 دولار كل ثانية، أي مـا تعجز عن عده والتعامل معه صناديق عشرات المخازن الكبرى دفعة واحدة.

أسرار النجاح.. ليست سرية جداً

مـن خلال تجـارب شراء أو بيـع بسيطة على هـذا الموقع، أو حتـى من خـلال تصفحه فقط، يمكن للمـرء أن يكتشف العوامل التي أدت إلى نجاحه بهذا الشكل الساحق.

أولاً: هنـاك تنوع المعروضات الذي أشرنا إليه في البداية، ولا داعي لضرب المزيد من الأمثلة.

ثانيـاً: التوجه إلى مختلف الزبائـن مهما كان الشيء الذي يسعـون وراءه، ومهما كانـت موازناتهم. فعلـى هذا الموقع يمكنـك أن تجد طبقاً من خزف أو قميصـاً مستعملاً بـ 90 سنتـاً أمريكيـاً، ويمكنـك أن تجد منجم ذهب فـي أريزونا للبيـع بـ 20 مليون دولار، وحلي أحد ملوك الفرس من القرن الأول قبل الميلاد بمبلغ مشابه تقريباً.

ثالثـاً: جاذبية نظام المزاد العلنـي، الذي يسمح للمشتري أن يحـدد الحد الأقصى الذي يمكن أن يدفعه لشيء يرغب بـه. فـإذا لم يزايد عليـه أحد، يمكنـه أن يحصل على هذا الشيء مهما كان السقف الذي وصل إليه المزاد متواضعاً.

رابعاً: بموازاة نظام المزاد العلني، هناك طريقتان أخريان للبيع على هذا الموقع، هما:

1 - «اشتريـه الآن»، حيث يكون الثمـن محدداً، ومهلة البيع محددة أيضاً. فإذا رغب الشاري بالشيء عليه أن يدفع هذا الثمن المحدد.

2 - «اشتريـه الآن، أو أفضـل عرضـ»، وفيه تكـون السلعة مرفقـة بسعر محدد قابل للمساومـة. فيمكن للمشتري أن يقـدِّم عرضـاً (أقل) وعلـى التاجـر أن يجيب على عرضه ضمن المهلة المحـددة رفضاً أو قبولاً. وعندما يكون هامشـ المساومة معقولاً (نحـو 30% من الثمن المعلن) فإن جواب البائع يكون غالباً قبولاً بالبيع.

خامسـاً: إن معظـم السلـع المعروضة مرفقـة بوصف جيد يعطـي فكـرة واضحة عـن نوعيتها ومستواهـا. وفي معظم «المتاجـر» يكون الوصف بالغ الدقة، خاصة إذا كان التاجر

مـن الباعـة الدائميـن. بحيـث لا يبقـى غير مجـال ضيق لاحتمال إصابة المشترين بخيبة أمل.

سادساً: إمكانية رد السلعة إلى البائع في حال عدم مطابقتها للمواصفـات الـواردة فـي الحديـث عنهـا، وبعض التجار يستـرد بضاعته من دون سـؤال عن السبب ويعيـد المال إلى المشتـري. وقلة قليلة جداً تعلن أن وصف سلعها بالغ الدقة، ولا ترحب باسترداد بضاعتها.

في العام 1998م، أصبحت «إيباي» شركة مساهمة، وبلمح البصر أصبح مؤسس ورئيس الشركة من أصحاب المليارات. ومنذ ذلك الحين لم تعرف هذه الشركة أية انتكاسة تذكر

أي لو كان ممكناً اختصار ميزات «إيباي» بجملة واحدة، لقلنـا إنها تبدو وكأنهـا استطلعت كل ميزات التسوق التقليدي، وجرَّدته من سلبياته وحافظت على إيجابياته. فمن دون تعب، ومن غرفـة نومك يمكنـك أن تجـول علـى بضائع العالم من سنغافـورة إلى أمريكا، ومن روسيا إلـى الأرجنتين وتنتقي منها ما ترغب بـه مقابل مبلغ تستطيع دفعه، ليصلك إلى باب بيتك في غضون أيام معدودة.

السوق المحمية جداً

غير أن ما قد يكون أهم من كل ما تقدَّم، هو تمكن «إيباي» من وضع نظـام حماية يحفظ حقوق المشتري والبائع، ويقيهما مطبـات التجارة الإلكترونية وخاصة الاحتيال، خاصة وأننا هنـا أمام مئـات آلاف المتاجـر وملاييـن المتسوقين التي يمكن لبعض المحتالين أن يندسوا بينهم. ومن أبرز وسائل الحماية نذكر ما يأتي:

1 - حمايـة الموقـع إلكترونيـاً ضـد القرصنـة: إذ إن لكل متعامـل «اسم مستخدم» يعتمده عند التسجيل، ويظهر في الصفحة الرئيسية عند دخوله على الموقع. إضافة إلـى كلمة السر الضرورية. وإذا حاول قراصنة اختراق الموقع، تتولى «إيباي» إخطارهم فوراً، إضافة إلى نشراتهـا الخاصة المحذرة من بعض أنماط القرصنـة الإلكترونيـة الجديـدة. وبشـكل عام، لم نسمع بحالات نجح فيها القراصنة باختراق هذا الموقع واعتراض عملياته.

2 - تقييـم التاجـر: بالقرب من اسـم كل بائـع يوجد رقم يشير إلـى نسبة مئوية، ورقم آخـر، مثل فلان الفلاني 99.4% إيجابـي (22,440). أي أن التاجر حظي حتى الآن بـ 22,440 تقييماً، يشـكِّل الإيجابي منها 99.4%. إذ بعدما يشتري المتسـوق سلعة ما وتصلـه، عليه أن يقيـم العملية من خـلال تقديره ما إذا كانـت إيجابية - عاديـة - سلبية. وعليه أن يشـرح بكلمات قليلة سبب



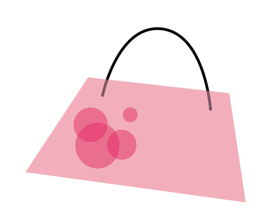
المؤسس بيار أوميديار



رواد تجارة التجزئة الجديدة



بيع وشراء كل ما هو قابل للبيع والشراء



موقفه. كما أن عليه أن يقيِّم (من 1 إلى 5 درجات) أمانة البائع في وصف القطعة وحسن التواصل معه، والسرعة التي شحن بها السلعة، وتكلفة الشحن.. وبشكل عام يمكن للمشتري أن يثق بكل التجار الذين يتجاوز تقييمهم الإيجابي نسبة 99%. أما ما دون ذلك فيعني أن بعض المشكلات قد تلوح في الأفق. كما يمكن للمشتري أن يستطلع أخبار هذا التاجر ووضعه وتاريخ بدء تعامله مع «إيباي» من خلال صفحة خاصة به. واستطراداً نشير إلى أن التجار الناشطين منذ أكثر من سنة أو سنتين هم أهل للثقة أكثر من الطارئين الساعين إلى بيع بعض الأشياء والخروج من السوق غير مكترثين لسمعتهم.

ولكن ماذا لو شاء محتال أن يعرض بضاعة وهمية لمن يرسلها، ليضرب ضربته ويهرب؟ والجواب هو أنه لن ينجح. لأن «إيباي» وضعت أفضل نظام ممكن لحماية أموال المشتري والبائع، عبر اعتماد طرف ثالث يتم الدفع بواسطته. وهنا نصل إلى حكاية «بايبال» (PayPal).

ضمان الأموال والعملية

يعلن بعض التجار على صفحاتهم أنهم يقبلون الحوالات البريدية والمصرفية وبطاقات الاعتماد مباشرة. ولكن «إيباي» تحذر من استخدام مكاتب تحويل الأموال التي لا يمكن التأكد من هوية المستلم عبرها. ولذا نجد أن أكثر من 99% من التجار يشيرون إلى قبولهم الدفع عبر «بايبال»، وبعضهم لا يقبل غير هذه الوسيلة. ولذا يُعد تسجيل المشتري في خدمة «بايبال» أمراً ضرورياً لحماية أمواله وحقوقه من التعرض للاحتيال.

و«بايبال» هي شركة خدمات مالية مقرها الرئيس في كاليفورنيا. وليست مصرفاً في أمريكا، ولكن عبر فروعها في أوروبا تدار كمصارف انطلاقاً من فرع اللوكسمبورغ الذي يحمل صفة المصرف. وعلى المتسوق أن يسجِّل اسمه وبطاقة الاعتماد المصرفية التي يملكها (فيزا، ماستركارد، أمريكان اكسبرس) في هذه المؤسسة. وعندما يشتري سلعة ما، يدخل على موقع «بايبال» ويعطي أمراً بالدفع. وخلال أقل من دقيقة، يمكنه أن يعود إلى بريده الإلكتروني ليجد رسالتين: واحدة من «بايبال» تؤكد أنه دفع، وأخرى من البائع يشكره لأنه دفع. ولكن «بايبال» تحتفظ في الواقع بالمبلغ لمدة 45 يوماً، إفساحاً في المجال لكي يستلم المشتري سلعته، فإذا سارت كل العملية على ما يرام وكان المشتري راضياً، تحرر «بايبال» المبلغ لصالح البائع.

أما إذا وجد المشتري فرقاً ملحوظاً بين ما كان موعوداً باستلامه وما استلمه فعلاً، أو إذا لم يستلم سلعته، فيمكنه أن يعلن وجود «خلاف». وإذا لم يُحل «الخلاف» خلال مهلة محددة ببضعة أيام، يمكنه أن يرفع الخلاف إلى «شكوى». وعندها يتدخل المراقبون في «بايبال» شخصياً، وليس من خلال البرامج، لحسم الخلاف، ورد المال إلى المشتري إن كان على حق في شكواه.

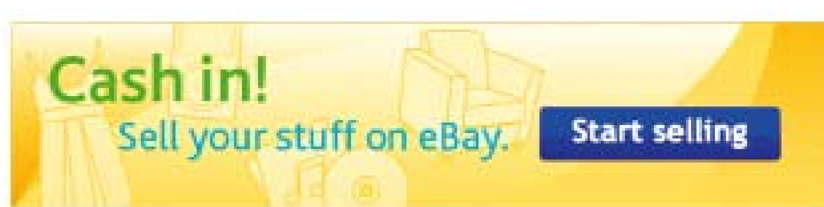
وقد دفع النمو الهائل الذي عرفته «إيباي» إلى شراء «بايبال» برمتها في أكتوبر من العام 2002م (كما أنها اشترت الموقع

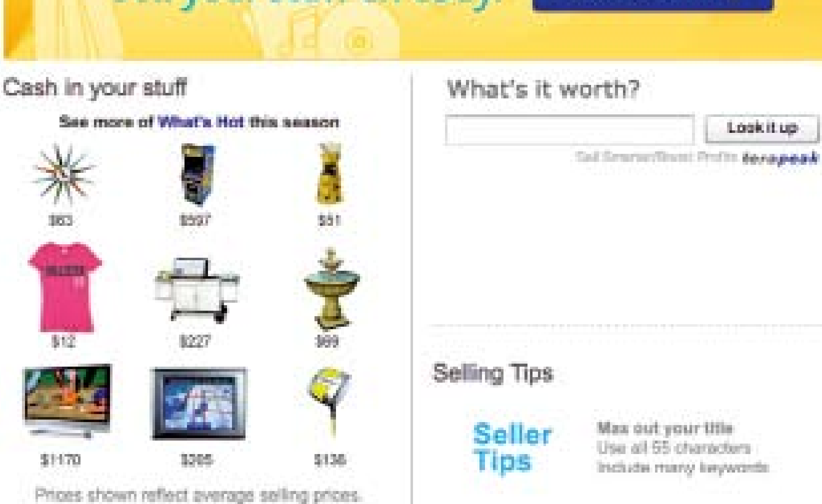
الإلكترونــي الأسرع نمواً في العالــم للمحادثة الشفهية عبر الإنترنــت «سكايبي»). وفي الربع الأول مــن العام 2008م، بلغ مجموع الأموال التي دفعت عبر «بايبال» نحو 14.4 مليار دولار، أي ما يشــكِّل نحو 9% من حجم التجارة الإلكترونية العالمية.

حماية نظام المزاد

لقــد تمكنت «إيباي» من وضع نظــام لحماية سلامة المزاد العلنــي يمكن وصفه بأنه أسلم مــن أنظمة المزاد التقليدية فــي القاعات. وأكثر من ذلك، فهو أكثــر جاذبية من غيره. فعندمــا يرى المتسوق شيئاً يرغب بشرائه، يسجِّل في خانة محددة المبلغ الأقصى الذي يرضى بدفعه ثمناً لهذا الشيء.







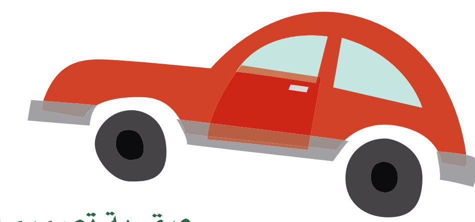
من صفحات الموقع: الشراء بكبسة زر وسط صخب الإعلانات

فعلى سبيل المثال، قــد يجد هاتفاً محمولاً يبدأ عليــه المــزاد مــن 10 دولارات، فيسجِّل هو 25 دولاراً، ولكــن هــذا لا يعنــي أن كل المبلــغ الذي سجلــه هو ما سيصبح عليه ثمــن الهاتف. إذ يرى أن الكمبيوتر رفع السعــر دولاراً واحداً فأصبح 11 دولاراً. فإذا وضع مزايد آخر 15 دولاراً كحــد أقصــى، يسجــل الكمبيوتــر علــى صاحبنــا 16 دولاراً ويبقى هو الفائز. أما إذا وضع أحد مبلغ 26 دولاراً كحد أقصى، فيتبلــغ صاحبنا بأن أحداً زايد عليــه، وأن عليه أن يرفع الحد الأقصى إذا شاء أن يربح الهاتف.

ويغفــل برنامج المزاد أســمــاء المزايديــن ويعطيهم رموزاً تتبدل من مزاد إلى آخر، بحيث يمنع المزايدين من التنسيق مــا بينهم وفــق قاعدة «اترك لي هذه القطعــة وسأترك لك تلك».. فلا يظهر اسم «الرابح مؤقتاً» إلا للمشتري وللبائع.

قد يقول قائل إن الباعة يمكنهم أن يسجلوا أسماء مشترين غيــر حقيقييــن ليزايــدوا على سلعهــم ويرفعــوا أسعارها. ولكــن علــى البائع أن يدفــع للشركة نسبة مئويــة من كل ما يجنيــه. فإذا فعل ذلــك مرة واشترى بنفســه بضاعته، فلا يمكنه أن يكررها، لأنه في النهاية يدفع مالاً ثمناً لبيع شيء غيــر مرغوب فيــه بمثل هذا الثمــن المرتفــع.. واستطراداً نشيــر إلى أن «إيباي» تجني أرباحها من الباعة عند تسجيل بضائعهــم على الموقع، وبعد بيعهــا، ولا تحمِّل المشتري أي عبء مالي إضافي.

إن نظام المزاد هذا هو ما يجعل «إيباي» في غاية الجاذبية، خاصة في مجال الكماليات. فالسلعة المطروحة في المزاد العلنــي ستبــاع حكمــاً عند نهايــة الوقت المحــدد بالساعة والدقيقة والثانية. وقد يجــد المرء أشياء كثيرة لم يتهافت عليهــا المزايــدون، فيخطفها خطفــاً بدراهــم قليلة. فمن الممكــن أن يصــل ثمن سجادة معينة إلــى ألف دولار مثلاً، ولكن المتجر نفسه قد يعرض سجادة مماثلة تماماً للأولى، فتــرى أنها بيعــت بخمسين دولاراً فقط لأنــه لم يكن هناك مزايدون كفاية لرفع سعرها. ولذا يلاحظ المدقق أن بعض المتسوقين يسجلون مزايداتهم بمبالغ زهيدة جداً على عدد كبيــر من السلــع، أقل من قيمتهــا الحقيقيــة، ويتوقعون أن يخسروا معظمها، ولكن إذا فازوا ببعضها يُعد الأمر مكسباً خالصاً.



عبقرية تصميم الموقع

قد يوحي ما تقدَّم أن عملية الشراء والبيع على هذا الموقع بالغة التعقيد، ولكن الحقيقة هي عكس ذلك تماماً. حتى أن البعض ممن لا عهدة لهم بأي شكل من أشكال التجارة الإلكترونية، سجَّلوا في «إيباي» و«بايبال» وأنجزوا عمليات تسوقهم خلال دقائق.. فتصميم الموقع مدهش في وضوحه وتطوره وسهولة استخدامه، بحيث لا يترك أي مجال أمام المتسوق للتكهن حول ما يجب عليه عمله لاحقاً.

وأكثر من ذلك، فالموقع «مؤنسن» إذا جاز وصفه بذلك. إذ يشعر المتسوق وكأنه في حوار أو حديث دائم مع «إيباي» كوسيط بينه وبين البائع. فالصفحات تخاطبه باسمه المستخدم. مثل «هاي يا فلان.. هل هذا أنت؟» التي تطالعه عندما يدخل الموقع، إلى «مبروك يا فلان، اقتربت نهاية المزاد ولا تزال أنت الرابح». إلى «آسف يا فلان، لقد خسرت هذه القطعة لأن شخصاً آخر قد زايد عليك». وخلال مجريات المزاد، يمكن للمتسوق أن يتلقى إشعارات «إيباي» بالتطورات من خلال الرسائل الإلكترونية أو الرسائل الهاتفية كما يريد. كما يشعر المتسوق أن «إيباي» شبه متواطئة معه ضد البائع وتتمنى له الحصول على سلعته بأقل ثمن ممكن..!!

في الربع الأول من العام 2008م، بلغ مجموع الأموال التي دفعت عبر «بايبال» نحو 14.4 مليار دولار، أي ما يشكِّل نحو 9% من حجم التجارة الإلكترونية العالمية.

الجاذبية حتى حدود الإدمان

عندما يسجل المتسوق اسمه لأول مرة في «إيباي» يطالعه تحذير يقول إن التعاطي مع هذا الموقع قد يسبب «الإدمان». والأمر صحيح، لأكثر من سبب. فهناك الرغبة الدفينة في نفس كل إنسان بامتلاك أشياء محددة غير متوافرة في المتاجر المحيطة بمكانه. ولكن هذا الموقع يضعها في متناول يده ولو كانت في الطرف الآخر من العالم.

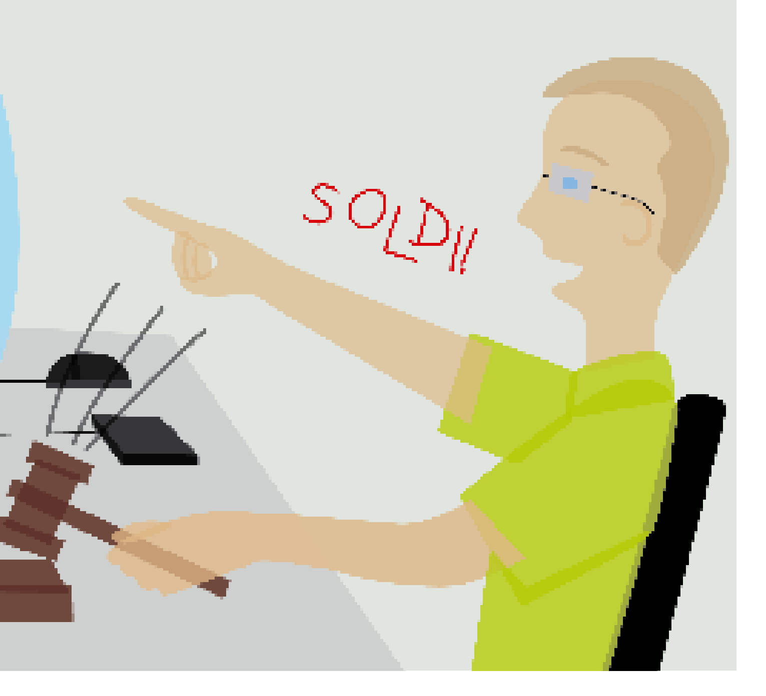
وهناك الرغبة الفطرية في كسب شيء ثمين مقابل مبلغ زهيد. وهذا الموقع يوفر الفرصة لتحقيق ذلك. وأيضاً هناك المجال الواسع لتصفح كل بضائع العالم من غرفة النوم، كما أشرنا، من دون متاعب الجدل مع التاجر والمساومة التقليدية، والدفع بواسطة ضغط زر على موقع «بايبال» فلا يشعر المرء أنه صرف أموالاً نقدية حقيقية (إلا عندما يأتيه كشف حساب بطاقة الاعتماد).

نصائح للمتعاملين الجدد

إضافة إلى الكمية الكبيرة من النصائح التي يطالعها المتعامل على الصفحات المختلفة في موقع «إيباي»، فإن التجارب العملية تمكننا من إعطاء بعض النصائح للمتعاملين الجدد.

1 - عدم التسرع في شراء أية سلعة مهما كانت جذَّابة، بل فتشوا عن سلع مشابهة وقارنوا النوعية والسعر، والموقع يسمح بذلك من خلال خانة «ابحث عن شيء مشابه».

2 - افحص نوعية التاجر وصدقيته. واحصر تعاملك مع الباعة الذين حظوا بتقييم إيجابي يزيد على 99%.



بين الفتوة والنضوج..

إن الشوط الكبير الذي قطعه الموقع البسيط الذي أسسه بيار أوميديار قبل أربعة عشر عاماً، ليصبح حالياً «زعيم» التجارة الإلكترونية في العالم، يوحي بأن «إيباي» بلغت مرحلة النضوج.. وقد تكون فعلاً كذلك، تدل على ذلك أرقام أعمالها. ولكن المشتركين في «إيباي» يلاحظون

3 – توخَّ الحذر عند التعامل مع تاجر سجل نفسه على الموقع قبل شهر أو شهرين فقط.

4 – إعطاء الأفضلية للتجار الذين يبيعون نوعية محددة من السلع وبكميات كبيرة، لأن مصير أعمالهم يكون مرتبطاً بصدقيتهم وحسن تعاملهم مع المشترين.

5 – قراءة وصف السلعة بدقة. وأيضاً قراءة كلفة شحنها إما عبر البريد أو بواسطة شركات الشحن السريع.

6 – عند أي غموض في نوعية السلعة، أو تكاليف شحنها، على المشتري أن يستوضح من البائع كل التفاصيل قبل الشراء.

7 – الدفع عبر «بايبال»، وعدم إعطاء رقم بطاقة الاعتماد للتاجر مباشرة.

8 – إتمام جميع الاتصالات بالبائع عبر موقع «إيباي»، وليس من خلال البريد الإلكتروني المباشر.

9 – الاحتفاظ بنسخ عن كل المراسلات مع البائع، حتى استلام السلعة. وانتهاء الصفقة بالشكل المرضي، لأن هذه المراسلات قد تكون ضرورية لحسم الخلاف إذا ظهر ما يستدعي الخلاف.



التعديلات المستمرة التي تطرأ على تنظيم صفحات الموقع، وعمليات التطوير التي تتوالى شهرياً، وأحياناً أسبوعياً. وبعضها يتجاوز هيكلة الصفحات، ليصل إلى جوهر عمل الشركة. ومن ذلك، على سبيل المثال، عزمها على أن تتولى بنفسها قريباً فض النزاعات بدلاً من «بايبال».

ختاماً، نذكر أن حكاية «إيباي» وتطورها خضعت لقراءة معمقة من قبل مجلة «بزنس ويك» التي رأت في هذه الشركة «ما لا يقل عن اقتصاد عالمي منظم ذاتياً». ومن دون الانجراف إلى المصادقة على هذا التقييم، يمكن الجزم اليوم بأن «إيباي» تمكنت من إعادة هيكلة تجارة التجزئة في العالم وأرست نظاماً جديداً لها، أما مسألة تعميم هذا النظام فتبقى مسألة وقت، ليس أكثر.

«الانهيار الكبير»

أزمة العام 1929م والكساد الكبير



أمضى الكاتب النيوزيلندي سيلوين باركر نحو 20 عاماً يدرس وهو يستطلع الأزمة الاقتصادية العالمية التي وقعت في العام 1929م، وفيما كان يضع اللمسات الأخيرة على كتابه، وقعت الأزمة الحالية، لتضفي مزيداً من الأهمية على كتابه «الانهيار الكبير، كيف أغرق انهيار الأسهم عام 1929م العالم في الكساد». مهى قمر الدين* تعرض أبرز ما جاء في هذا الكتاب.



يدقق سيلوين باركر في كتابه بالأسباب التي أدت إلى انهيار سوق الأسهم الأمريكية والكساد الاقتصادي العالمي الذي نتج عنه. كما أنه يكشف ما كان يقال في أروقة أماكن القرار والخطوات التي قام بها المصرفيون والحكومات، وما لم يقوموا به.. إلى أن ينهي كتابه بتناول بعض أوجه الشبه بين ذلك الانهيار، والأزمة الحالية التي بدأت عام 2008م، وكأنه يردد مقولة مارك توين الشهيرة: «إذا لم يعد التاريخ نفسه، فمن المؤكد أنه يحمل دائماً نفس النغم».

الازدهار الذي سبق الأزمة

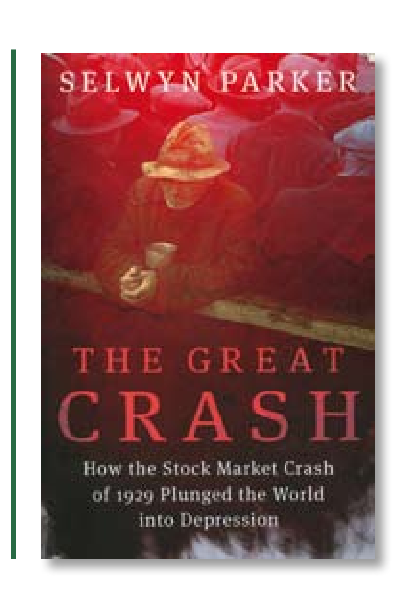
كانت العشرينيات في أمريكا فترة ازدهار ونمو سريعين. فقد كان معدل دخل الفرد يزداد بنسبة 3.4 بالمئة سنوياً، والمصانع تنشأ هنا وهناك، حتى بلغ عدد المصانع التي أنشئت بين عامي 1925 و1929م نحو 22,800 مصنعاً جديداً. وحيال هذا الازدهار، لم يرَ الرئيس كالفن كوليج أي سبب للتدخل في مجريات السوق. فتضاعف عدد الشركات الاحتكارية، حتى أصبح تحريك الاقتصاد الأمريكي رهناً بمشيئة عدد محدَّد من الأشخاص. وبحلول عام 1929م، كان نصف ثروة أمريكا التجارية تحت سيطرة مئة شركة فقط.

أما رمز هذا الازدهار فكان سوق الأسهم في نيويورك. ففي أوائل عام 1929م، تضاعف مؤشر هذا السوق. وارتفعت الأسهم ارتفاعاً جنونياً، حتى أن سهم شركة الهاتف «آي تي آند تي» وصل إلى 304 دولارات، وسهم جنرال إلكتريك إلى 396 دولاراً. أما الريادة فكانت لأسهم الراديو الذي كان رمز التطور التكنولوجي آنذاك، إذ ارتفع سهمه من 1.5 دولار عام 1921م إلى 570 دولار في أبريل 1929م. وبهذا الشكل، اعتقد كثير من الأمريكيين أنهم اكتشفوا سر الثروة الحقيقية، وهرع الجميع إلى الاستثمار في سوق الأسهم.

الاستدانة المتعاظمة

إلا أنه بموازاة ذلك، كانت الاستدانة سيدة الموقف، حتى «أصبحت القروض من معالم التوسع في الاقتصاد الأمريكي». إذ كانت القروض سهلة المنال تقريباً لأي شيء بدءاً من توظيفها في سوق الأسهم إلى شراء العقارات والكماليات. فظهر عدد كبير من المؤسسات المالية المقرضة، التي تعمل وفق المبدأ القائل: «اشترِ الآن وادفع لاحقاً».

* باحثة من لبنان



ومما زاد في جنون الأسهم، هو إصدار سندات الاستثمار التي لم يخل تداولها من الأرباح الوهمية وبعض التحايل على القانون والمستثمرين. وانضم الأوروبيون والبريطانيون إلى الأمريكيين في الاستثمار بسوق نيويورك بينما كانت تلك الدول بأمس الحاجة إلى هذه الأموال لإعادة بناء ما تهدَّم في الحرب العالمية الأولى. فانهارت في بريطانيا امبراطورية المتموّل كلارنس هاتري، مما أثر سلباً على «وول ستريت» وكان مؤشراً إلى بدء الجفاف في السيولة.

من التحذيرات إلى الانهيار

ارتفعت أصوات تحذِّر من أن هذا الوضع سيؤدي إلى انهيار حتمي. وقال المصرفي البارز بول وربورغ إنه «من غير المسموح إطلاق العنان لهذه المضاربة الجنونية في البورصة، لأن انهيارها لن يؤثر فقط على المستثمرين فيها، وإنما سيؤدي إلى كساد اقتصادي كبير في جميع أنحاء البلاد».

عندما وصل الرئيس هوفر إلى الحكم عام 1929م، أدرك إلى أين كان سيؤدي كل ذلك. فحثَّ البنك المركزي على التدخل لرفع الفائدة بغية تقليص الاستدانة في البلاد. ولكن مصرفيي وول ستريت كانوا يسيطرون على فرع البنك المركزي في نيويورك، أي إنهم كانوا أصحاب الصوت الأقوى. وهكذا وجد الرئيس هوفر نفسه وكأنه يتعامل مع مؤامرة غير معلنة.

بوصول الأوضاع إلى حافة الهاوية كان يمكن لتصريح واحد أن يدفعه إليها. وهذا ما حصل عندما صدر عن رئيس البنك البريطاني فيليب سنودن تعليق كان له الأثر المباشر على السوق. إذ حذَّر من المضاربة العمياء في سوق نيويورك ومن أن الانهيار بات حتمياً، وفي اليوم التالي حصلت عمليات بيع كبيرة، وفي اليوم الذي بعده صدرت صحيفة «الواشنطن بوست» بعنوان يقول: «انهارت أسعار الأسهم بسبب البيع الجنوني». واستمر التدهور إلى يوم الإثنين 21 أكتوبر حين تم بيع 6 ملايين سهم في أكبر تداول شهدته البورصة في تاريخها. فخسر الأمريكيون قسماً كبيراً من أموالهم، وانسحب الأوروبيون بما تبقى لهم من أموال.

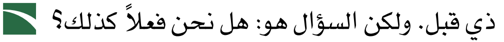
نظريات وتوقعات وجهود

تطلع العالم إلى هذا الانهيار الحاصل في أسواق الأسهم بمشاعر تمتزج بين الدهشة والخوف والشعور بالانفراج. إذ علّقت مجلة «الإيكونوميست» قائلة إن «تنفيس بالون الأسهم الأمريكية المنتفخ بشكل مضخم سيكون له أثره الجيد على العالم». أما في الولايات المتحدة فانقسمت الآراء ما بين مؤيد التدخل لإنقاذ الوضع وآخر يدعو إلى ترك الأمور تحل نفسها بنفسها.

كانت هناك نظرية الاقتصادي الشهير جوزف شومبتر التي قالت «بالهدم البنَّاء». كان شومبتر مرجعاً بالنسبة للدورة الاقتصادية وكان يعتقد بأن الرأسمالية لا يمكن أن تسير في مسار ثابت. إذ لا بد من أن تتعرض للعواصف والتقلبات. واعتبر أن الانهيار هو أحد المحطات الطبيعية للدورة الاقتصادية. ومن بين الذين تبنوا هذه النظرية هناك أندرو ميلون، الذي كان وزيراً للخزانة في عهد الرئيس هوفر. وقد قال الرئيس هوفر إن هذا الانهيار «سيطهر النظام من الفساد وستنخفض كلفة المعيشة، سيعمل الناس بجهد أكبر، وسيحيا الناس حياة أكثر استقامة. كما أن القيم سوف تتعدَّل وسيأخذ المبادرة أشخاص أكفاء بدل الأشخاص الفاشلين».

أما ردة فعل اليابان على الانكماش الاقتصادي العالمي فقد كانت سريعة. إذ شكلت حكومتها شراكة مع الصناعيين فيها. وفي خلال سنوات ثلاث كانت اليابان تصدِّر المكنات والمواد الكيميائية، وانتقلت من دولة «اقتصاد الحرير»، إلى دولة صناعية كبرى. أما الهند فقد أفادت من التقلبات في التبادل التجاري مع بريطانيا ونجحت في قلب الطاولة لصالحها وطوَّرت صناعاتها، وزادت صادراتها إلى بريطانيا بمعدل 375 في المئة أيام الكساد الاقتصادي.

يختم باركر كتابه بعرض بعض أوجه الشبه بين أزمة عام 1929م والأزمة التي حصلت مؤخراً عام 2008م. أولها هي النمو الكبير في القروض التي توفرت لكل شيء إن كان لأغراض استثمارية أو فقط للمتعة. وثانيها هي نسب الفائدة المتدنية إلى حدّ بعيد. أما وجه الشبه الثالث فكانت الشركات التي كانت تصدر سندات الاستثمار المدهشة بالأرباح الخيالية التي تحققها شركات سماها وارن بوفيه «أسلحة دمار شامل». ولكن قبل انهيار 2008م، لم يكن هناك من يسمع.

وينهي باركر بالقول إنه بالرغم من التشابه بين أزمة عام 1929م وأزمة عام 2008م إلا أننا نحن الآن أكثر قدرة على التصدي لتلك الأزمة وإيجاد الحلول لها لأننا الآن أذكى من ذي قبل. ولكن السؤال هو: هل نحن فعلاً كذلك؟ 



المياه المعبأة

كيف أصبح الماء سلعة تباع وتشترى؟



أصبح وجود المياه المعبأة في محلات البقالة أمراً بديهياً وطبيعياً، حتى أنه ما عاد يثير أي سؤال في ذهن المتسوق، علماً بأن السؤال الذي تطرحه هذه القناني البلاستيكية التي تباع بأسعار زهيدة هو أكبر وأخطر من بساطة مظهرها: كيف يمكن بيع الماء وهو يجري مشاعاً للجميع من الينابيع إلى الأنهار التي لا تعد ولا تحصى.. وأكثر من ذلك، هل يجوز أخلاقياً بيع الماء، وهو هبة من الله لكل كائن حي؟ في بحثه عن الأجوبة، يقودنا **تامر محمود*** إلى جذور هذه الصناعة المتنامية عالمياً، والجذور تبدو منغرسة عميقاً في قضية ذات طابع بيئي أولاً وأخيراً.

* باحث مصري

Illustration of article: Almohtaraf, Dina Khalifé

قد تبدو أسعار المياه المعبأة زهيدة بالمقارنة مع باقي السلع الغذائية، حتى أن الكثيرين لا يحسبون حسابها. ولكن الواقع هو أنها اليوم حكر على المحظوظين القادرين على الوصول إليها، ودفع أثمانها، استناداً إلى أرقام الهيئات التابعة للأمم المتحدة.

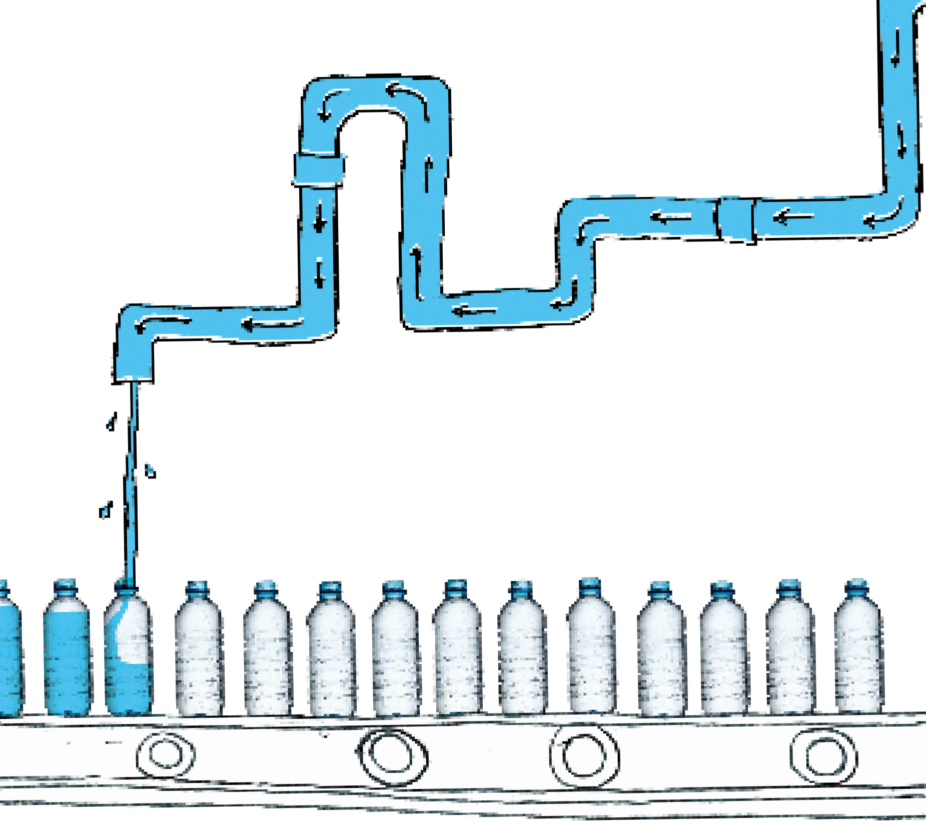
تقول هذه الأرقام إن 5.1 مليون إنسان يموتون سنوياً من جرَّاء إصابتهم بأمراض انتقلت إليهم من خلال مياه الشرب (وهذا الرقم في ازدياد مستمر). وتشير دراسات أخرى، على سبيل المثال، إلى أن 90 في المئة من المياه المبتذلة في إفريقيا يجري تصريفها في الأنهار من دون معالجة، مما تسبب في تلوث 75 في المئة من أنهار القارة، ووفاة مليوني طفل سنوياً. وجدير بالذكر أن عدد الأطفال الذين قضوا، على مستوى العالم، بسبب شرب مياه ملوثة، قد فاق عدد قتلاهم من جرَّاء النزاعات المسلحة منذ الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم.

الاستهتار..
بين الحروب والاستهلاك

فعلى الرغم من أن كمية المياه العذبة، التي يفترض نظرياً أن تكون صالحة للشرب لا تزيد على 3 في المئة من مجمل المياه التي تغطي سطح الأرض (لأن 97 في المئة منها مالحة)، فإن استهتار الإنسان يخفض كمية المياه العذبة باستمرار.

ففي النزاعات المسلحة هناك فاتورة كبيرة من المياه تدفع من دون ضجيج إعلامي كبير. إذ أدت النزاعات التي نشبت في يوغوسلافيا السابقة إلى تلويث مياه نهر الدانوب. وخلال حرب الخليج الأولى تعرضت سدود العراق الثمانية للقصف، ودمرت أربع مضخات رئيسة للمياه من أصل سبع و31 منشأة لتوزيع مياه الشرب ومعالجة مياه الصرف الصحي، مما أدى إلى تحويل مياه الصرف الصحي إلى نهر دجلة. والمثل الثالث وليس الأخير، يأتينا من رواندا. فخلال الإبادة الجماعية التي عرفتها تلك البلاد أدى إلقاء آلاف الجثث في الآبار والأنهار إلى تلوث مصادر المياه، وهلاك الآلاف إما عطشاً وإما من جرَّاء شربهم لهذه المياه الملوثة.

وبعيداً عن العبث المباشر، أدى الاستهلاك الكبير (الجائز أو الجائر) إلى نفاد مخزونات المياه الجوفية كما هو حال مناطق شاسعة من أستراليا، وبعض أنحاء الشرق الأوسط. وفي أمريكا، تتوقع «وكالة حماية البيئة» أن تعاني ست وثلاثون ولاية أمريكية من نقص في المياه بحلول العام 2013م، أي بعد سنوات أربع فقط، مع



احتمال وصـول النقص إلى مسـتوى «القحط» في شرق البلاد وجنوبها. إذ ليس لدى ولاية نيو مكسيكو احتياطي من الماء يكفيها لأكثر من السـنوات العشر المقبلة، في حين تستورد ولاية أريزونا الصحراوية اليوم وبالفعل كل ما تشربه.

والأدهى مما سـبق هـو ما تتوقعه الأمـم المتحدة على صعيد العالم بأسـره، ومفاده أنه بحلول العام 2025م، سـتحل هـذه الكارثـة المفزعـة باثنين مـن كل ثلاثة أشـخاص في العالم. وتسـتند هـذه التوقعات المخيفة إلـى جملة ملاحظات حول واقع المياه العذبة حالياً في عدد من بقاع العالم، ونذكر منها على سـبيل الأمثلة ما يأتي:

- في روسـيا أصـبح 75 في المئة من المياه السطحية و30 فـي المئة من الميـاه الجوفية ملوثـاً، إلى درجة تجعله غير صالح للاستهلاك البشري.
- من أصل أكبر خمسين نهراً في أوروبا، هناك خمسة أنهر فقط لا تزال تحتفظ بنقاء مائها.
- بحيرات إفريقيا البالغ عددها 677 بحيرة، أصبحت كلها ملوثة.
- بحيرة تشـاد تقلَّصـت بمقدار 90 في المئة بسـبب الجفاف.
- فـي إيطاليـا، جف وادي نهر البو الـذي كان يتكفل بري ثلث الزراعة في إيطاليا.
- في الصـين تلوث نحو 80 فـي المئة من أنهار البلاد إلى مستوى انعدام الحياة المائية في معظمها.
- في باكسـتان، يحظى 25 في المئة فقط من السكان بمياه نظيفة.



عندما يمرض جمع من الناس لتلوث مياه الصنبور يعلم الآخرون بذلك.. أما بالنسبة للمياه المعبأة، فمنظومة الإعلام أكثر تعتيماً وميوعة في التعامل مع مشكلاتها

وإضافة إلى تلوث مواطن المياه العذبة، يواجه توزيع مياه الشرب في المدن مشكلة على صعيد آخر. فإذا كانت محطات التصفية والتكرير قادرة على معالجة بعض جوانب التلوث، وإعادة المياه صالحة للشرب، فإن معظم مدن العالم التي بنت شبكات سحب المياه قبل أكثر من خمسين عاماً باتت تعاني من أضرار في هذه الشبكات التي تآكلها الصدأ، فصارت مصدراً لتسرب المياه منها، وتسلل الأوساخ والجراثيم إليها، بحيث ما عادت المياه التي تصل إلى المنازل آمنة للشرب، وصار استعمالها يقتصر على الغسل والتنظيف وري المزروعات.

وفي السباق ما بين نمو المدن (وخاصة في العالم الثالث) من جهة، وقدرات الجهات الحكومية على إنشاء ما يكفي من محطات التكرير وتحديث شبكات سحب المياه إلى المنازل، يبدو أن الهوة لا تزال تزداد اتساعاً. فتكاثرت مصانع تعبئة المياه في قناني بلاستيكية تراوحت في أحجامها ما بين ربع الليتر أو أقل، وعشرين ليتراً.. وظهرت خدمات التوصيل إلى المنازل. ويشير نمو هذه الصناعة وتطور خدماتها إلى أن مستقبلها مضمون العوائد خلال المستقبل المنظور وربما حتى ما بعده.

لماذا اللجوء إلى المياه المعبأة؟

تتعدد الأجوبة عن هذا السؤال، غير أن أكثرها شيوعاً هو ما يقول: «نشربها لأنها نقية وخالية من الأحياء الدقيقة المسببة للأمراض». ولكن السؤال هو ما إذا كان هذا القول دقيق بالقدر الكافي ويمكن تعميمه.

ففي عام 2000م، أجرت دراسة جامعية مقارنة بين 57 عينة «من زجاجات المياه المعبأة» وبين مياه الصنبور العادية بولاية كليفلاند. فأتت نتائج الدراسة كما يلي: احتوت دزينة على الأقل من المياه المعبأة التي شملها التحليل على عشرة أضعاف المحتوى البكتيري الموجود بعينة مياه الصنبور العادية. (تجدر الإشارة هنا إلى احتمال ضَعف التمثيل البكتيري ابتداءً بعينات المياه المعبأة، ثم تكاثرها بهذا الشكل فيما بعد نتيجةً لوجود بيئة دافئة خصبة لتكاثر هذه الكائنات الدقيقة بالعبوات المغلقة).

وفي دراسة أخرى أجريت في العام نفسه، وجد «مجلس حماية المصادر الطبيعية» (NRDC) أن العد البكتيري في عينات بعض العلامات التجارية المنتِجة لهذه المياه، بلغ حداً يتجاوز المقبول به.

وفي عام 2004م، عمدت «الجمعية الأمريكية لعلوم البكتيريا» (The American society of Microbiology)، إلى اختبار 68 نوعاً مختلفاً من المياه المعدنية المطروحة بالسوق الأمريكية، لتجد أن 40 في المئة من العينات التي درستها تحتوي إما على بكتيريا أو فطريات، فيما مثلت 21 عيِّنة من العينات المفحوصة بيئة معززة للتكاثر البكتيري معملياً.

وتجدر الإشارة هنا أيضاً إلى أنه ليس بالضرورة أن يشكِّل هذا المحتوى البكتيري خطراً على صحة الإنسان، فقد يكون وقد لا يكون. فقد استوفت العينات المفحوصة جميعاً المعايير التي رصدتها الحكومة الأمريكية. أي أنك لن تمرض من شرب هذه المياه.

ولكن، عندما يمرض جمعٌ من الناس لتلوث بمياه الصنبور يعلمُ الآخرون بذلك. أما بالنسبة للأمر مع المياه المعبأة، فمنظومة الإعلام أكثر تعتيماً أو ميوعة في التعامل معه. إذ لم يسبق أن سُجلت حالات إصابة مرضية من جراء شرب مياه معبأة بالولايات المتحدة، وإن أوردت السجلات مئات الحالات التي سحبت فيها شركات مياه معبأة عبواتها من الأسواق الأمريكية. وهناك وفرة زاخرة من التقارير عن ارتباط حالات

مرضـية بشـرب مياه معبـأة بإفريقيا وآسـيا والقارة الأوروبيـة. فإمـا أننا عوفينـا بالكلية، وإمـا أن الأمر نفسه حدث بالولايات المتحدة ولم يعرف به الناس أو لم يمكن القطع بالعلاقة بين ظهور الحالات المرضية وبين شرب المياه المعبأة. بل وحتى إن حدث وسُحبت العبوات من الأسـواق، فغالباً ما تصل وسائل الإعلام متأخرة.

يقول التقرير الذي أصـدرته مؤسسة الرقابة الدولية أو (worldwide watch): قـد يُعـاد سـحب العبوات في أغلب الأحوال بعد مرور 15 شـهراً من إنتاج وطرح وبيع المياه المسـببة للمشكلات بالأسواق. ربما، يكون الـكلام طيباً ومطمئناً، ولكـن إن كنت تظن أنك طبقاً لما تقـرأه على لاصـق زجاجات مياه الشـرب المعبأة بصورها المبهرة، أنك تشرب مياه طبيعية نقية، أتتك دون مخالطة من منبعها البكر، فستصاب بالإحباط..! تسأل لماذا؟ حسناً إليك الجواب.

نقاء المياه.. موضع سؤال

تشـير الاختبارات أحياناً، إلى وجود ملوثات بعبوات مرت عليها فترة من تاريخ الإنتاج (قد تطول لعامين). هـذه الملوثـات يشـار إليهـا بالحرفيـن اللاتينيين «ND» أي لـم يتـم اكتشـافها (Not detected) بالحد الأدنى من الفحوصات التي أجرتها الشركات المنتجة. وهـذه الملوثات لم تأت مـن المياه ذاتها،



لماذا صار الإنسان مجبراً على الاختيار ما بين القنينة والمصدر الطبيعي؟

تصنيع قنينة واحدة وتعبئتها يتطلب من المياه ما بين ضعفي وثلاثة أضعاف المياه الموجودة في داخلها

وإنما أتت من العبوات البلاستيكية التي تحويها. حيث تصنع أغلب عبوات المياه المعبأة من مادة البولي إيثيلين تيريفاثاليت أو (polyethylene terephathalate) المعروفة بـ «PET» اختصاراً. هذه المادة عبارة عن أحد البوليميرات المشتقة من البترول، أضيفت إليها مواد أخرى لإكسابها المرونة واللون والمتانة. وفي عام 2006م، اكتشف ويليام شايتوك عالم الكيمياء الجيولوجية بجامعة هايدبيرج أن عنصر «الإثمد» أو (Antimony)، يدخل كعامل حفز بعمليات تصنيع العنصر السابق PET، وتبين له أنه يختلط بمياه الشرب الموجودة داخل العبوات. أما تناول جرعات صغيرة من هذا العنصر فتسبب الإصابة بالدوار وفتور النشاط الوظيفي، وأما إن كانت الجرعات كبيرة، فتسبب الغثيان والقيء وربما الوفاة...!.

تجدر الإشارة هنا إلى ضآلة مقادير PET التي اكتشفها شايتوك أولاً مقارنة بالتي حددتها المعايير الحكومية، لكن هذه المقادير تزايدت بتطاول الفترة التي مكثتها المياه بالعبوات. حيث احتوت العبوات بُعيد الانتهاء من تعبئتها على 160 جزءاً في التريليون (في حين تسمح الولايات المتحدة بوجود 6000 جزء في التريليون بماء الصنبور). لكن المقدار المذكور لم يبق ثابتاً، إذ تضاعف بعد مرور ثلاثة شهور، ثم تضاعف مرة أخرى في غضون ثلاثة أشهر أخرى (مع بقائها لذلك الحين أدنى من المعيار المقبول). ولقد عثر علماء أمريكيون على 38 مادة كيميائية في عبوات 10 من شركات تعبئة المياه، ومن ضمنها مياه الشركات التي تعبئ مياه الصنبور العادية وتبيعها بالأسواق. حيث أظهرت الاختبارات التي أجرتها مجموعة العمل البيئي، وهي منظمة مقرها واشنطن، أن قناني المياه المعبأة، من أشهر الماركات، تحتوي على أنواع من الملوثات من ضمنها مواد كيميائية تسبب السرطان بنسبة تزيد ثلاث مرات على المستوى الذي حددته سلطات ولاية كاليفورنيا الصحية.

وقالت المنظمة التي تضم علماء وخبراء طالبوا بوضع ضوابط صارمة للمراقبة على المنتجات بتقرير لها صدر في 15 أكتوبر الماضي، إن هذه النتائج تدحض الرأي السائد بين أفراد الجمهور بكون المياه المعبأة أنقى من مياه الصنبور. كما أظهرت الاختبارات وجود أنواع من بكتيريا كولاي المعوية، وآثار من الكافيين، ومن الأسيتامينوفين وهو عقار مخفف للألم، ومن السماد العضوي، والمذيبات، والمواد الكيميائية المستعملة في صناعة البلاستيك، وعنصر السترونيوم المشع. علما بأن هؤلاء البحاثة قد استمروا في إجراء هذه الاختبارات على مدار عامين، وشملت قناني المياه المعبأة التي تم ابتياعُها من شتى الولايات الأمريكية ككاليفورنيا وكارولينا الشمالية وفرجينيا وماريلاند وديلاوير.

وقد قال الدكتور ديفيد كاربنتر مدير معهد الصحة والبيئة في جامعة نيويورك بألبانيا الذي شارك بالدراسة، أن أخطر الملوثات تمثلت في مركبات الترايهالوميثان (trihalomethanes). وهي مركبات قد تسبب أمراض السرطان وفقاً لما تشير له الأبحاث، مضيفاً أن مستوياتها التي وُجدت بقناني المياه المعبأة كانت غير مقبولة.

كان هذا باختصار حال المياه المعبأة (مُكوناً وعبوةً) في واحدة من أرقى دول العالم وأحرصها على سلامة مواطنيها وصحتهم، تُرىَ ما هو حال المياه المعبأة بالوطن العربي؟

لنبدأ بمصر. حيث كشف سعيد الألفي، رئيس الجمعية المصرية لحماية المستهلك، عن دراسة أجرتها الجمعية بالتعاون مع وزارة الصحة لفحص عينات لواحد وعشرين



«الماء المعلَّب» ليس حلاً لمشكلات المستقبل، وإذا استمر الإنسان في تلويث بيئته، فقد لا يبقى في العالم ماء نظيف لتعبئته في العبوات الفارغة

نوعاً من مياه الشرب المعبأة، خلصت إلى وجود محتوىً بكتيري بالعبوات، وإلى وجود مخالفة للبيانات المدونة على سبعة أنواع أخرى للمكونات الفعلية للمياه بداخلها مع بقاء صلاحيتها. كان ذلك بالعام 2007م، فما حال 2008م؟. في هذا العام الأخير، أحال رشيد محمد رشيد وزير التجارة والصناعة المصري أربع شركات للمياه الطبيعية المعبأة إلى النيابة العامة للتحقيق معها بشأن عدم صلاحية منتجاتها للاستهلاك، وذلك في تصعيد جديد لأزمة المياه المعبأة التي نشبت بين الشركات العاملة بالسوق والحكومة المصرية. وقال رشيد في تصريح له إن قرار إحالة الشركات الأربع إلى النيابة العامة جاء بناءً على تحليل العينات التي أثبتت عدم صلاحية الشركات الأربع وأوقفت خطوط إنتاجها. كما أصدر الوزير المصري قراراً بإلزام جميع المنشآت الصناعية المنتجة للمياه الطبيعية المعبأة بتطبيق أعلى نظام عالمي لجودة وسلامة المياه وهو «الهاسب» المستخدم عالمياً والمتوافق مع مواصفات هيئة دستور الأغذية الدولية.

وفي السعودية، قال الدكتور صالح عبدالله كابلي وكيل كلية العلوم للدراسات العليا والبحث العلمي إن المياه بالمملكة تعبأ بقنانٍ بلاستيكية يعاد استخدامها أكثر من مرة، وهو ما يجعلها أكثر خطورة، وتجرى عليها دراسات معمقة لتحديد مدى هذه الخطورة وطبيعة التلوث الحاصل. وكانت دراسة علمية منشورة، مبنية على تحليل 82 عيِّنة أجراها الدكتور أسعد ابن بكر مفتي، قد كشفت عن وجود بعض العينات غير الصالحة للاستهلاك. في حين أكدت دراسة أخرى قدَّمها مدير إدارة حماية البيئة في الهيئة الملكية بينبع، الدكتور أحمد بن سعيد باجحلان في ملتقى أبحاث المدينة المنورة الأول الذي عقد العام الماضي، أن نسبة تسرب مادة «الستايرين» (وهي مادة تتسرب من البلاستيك المستخدم في تعبئة مياه الشرب وتتفاعل مع المياه نفسها) قد تجاوزت المعايير والمواصفات التي وضعتها كل من الهيئة الملكية ومنظمة الصحة العالمية.

الإنصاف.. يقضي بالاعتراف

ولكن لو تركنا جانباً بعض الحالات القصوى في عدم نقاء المياه المعبأة، أو الغش في صناعتها التي تحمل الصفة الجرمية، فإن الإنصاف يقضي بالاعتراف بأنها عموماً تبقى أفضل من مياه الصنبور، خاصة في بعض بلدان العالم الثالث حيث تنعدم الرقابة الدقيقة، وأفضل بكثير من المياه الجارية من الينابيع والأنهار، لأن هذه تتطلب فحصاً دورياً يضمن نقاءها وصلاحيتها المهددة في أي وقت.

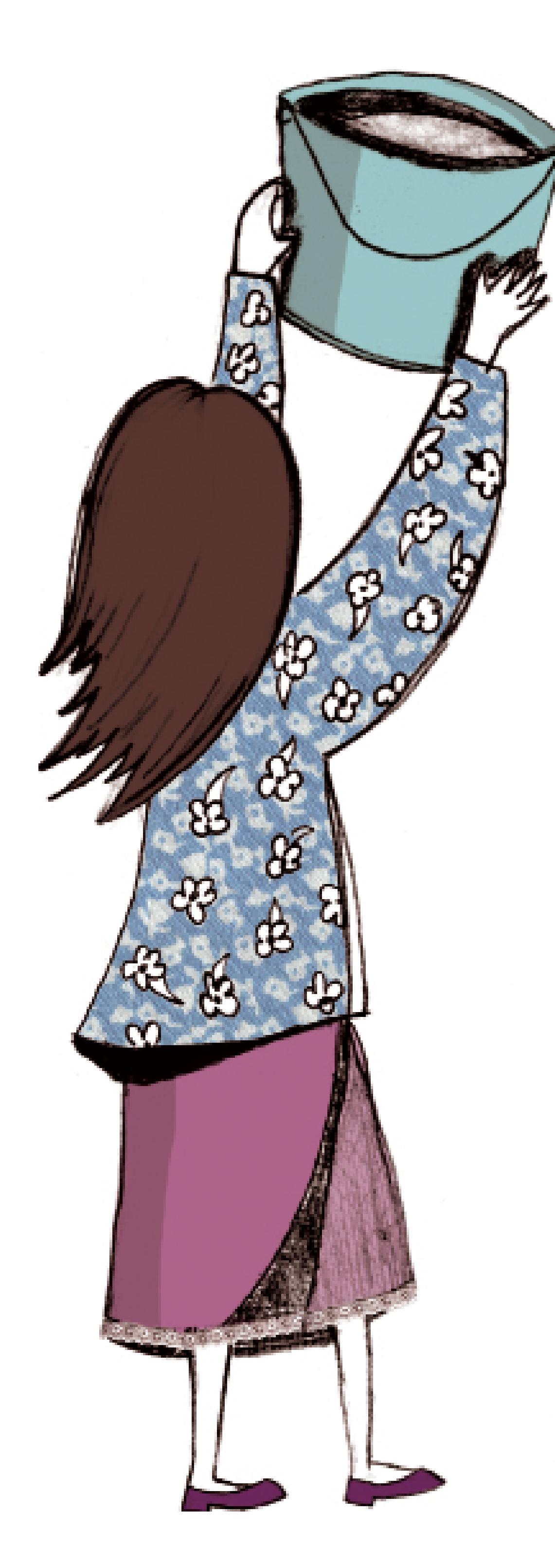
ويقول أنصار المياه المعبأة (وهم على حق) أنه لو توافرت لبلد مثل زيمبابوي كمية كافية من المياه المعبأة، لما تفشَّى فيه وباء الكوليرا بالشكل المأساوي الذي ضرب آلاف الناس هناك قبل أشهر معدودة.

كلفة التعبئة

بالانتقال إلى كلفة المياه المعبأة، نشير إلى أن تصنيع قنينة واحدة وتعبئتها يتطلب من الماء ما بين ضعفي وثلاثة أضعاف مقدار المياه الموجودة بداخلها. وإضافة إلى هذا الهدر في الماء لتعبئة ماء آخر، تتطلب هذه الصناعة استهلاكاً كبيراً من الموارد الطبيعية الأخرى، وأهمها النفط. ففي عام 2006م وحده، تطلَّب تصنيع عبوات المياه البلاستيكية في الولايات المتحدة الأمريكية إنتاج مليون طن من مادة PET، وهذا ما استهلك سبعة عشر مليون برميل من النفط.

ومقابل كل قنينة مياه نستهلكها، نكون قد استهلكنا بشكل غير مباشر ما يعادل ربعها من البترول، ما بين اللازم منه لتصنيع العبوة، واللازم للنقل والشحن.





إلـى ذلـك نضـيف أن إنتـاج طـن واحـد من مـادة PET، يـؤدي إلى انبعاث ثلاثـة أطنان من ثاني أكسـيد الكربون فـي الهواء. الأمر الذي يضـع هذه الصـناعة تحت مجهر المراقبة (خاصـة بعد اتفاقية كيوتو). وطبقاً لـ «مؤسسـة السياسات الاقتصادية» (EPI) ينتج العالم حالياً نحو 2.7 مليون طن سـنوياً من البلاستيك المسـتخدم في التعبئة. أما بعد شـرب المياه، فتنتقل هذه الكمية من البلاسـتيك إلـى جوف التربة حيث تسـتغرق عملية تحللها ما بين 400 و1000 سـنة. فهـل تسـاوي زجاجـات المـاء المعلب هذا الثمن؟

لتلافي المشكلة.. وليس لحلها

«نعـم».. يقـول الكثيـرون وهـم يتطلعـون إلـى الاحتمالات المتوافـرة حولهم فـي حياتهم اليومية. فالمـاء المعلَّب هو أفضـل الموجود في متناول أيديهم، أو أهون الشـرور.. فهو حل لمشـكلة اليوم.. ولكن، مما تقدم، لا يبدو الماء المعلَّب حـلاً لمشـكلات المسـتقبل. إذ ليس هنـاك ما يبشِّـر بأن فقـراء العالم سيصـبحون بعد سـنوات قادرين على تحمل تكلفته التي سـترتفع باسـتمرار. وإذا اسـتمر الإنسـان في تلويث مصـادر المياه على النحو الحالي، فلا شـيء يضمن بقـاء ينابيع نظيفة لتعبئة المياه مسـتقبلاً. وبالتالي، يمكن اختصـار واقع الميـاه المعبأة علـى أنه حـل مؤقت لتلافي مواجهة مشـكلة ملحة. أما أسـاس المشكلة فلا حل له غير الحل النظري البسـيط: حماية الأنهار والمياه الجوفية من التلـوث. والأمر ممكن. قد يكون للأمر تكلفة مادية باهظة، ولكـن عوائده سـتكون ولا شـك أكبـر. ليس على الصـعيد الاقتصادي فقط، بل أيضاً على الصعيد البيئي، وقبله على الصعيد الأخلاقي.

فالحصول على الماء مجاناً حق من حقوق الإنسان الأولية، لأنه شـرط طبيعي للحياة، وهو هبة من الله لهذا الإنسـان. والمشـكلة التي نواجههـا اليوم في العالم بأسـره على هذا الصعيد، تعود في أساسها إلى التنكر لهذا الحق، وإلى عبث البعض بالأنهار وبالمياه الجوفية مسـتهتراً بهـا، ومعتدياً بذلك على حق الآخريـن في الحياة من خلال اعتدائه على مياه الشـرب. ويصبح لزاماً عليه وعلى الآخرين أن يشتروا الماء.. إذ إن سـوء التصـرف البيئي هو مـا أدى إلى ظهور مثـل هذا الحـل المؤقت المثير للجدل أخلاقياً، لمشـكلة لا حل عملياً لها في الوقت الراهن.

1 عودة إلى حكمة ... الدود

منذ أزمان لا نعرفها، وجد الإنسان في أعشاب البر دواء لأدوائه. وبنت شعوب بكاملها تراثاً غنياً جداً من الحكمة الشعبية التي تعرف أي عشبة تعالج أي مرض. بل ان الفراعنة والبابليين، ثم اليونان والعرب، تركوا لنا علوم طب مؤسسة على معرفة خصائص النبات والأعشاب. من ذلك كتب لابن سينا وغيره. ولا تزال شعوب كاملة في إفريقيا، تُجل «السحرة» وتُنزلهم منزلة عالية في مراتب المجتمع، لأنهم يتقنون فن المعالجة بالأعشاب.

وفي العصور الحديثة رأى الطب الحديث أن يستخف بحكمة الأقدمين ويُقبل على ما نعرف من تسخيف لطب الأعشاب، حتى ظهرت علوم البيئة والطبيعة، فاسترد الطب الشعبي والمعالجة بالأعشاب بعضاً من سمعتهما، بل ربما الكثير منها. وأخذت شركات صنع الدواء في الغرب تعلن فخورة أن دواءها كذا، خال من الكيمياء، وأنه من الأعشاب الطبيعية «مئة بالمئة».

وظننا أن الأمور ستقف عند هذا الحد، وأن الحيوانات الذكية، مثل الشامبانزي، تشاركنا في التعالج بالأعشاب. إذ ان المعروف أن القرد المصاب بالدود في أمعائه، يُقبل على أكل العشب الشوكي، وبذلك يتخلص من الدود.

لكن العلماء اكتشفوا أخيراً، أن المسألة أعم وأوسع كثيراً مما نظن، حين وجدوا أن اليُسروع الصوفي، وهو نوع من الدود الدباب غير المعروف بالذكاء في دنيا الحيوان، يتداوى أيضاً بالأعشاب. إذ حين يمرض اليُسروع من جراء إصابته بيرقة طفيلية، تراه يُقبل على أكل النبات الوافر بالقلويات، مرتين أكثر مما يأكل منه في المعتاد. وفي هذه القلويات سموم تقتل اليرقات وتعالج اليُسروع.

ولاحظ علماء الطبيعة، أن الدود الذي يأكل النباتات القلوية المناسبة، يطول عمره 20 في المئة أكثر من الدود الذي يُحرَم من التزود بالقلويات.

Flickr

2 لا ترموا زيت القلي!

بدا الصندوق في أحد مطاعم ددهام، في ولاية ماساشوستس الأمريكية، أشبه بخزانة عدة. لكنه في الواقع مولد طاقة، ينتج خمسة كيلوات/ساعة، من دهون بقايا طعام يكررها في داخله.

إنه المولد الذي صنعه المهندس جيمس بيريت، وهو أول مولد يعالج الدهون ويصنع منها طاقة من دون حاجة إلى أي آلة أخرى، فيولد طاقة تكفي لتغذية مبنى كامل بالكهرباء والماء الساخن. ووضع المولد هذا في مطعم، ينتج من نفاياته الدهون، «فكرة مدهشة»، لا لأنه يوفر الطاقة من نفايات فقط، بل لأنه يحل أيضاً مشكلة التخلص المفيد من هذه النفايات.

عمل بيريت وعمره 33 سنة، العام الماضي على تركيب مولده الجديد في مطعم يقدِّم لزبائنه المقالي البحرية، وهو يرفض إلى الآن الإفصاح عن الأسلوب الذي اتبعه في اختراعه، لأنه لم يحصل بعد على البراءة التي تحميه من التقليد. لكن الذين يشاهدون تشغيل المولد يرون عمالاً يصبون بين 10 و12 جالوناً من زيت القلي المستهلك، في خزان وقود المولد، كل يوم.

لكن قبل صب الوقود في الخزان، يكون زيت القلي قد عولج في الآلة نفسها لتنظيفه وتصفيته، بوسائل خاصة وفي مراحل متعددة. ويكتفي بيريت بالقول إن الطاقة تؤخذ من الحرارة الخارجة من العادم. وتبلغ طاقة المولد 15 حصاناً ديزل.

أما الحرارة الناتجة من تبريد المولد فتُستخدَم من أجل تسخين الماء في المطعم، على نحو يقلص فاقد الطاقة إلى أدنى الحدود الممكنة. ويستطيع المولد أن يعالج 80 جالوناً من الدهون في الأسبوع، وهذا كاف لتشغيل مطعم كبير. وفي الحساب الأمريكي للطاقة يبلغ الوفر في الشهر نحو ألف دولار.



iStockphoto

3 محركات «نانو» لسيارات فائقة الصغر

تخيّل أن نصنع سيارات وطائرات وغواصات، بحجم البكتيريا، من أجل إرسال «جراحين» في داخل شرايين الإنسان، يهاجمون الخلايا المريضة أو السرطانية، ويقتلونها، أو يدمرون الدم المتخثر في الأوعية الدموية، أو البروتين الذي يسبب مرض «ألزهايمر».

لن تكون وسائل النقل «النانو»، أي الفائقة الصغر هذه، مفيدة في المهام الطبية فقط، بل ان المهندسين يعملون في تطويرها من أجل إرسالها في مهام أخرى، مثل التسلل داخل شقوق الصلب في الجسور، أو في أجنحة الطائرات، لترميمها ومنع انشطارها والتسبب في كوارث.

لقد أفلح علماء الفيزياء في السنوات الأخيرة، في صنع آلات «نانو» مدهشة، في حجم الخلايا الفائقة الصغر، بل ان العالم جيمس تور تمكن في جامعة رايس، مثلاً، من صنع سيارة بأربعة دواليب، أصغر 5 آلاف مرة من الخلية البشرية. لكن مشكلة هذه السيارة التي لا محرك لها، هي أنها تتحرك وفق اصطدامها بالخلايا، وتتجه في الوجهة التي تقودها إليها الصدفة. وتعد هذه المسألة العقبة الكبرى الباقية أمام تكنولوجيا «النانو»، لتصبح أداة العصر الجديد التي لا نتخيل أثرها وفوائدها، في حقول لا تخطر في بال. ولحل هذه المعضلة، ينصرف العلماء إلى صنع محركات حقيقية بمعيار «النانو»، من أجل تزويد السيارات والغواصات، وتمكينها من أن تسير في الاتجاه الذي يقودها فيه الطبيب أو المهندس، حسب حاجته، في داخل الجسم البشري، أو في داخل كتلة الإسمنت أو الصلب التي يعمل في ترميمها.

وتستلهم بعض الحلول المطروحة، محركات طبيعية في الخلايا البشرية الحية، التي لا يبدو أنها تخطئ وجهتها في كثير من المهام التي تتجه لأدائها في الجسم الوجهة الصحيحة.


Flickr

4 حين يتكلم الفم المقفل

عندما كان مايكل كالاهان في السابعة عشرة، فقد ذاكرته القصيرة الأمد، حين صدم رأسه فيما كان يتزلج. وبعد أسابيع استعاد قدرته الكاملة على التحدث، وعاد إلى طبيعته، إلا أن الحادثة جعلته يفكر في مساعدة من يفقد إلى الأبد القدرة على الكلام في مثل الحادثة التي أصابته.

يتكلم المرء، لأن الدماغ يرسل إلى حنجرته أوامر معيَّنة، وتعمل ثلاثة أشياء معاً ليخرج الكلام مفهوماً إلى المستمع: الرئتان تنفخان الهواء، حبلا الصوت في الحنجرة يترددان، والفم يتحرك. فإذا تعطلت إحدى هذه الأدوات تعطل الكلام.



وعلى هذا الأساس عمل كالاهان.

بعد عمل دام 5 سنوات، ابتكر الرجل آلة سماها «أوديو» (Audeo)، تلتقط الإشارات الآتية من الدماغ إلى الحنجرة، فتحولها إلى كمبيوتر بواسطة بطاريات كهربائية صغيرة تلتصق بالعنق عند الحنجرة، ويترجمها الكمبيوتر إلى ذبذبات صوتية، تصير كلاماً، بفضل برنامج وُضع لهذا الغرض.

الغريب في هذا الاختراع الذي وُلد من الحادثة، أن المتكلم لا يحتاج إلى فتح فمه، بل يصدر صوته من الكمبيوتر، بكلامه الذي يقوله من دون أن يحرك شفتيه.

وليصل إلى هذه النتيجة المدهشة، عمل كالاهان في السنوات الخمس المذكورة في جامعة إلينويز، ودرس كل ما أمكنه دراسته في علوم الصوت والإشارات العصبية المتصلة به، لكن أكثر ما استغرق وقته، هو الوصول إلى تصفية الإشارات العصبية وتحليلها لتتحول إلى إشارات «يفهمها» الكمبيوتر ويعالجها، ليعيد إنتاجها صوتاً بشرياً مفهوماً.

ولم يكن كالاهان الوحيد في هذا الجهد، بل ان وكالة الفضاء والطيران الأمريكية «ناسا»، عملت أيضاً سنوات من أجل تطوير أدوات تخاطب بين رواد الفضاء تسهل لهم الاتصال في حالات الضجيج أو بعد المسافة.

لكن المسألة لم تنته بعد، فالحديث بالجهاز الجديد يحتاج إلى مران، لأن المرء معتاد الكلام بفتح الفم ودفع الهواء من الرئتين، والكلام بالفم المقفل، أمر ليس بالسهولة التي نتصورها.

قصة ابتكار

عربة الإطفاء

من الإسكندرية إلى العالم



يعود نشاط الإطفاء تاريخياً إلى الحضارات اليونانية القديمة والرومانية ومن ثم البريطانية. لكن التكنولوجيا الأولى جاءت من البحر المتوسط، وتحديداً من مصر القديمة. ففي حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، قام المخترع الإسكندراني ستيسبس بتركيب أولى مضخة عملية سميت «سيفو». تتألف هذه المضخة من زوجين من الأسطوانات الغارقة في المياه، ومكابس يدوية تضخ المياه من خزان عبر أنبوب طويل.

كانت هذه المضخة فعالة في إطفاء النيران عند سحبها قرب الحريق، ولكن كان من المستحيل استعمالها لإطفاء النيران داخل الأبنية بسبب عدم وجود الخراطيم حينئذ. وأيضاً، كان نفاد المياه من الخزان يعني التوقف حتى إعادة تعبئته يدوياً مرة أخرى، مما سبب في الغالب خسائر كبيرة في المباني. استمرت هذه التكنولوجيا فترة من الوقت في اليونان وروما ثم اختفت. ولم يعاد اكتشافها لفترة قاربت الألفي سنة. في تلك الأثناء، قام مخترع إسكندراني آخر يدعى «هيرون» أو «هيرو» بتصميم مضخة اعتمدت على العديد من عناصر المضخة الأولى، لكنها جهزت بفوهة توجه صوب النيران بمجرد تشغيلها. استمر هذا النموذج مستعملاً في القليل من المدن الأوروبية الكبيرة، حتى فجر الثورة الصناعية في نهاية القرن الثامن عشر. بينما ظلت أغلبية المدن تعتمد على الدلو في إطفاء الحرائق.

مع خروج أوروبا من القرون الوسطى، بدأت بعض الأمم في تجربة تقنيات جديدة. ففي القرن السادس عشر، اعتمدت مدينة أوغسبيرغ الألمانية أسلوب محاقن المياه، ولكن التعقيدات التي صاحبت التصميم لم تساعد على انتشارها. إلى أن جاء الألماني انتوني بلانتر سنة 1518م بأول تصميم لآلة إطفاء مبسطة مُنح بسببها حق المواطنة في مدينة أوغسبيرغ. ولاحقاً، تطورت المضخة على يد الفرنسي بيرولت لتصل إلى مدى أبعد، مما سهل مهمة رجال الإطفاء في الوصول إلى النيران بكفاءة، دون الحاجة إلى الاقتراب منها. كان التطور الأبرز هو اختراع الخرطوم على يد الهولنديين جان ونيكولاس فان دير هيدن سنة 1672م. وكان حينئذ من الجلد، مما شكَّل إضافة أخرى، وسهَّل عملية السيطرة على الحرائق التي بدأت تنتشر مع زيادة السكان وتكدسهم في المدن. وأيضاً، قام الاثنان بإضافة مضخة يمكنها سحب المياه من أي مصدر آخر عند نفاد الخزان الملحق بالعربة. وبحلول عام 1721م، قام المخترع البريطاني ريتشارد نيوشام بتطوير أولى مضخة تدار بواسطة رجلين فقط عن طريق عتلة تحرك جيئة وذهاباً، فيتحرك مكبس ضاخاً الماء إلى صنبور نحاسي يدفعه حتى ارتفاع أربعين متراً، بمعدل مائة غالون في الدقيقة. اشتهر هذا النموذج، وفي غضون سنوات عشر وصل إلى أمريكا حيث طلبت منه مدينة نيويورك مضختين سنة 1731م.

في عام 1828م قام البريطاني جون بريثوايت بتطوير مضخة تعمل بطاقة البخار. ثم أخيراً جاء اختراع المضخات التي تعمل بالوقود، وأحيلت الخيول إلى التقاعد. ومنذ ذلك الوقت، تغيرت عربات الإطفاء من آلات بسيطة تجرها الخيول إلى عربات مجهزة بأحدث المعدات، ولكن مهمتها بقيت كما كانت ولم تتغيَّر.

قصة مبتكر

كارل زايس
صانع العدسات

كارل زايس هو واحد من آخر جيل من عمالقة المبتكرين والمخترعين الذين درسوا علوماً كثيرة، ومن ثم ركَّزوا جهودهم على حقل معيَّن ليتركوا عليه بصمات من الإبداع يعجز اللاحقون عن تجاوزها.

ولد كارل في ألمانيا في شهر سبتمبر من العام 1816م، والتحق أولاً بمدرسة لتدريس قواعد اللغة، ومن ثم بمعهد الدكتور فريدريك كورنر، مزوِّد البلاط باحتياجاته من الأدوات الميكانيكية. وبعد ذلك تابع كارل بعض المحاضرات في علم الرياضيات، ومن ثم علم المعادن وأخيراً علم البصريات في جامعة مدينة جينا الألمانية.

بعد تخرجه بسنوات سبع افتتح كارل زايس مشغلاً صغيراً لصناعة العدسات الزجاجية. ولما لم يحقق إنتاج العدسات ما يتوخاه كارل من نجاح، بدأ من العام 1847م، بصناعة «الميكروسكوب». وكان أول ابتكار له، تبسيطاً للميكروسكوب التقليدي، يعمل بعدسة واحدة، وبالتالي كان موجهاً إلى الاستعمال في عمليات التشريح فقط.


Wikipedia

باع كارل في العام الأول 23 جهازاً، ولما أحس بضرورة الانصراف إلى تحد جديد، بدأ العمل على إنتاج الميكروسكوب المزدوج، وأطلق النموذج الأوَّل منه المعروف باسم «ستاندا» عام 1857م. وخلال 4 سنوات فقط، انتزع كارل زايس اعتراف المراجع العلمية بأن الميكروسكوبات التي يصنعها هي من أفضل الأدوات العلمية التي تنتجها ألمانيا. فحاز في العام 1861م الميدالية الذهبية في أحد المعارض الألمانية الشهيرة. وفي العام 1866م تمكن مصنعه من بيع الميكروسكوب رقم 1000.

وسلك زايس منعطفاً بالغ الأهمية عام 1872م، عندما ضم إلى محترفه عالم الفيزياء أرنست أبي، الذي راح يعمل معه على تطوير نظرية يفترض بها أن تسمح بإنتاج عدسات تتلافى تشويه أطراف الصورة. وأصبحت النظرية قابلة للتطبيق عام 1886م عندما انضم عالم الكيمياء أوتو شوت إلى الفريق. وسمحت العدسة الجديدة بإنتاج أنماط جديدة من الميكروسكوبات متطورة أكثر من السابق بكثير.

توفي كارل زايس في ديسمبر من العام 1881م. وبعد وفاته بقليل انسحب ابنه الذي كان انضم إليه في العمل قبل ذلك بوقت قليل. ولكن المصنع لم يقفل، بل تحوَّل إلى شركة، راحت تطوِّر صناعة العدسات الزجاجية لمختلف الأغراض، بدءاً من أجهزة التكبير والتقريب وصولاً إلى آلات التصوير الفوتوغرافي. حتى حظي اسم الشركة بشهرة عالمية ترسَّخت طوال القرن العشرين، واستمرت حتى يومنا هذا. إذ يكفي أن يشار في أية أداة بصرية أن العدسة من صنع «زايس» لكي يتأكد المرء أنه أمام أداة تتميز برقيٍّ المستوى حتى أقصى حد.. وفي هذه السمعة العطرة شيء من الوفاء المستحق لرجل كرَّس معظم سنوات عمره لتطوير العدسات وصناعتها، فمنح العالم عيوناً قادرة على رؤية ما تعجز العين العادية عن رؤيته بدءاً بالجراثيم الصغيرة، وصولاً إلى المجرات العملاقة في الكون الفسيح.

اطلب العلم

سفرٌ بين النجوم

د. مبارك بن سالم البريك*

عملياً، تبدو فكرة سفر الإنسان بين النجوم أمراً صعباً للغاية، ومستحيلاً وفق المعطيات العلمية المتوافرة لحضارتنا اليوم. ومرد هذه الاستحالة ثلاثة عناصر هي أشبه بعقبات لا يملك العلماء اليوم تصوراً عملياً لتجاوزها.

العقبة الأولى هي المسافات التي يستحيل إدراكها تقريبياً والتي تفصل ما بين النجوم. وللدلالة على عظمة هذه المسافات، يكفينا أن نمثل الشمس بكرة طاولة في مكان ما، فيكون أقرب نجم إليها كرة مماثلة تبعد عنها أكثر من 700 ميل. ويمكن للصورة أن تتضح أكثر إذا قلنا أننا لو استقلينا أسرع طائرة نقل نفاثة معروفة في عصرنا، لاستغرقت رحلتنا حوالي أربعة ملايين سنة لنصل إلى أقرب نجم إلى مجموعتنا الشمسية.

القيد الثاني هو في حدود السرعة. فنحن لا نستطيع أن نتنقل بسرعة تفوق سرعة الضوء البالغة نحو 300 ألف كلم في الثانية. ليس فقط لأن أسرع وسيلة نقل اخترعها الإنسان حتى اليوم لم تتجاوز في سرعتها جزءاً لا يذكر من هذه السرعة، بل لأن سرعة الضوء تعتبر نظرياً حاجزاً لا يمكن تجاوزه.

أما القيد الثالث فهو أننا غير قادرين على الاقتراب من سرعة الضوء من دون استخدام كمية خيالية من الوقود. وحتى إذا تجاهلنا مشكلة الهروب من الجاذبية الأرضية بعد الإقلاع، فإنه يجب علينا استخدام الطاقة المخزنة في الوقود لبلوغ سرعة معينة، وأيضاً من أجل تخفيض تلك السرعة للتوقف عند وصولنا إلى جهتنا المطلوبة.

وإذا افترضنا أننا نريد العودة إلى الأرض، فيجب علينا أن نعيد تكرار نفس خطوات الذهاب. وبعملية حسابية بسيطة نسبياً احتسب العلماء نظرياً كمية الوقود المطلوبة لإطلاق مركبة فضائية تعادل في حجمها يختاً كبيراً إلى نجم يبعد عنَّا مسافة سنوات خمس ضوئية، وتريد الوصول إليه في غضون سنوات عشر، فتبين لهم أن الطاقة المطلوبة لذلك تعادل 40,000 مرة إجمالي الاستهلاك السنوي للطاقة في الولايات المتحدة.

إن سفر بضعة أفراد سيكون ممكناً إذا قبلنا بالفترة الطويلة التي ستستغرقها الرحلة، وهذا سيتطلب نوعاً من المماثلة غير معروفة حالياً، أو سفناً فضائية على شكل مستعمرات تحمل مجتمعاً كاملاً من الناس يولدون ويعيشون ويموتون في تلك المستعمرة جيلاً بعد جيل. ومن المشكوك فيه أو غير المعروف إن كان سيتمكن سكان تلك المستعمرة من المحافظة على عاداتهم الاجتماعية التي تتصف بالإنسانية في مثل تلك الرحلة الطويلة.

تلك القيود الثلاثة لن تجعل أمر مغادرة نظامنا الشمسي صعباً علينا فحسب، بل ستجعله صعباً أيضاً على الغرباء القادمين من الفضاء الخارجي لزيارة الأرض. وقد درس علماء كبار الظاهرة المعروفة بالأطباق الطائرة (UFO's) وقاموا بدراسة ظواهر مشابهة ولم يعثروا على أي دليل يشير إلى أن الأرض قد زارها أي من الغرباء من عوالم أخرى. إذاً فمن المستبعد أن يقابل البشر أي غريب وجهاً لوجه. ويبقى جهاز الراديو الطريقة الوحيدة التي نستطيع من خلالها الاتصال مع أية حضارات أخرى إن كانت موجودة.

* أكاديمي سعودي





الملف المصور

يوسف الدبيس

اقفز ما شئت
وارتفع ما «مداك»..
لكنك عائد عائد..
أما الكرويُّون
فلا يأبهون!

تدور الكرة بهم
ويدورون بها..
يرقصون ويرقِّصون.

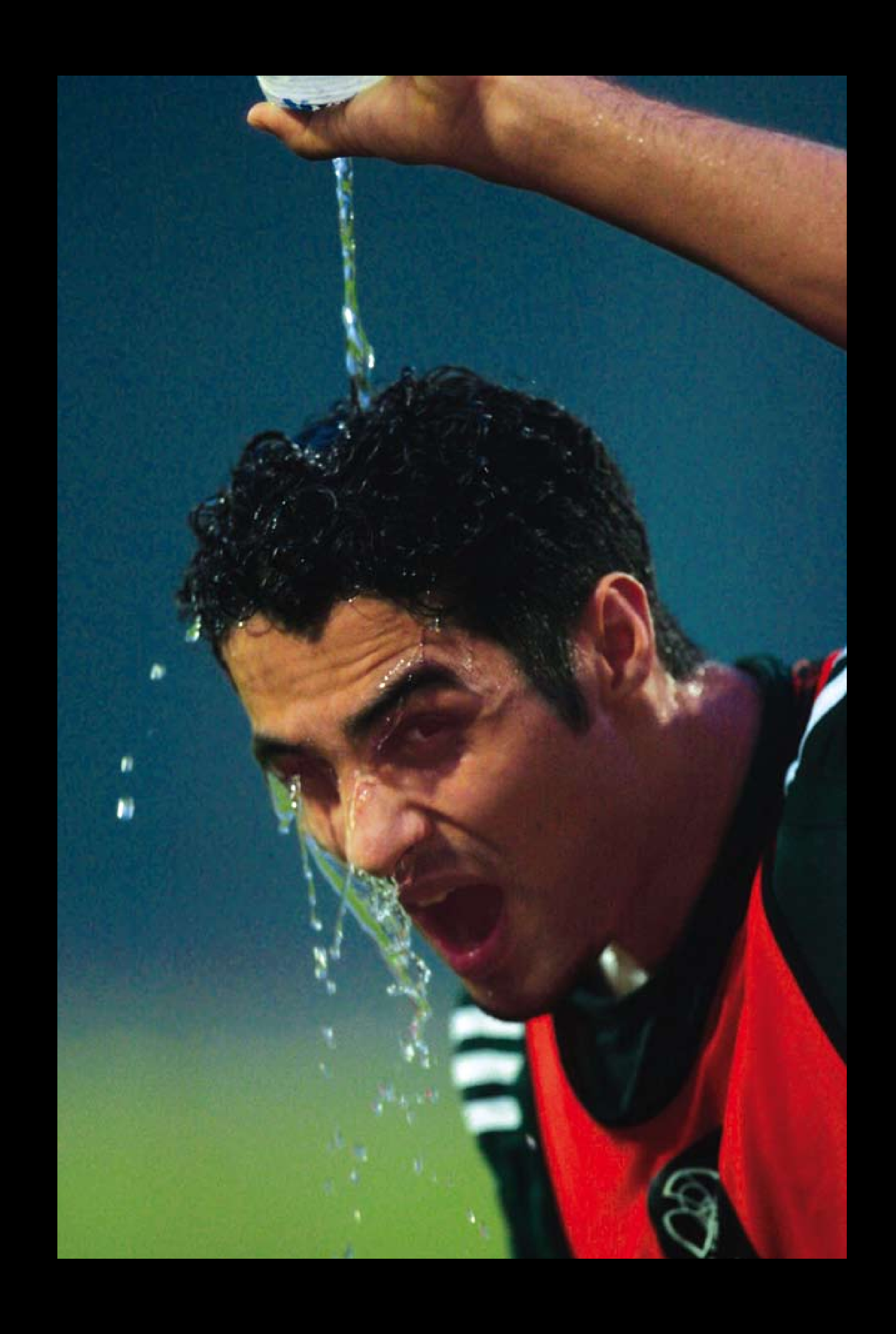
لكن الأقدام
كما الكرات
تذهب حيث
لا تشتهي السفن.

هيهات هيهات!




lotto


SPFC
LG
4



عندما غرَّرت بي (العلكة)!

عبدالله المغلوث *

ورويت على مسامعه قصة لقائي برئيسه وماجرى فيه من انحناء واحتفاء. وقبل أن اختتم روايتي انفجر مدير مكتب الوزير ضحكاً حتى كاد أن يغشى عليه. وبعد أن هدأ روعه ومسح دمعه، سألته عن سر هذا الضحك الهستيري. فأجابني ووجهه يفيض انشراحاً: «يا سيدي.. وزيري لم يكن ينحني تواضعاً عندما كان يتحدث معك، بل كان منشغلاً بالعلكة (اللبان) التي نشبت في حذائه وأنت معه».

ولم تكن هذه المرة الأولى التي أتعرض فيها لمثل هذا الموقف، الذي يجعلني أغير انطباعي وأسحب أقوالي حول إحدى الشخصيات العامة. فقد تعرضت لموقف مشابه عندما زرت مسؤولاً رفيعاً في منزله؛ لإجراء حوار صحافي معه. فوجدته هو من يصنع الشاي والقهوة، وهو من يقدمها بنفسه دون مساعدة أحد. وقد زاد إعجابي به عندما أخبرني أنه ليس لديه خدم ولا حشم. فشعرت

فوجئت عندما التقيت وزيراً عربياً خلال قمة أوبك، التي عقدت في الرياض في نوفمبر عام 2007م، بأنه كان ينحني وهو يكلمني. كان يتحدث وهو يحملق في السجادة. تكاد عيناه تسقطان على الأرض من فرط تحديقه بها. امتلأت ولعاً بهذا الوزير قبل أن أنصرف عنه. فأخذت أشنف مسمعي بحديثه، وأتأمل طريقته الاستثنائية في الإنصات والاحترام. أسرني تواضعه وبساطته. انطلقت أمتدحه وأغدقه إطراءً سراً وجهراً، مساءً ونهاراً. أمام أمي وأبي، وزوجتي وأخوتي، وأصدقائي وزملائي. وصفته بأعظم الصفات وأرقها. ونعته بالوزير اللامع المتواضع. رجل الكياسة والسياسة. ولم أقلع عن الإشادة به إلا بعد أن التقيت صدفة مدير مكتبه في أحد المطارات الدولية،

بسعادة غامرة جعلتني أشيد بزهده وورعه، وعدم اتكاليته. ولم يوقفني عن مدحه إلا جاره، الذي أخبرني أن غياب خدمه وحشمه كان طارئاً، لأنهم كانوا يرافقون زوجته وابنته خلال رحلتهم إلى أحد منتجعات سويسرا أثناء زيارتي له.

ولست الوحيد الذي تورَّط في الانطباعات الأولى. فالشيخ علي الطنطاوي -يرحمه الله- تذكر في إحدى حلقات برنامجه الشهير «على مائدة الإفطار»، الذي كان يعرض على شاشة القناة السعودية الأولى، قصة مماثلة. فقد كان -يرحمه الله- يثني على قاض في محكمة دمشق لا يخرج من مكتبه إلا متأخراً ويستشهد بإخلاصه في كل مجلس يرتاده. وقد نما إلى علم القاضي مدح الطنطاوي له في الذهاب والإياب. فزار الطنطاوي في مكتبه وشكره على كلماته ودعواته، وأكد له أن بقاءه في المحكمة إلى وقت متأخر لا يعود لكونه مخلصاً أكثر من غيره بل لأنه ينتظر يومياً ابنه في المحكمة حتى يفرغ من محاضراته في الجامعة ليذهبا معاً إلى المنزل.

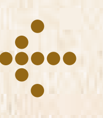
وسبق أن سخر الرئيس الأمريكي الأسبق، بيل كلينتون من الصحافة الألمانية، التي أشادت بلطفه أثناء إقامته في أحد فنادق برلين عام 1994م. فقد امتدح عدد من مراسليها تلويح الرئيس الأسبق الدائم لنزلاء الفندق عبر نافذة جناحه. وكان مصدر سخرية كلينتون أنه لم يكن يقصد التلويح عندما كان يرفع يديه مراراً باتجاه النافذة، بل كان يمارس تمارين رياضية، وقتئذ، تتطلب أن يوجه يديه إلى الأعلى على نحو متقطع لمدة نصف ساعة.

إذن، علينا ألاَّ نستعجل في إصدار أحكامنا على الأشخاص جرَّاء موقف واحد. علينا أن نتروى جيداً قبل أن نرشقه أو نرشقها بالورود والعبارات التي تحمر على إثرها الخدود.

* كاتب سعودي

أجهزة حياتنا اليومية وأدواتها..

التصميم.. هو المسؤول



كثيراً ما نتعثَّر أو نرتبك في تعاملنا مع أشياء بسيطة جداً في حياتنا اليومية. وفي معظم الأحيان، فإننا نتجاوز هذا التعثر وننسى مواجهته، علماً بأن بعضه يترك ذكرى سيئة تبقى في الذهن لبعض الوقت. ليلى أمل تبحث في الدور الذي يلعبه التصميم على صعيد حسن أداء هذه الأشياء اليومية لوظيفتها، وتحشد لهذه الغاية مجموعة أمثلة نعرفها جميعاً، دون أن نعي عيوبها إلى الحد الذي يدفعنا إلى المطالبة بتعديلها، علماً بأن تيسير أمور حياتنا اليومية مرتبط بها. وأكثر من ذلك، فإن أثرها على حسن الأداء حتى في مجال العمل يبدو ملحوظاً استناداً إلى ما يخلص إليه هذا البحث.

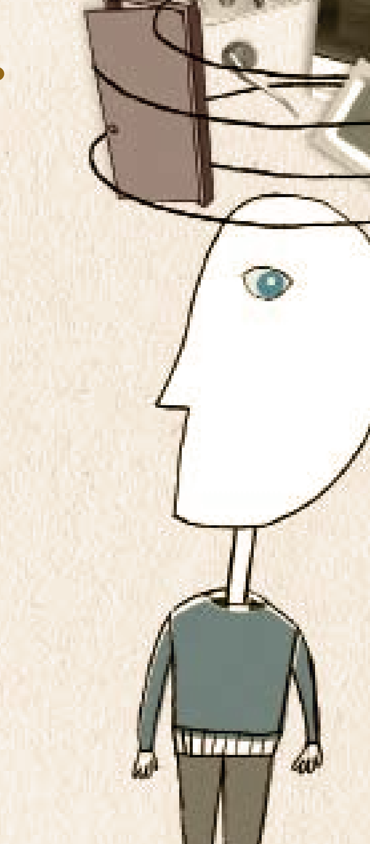
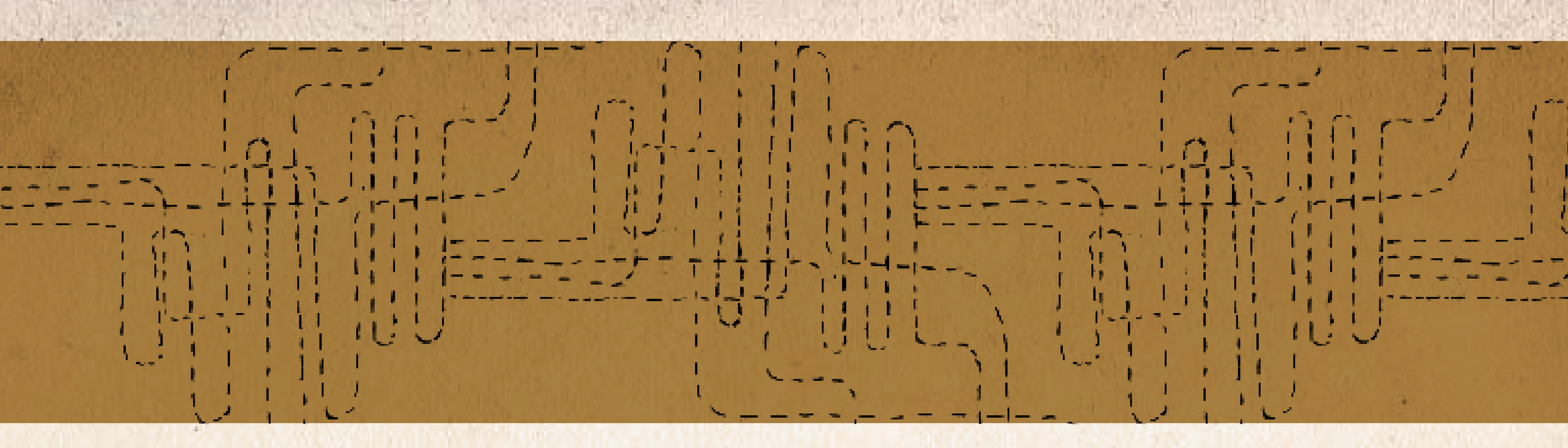
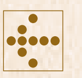


Illustration of article: Almohtaraf, Dina Khalifé





ليس من المتوقع أن يتعرَّض المرء للحيرة أثناء قيامه بعمل بسيط وعادي للغاية كغسل يديه! لكن هذا ما يحدث إذا كنت تفعل ذلك في أحد المجمعات التجارية التي قررت -حرصاً منها على راحة روادها، وحداثة مظهرها- أن تستخدم في تجهيزاتها صنابير المياه الأوتوماتيكية.

إذا كنت تستخدم صنبور المياه هذا للمرة الأولى، ستجد نفسك أمام هذا «الكائن المعدني»، تتساءل حول الطريقة التي تمكِّنك من أن تنال رضاه كي يمدَّك بالمياه. وإذا بدت تلك الحيرة منطقية بعض الشيء، فماذا عن الغضب والإحباط اللذين نتعرَّض لهما حين نحاول استخراج قرص مدمج أو لعبة أطفال جديدة من غلافها، تلك الأغلفة البلاستيكية المحكمة التي ترفض الانفصال عما بداخلها، وتبدو عصية الاختراق ليس على الأصابع فقط، ولكن حتى باستخدام أدوات حادة كالمقص أو السكين. وماذا عن الضيق الذي يفرضه علينا المرور عبر واحد من تلك الأبواب الأسطوانية الدوارة، حيث يجب أن نحاكي إيقاع حركتها، ونستسلم لها تماماً حتى تطلق سراحنا في الجهة المقابلة.

تمتلئ حياتنا اليومية بالأدوات والأجهزة التي نتعامل معها ونعتمد عليها في أداء مهامنا وتسهيلها علينا. أدوات يدوية بسيطة، وأجهزة إلكترونية مركبة، وأشياء كثيرة أخرى تملأ المساحة بين الاثنين. وعلى الرغم من أننا نلجأ إليها بوجه عام لتساعدنا في تنظيم مفردات عالمنا وجعل حياتنا أقل تعقيداً، إلا أنها تكون في أوقات كثيرة مصدراً لهذا التعقيد. يكفي أن نتذكر كل المرات التي تعاملنا فيها مع أجهزة تؤدي المهام بطريقة سيئة، أو تحتاج إلى كثير من الوقت، أو صعبة الفهم ومثيرة للحيرة والارتباك. وحتى الأجهزة التي تسلم من ذلك، ما زال هناك احتمال أن تكون أجهزة «برية»، يحتاج المرء إلى كثير من الجهد كي يعتاد عليها ويتمكن من استخدامها جيداً، أو تعاني الحساسية المفرطة بحيث يمكن لخطأ بسيط أن يجلب الكوارث على رأس من يتعامل معها، أو يجعل نظامها ينهار تماماً.

«المشكلة هي التصميم». هذا ما يقوله دونالد نورمان أستاذ التصميم بجامعة «نورث وسترن» الأمريكية، ومدير «معهد سيجل للتصميم». يرى نورمان أن التصميم سواء أكان لمنتج أو شركة أو خدمة أو خبرة ما يجب أن يكون متوجهاً في الأساس إلى تلبية حاجة مستخدميه، وأن الأجهزة التي نختبر الصعوبة أو التعقيد في التعامل معها، تكمن مشكلتها في أنها لم تصمم كي تراعي حاجاتنا الحقيقية والطريقة التي ندرك بها العالم من حولنا ونتعامل معه. وقد أتت هذه المعرفة من خبرة سنوات طويلة من العمل في مجال التصميم كناقد واستشاري. هذا المجال الذي دخله حاملاً شهادتين إحداهما في الهندسة والأخرى في علم النفس، جعلتاه على دراية واسعة بطبيعة كل من الآلة والإنسان.

ليس هناك ما يوضح هذا الأمر أكثر من الأبواب! فالأبواب أحد أبسط الأشياء التي نتعامل معها في حياتنا اليومية، ومع ذلك، يمكن لهذه الأداة البسيطة أن تكون مصدراً لكثير من الارتباك. ليس هناك الكثير الذي يمكن للباب أن يقدِّمه.. فإما أن نفتحه أو نغلقه. وعلى ذلك فإن تعاملنا مع الأبواب

من صفات التصميم الجيد الارتياح إلى استخدام الشيء وترحيبه بالمستخدم، وتسامحه مع الأخطاء..

(اليدوية وليست الأوتوماتيكية لأنها قصة طويلة أخرى!) يتطلب معرفة شيئين بسيطين فقط. أولهما هو الفعل الذي يستجيب الباب له.. أي هل علينا أن ندفع أم نسحب. والثاني هو أي الجانبين هو الثابت وأيهما هو المتحرك، والذي سيستقبل هذا الفعل. يقول دونالد نورمان إنه يجب أن يقدِّم تصميم الباب إجابة عن هذه الأسئلة دون حاجة إلى كلمات أو إشارات أو رموز. فحين يحتاج شيء ببساطة الباب إلى كتيب إرشادات، حتى ولو كان «كتيباً» من كلمة واحدة، فإن تصميمه يجب أن يُعد تصميماً فاشلاً.

أربع صفات للتصميم الجيد

إذن ما هو التصميم الجيد؟ تقول استشارية التصميم الأمريكية ويتني كوينزبري إن التصميم الجيد هو ذلك الذي يتسم بأربع صفات أساسية هي: أن يكون فعالاً يؤدي مهمته بكفاءة عالية في مدة زمنية مناسبة، وأن يكون مرحباً يشعر المستخدم بالارتياح لاستخدامه خاصة في المرة الأولى، وأن يكون سهل التعلم، وأخيراً أن يكون «متسامحاً» مع الخطأ البشري. وإذا كانت صفة الفعالية تتعلق بإجادة الجهاز لأداء مهمته الميكانيكية أو الإلكترونية، فإن الصفات الثلاث الأخرى تتعلق بإجادته للتفاعل مع مستخدمه، وفهمه، أو بالأصح فهم مصممه، لطبيعة تعامل العقل البشري مع الأجهزة والأدوات التي تُعد جزءاً من حياتنا اليومية، وكيف يؤدي المهام المتعلقة بها.

غالباً ما تقابلنا قائمة طويلة من مهام حياتنا اليومية التي يكون علينا أن ننجزها سريعاً، وربما بالتزامن مع مهام أخرى. ولأن العقل البشري يتعامل مع العالم بطريقة تتسم بالفاعلية، فإنه يأخذ منه ما يرى أن حفظه في داخله أمر مهم وحيوي لن يستطيع التصرف بصورة صحيحة دونه. بينما يترك بقية المعرفة غير المهمة خارجه، عارفاً أنها هناك في مكانها الصحيح من العالم في انتظاره. وهذا هو السبب في أننا أحياناً لا نستطيع أن نصف تفاصيل مهمة ناجحة قمنا بها، على الرغم من أنها كانت سهلة وعادية وقت أدائها. فالعقل يعرف أنه ليس مطالباً بحفظ كل هذا القدر من المعلومات التي نحتاجها في حياتنا اليومية، أو حفظها بدقة محكمة. ولو أننا نعتمد فقط على ما يحفظه العقل من معرفة، لما استطعنا التعامل مع أي من أدوات حياتنا اليومية إلا ونحن نقرأ خطوات العمل من كتيب الإرشادات.

ولكي يكون التصميم جيداً وموافقاً لطبيعة العقل الذي يتعامل معه، عليه أن يوفِّر القدر الكافي من هذه المعلومات التي يمكن أن «يوحي» بها بنفسه إلى مستخدمه، وبالتالي يصبح التعامل مع مهامه الأولية أيسر وأسهل. ويترك كتيب الإرشادات لتلك المهمات الأكثر تعقيداً، والتي لن يحتاجها المستخدم العادي كل يوم، أو التي لن يستفيد منها إلا شريحة معيَّنة من المستخدمين «الخبراء».

ما الذي يتيحه الجهاز وما الذي يمنعه؟

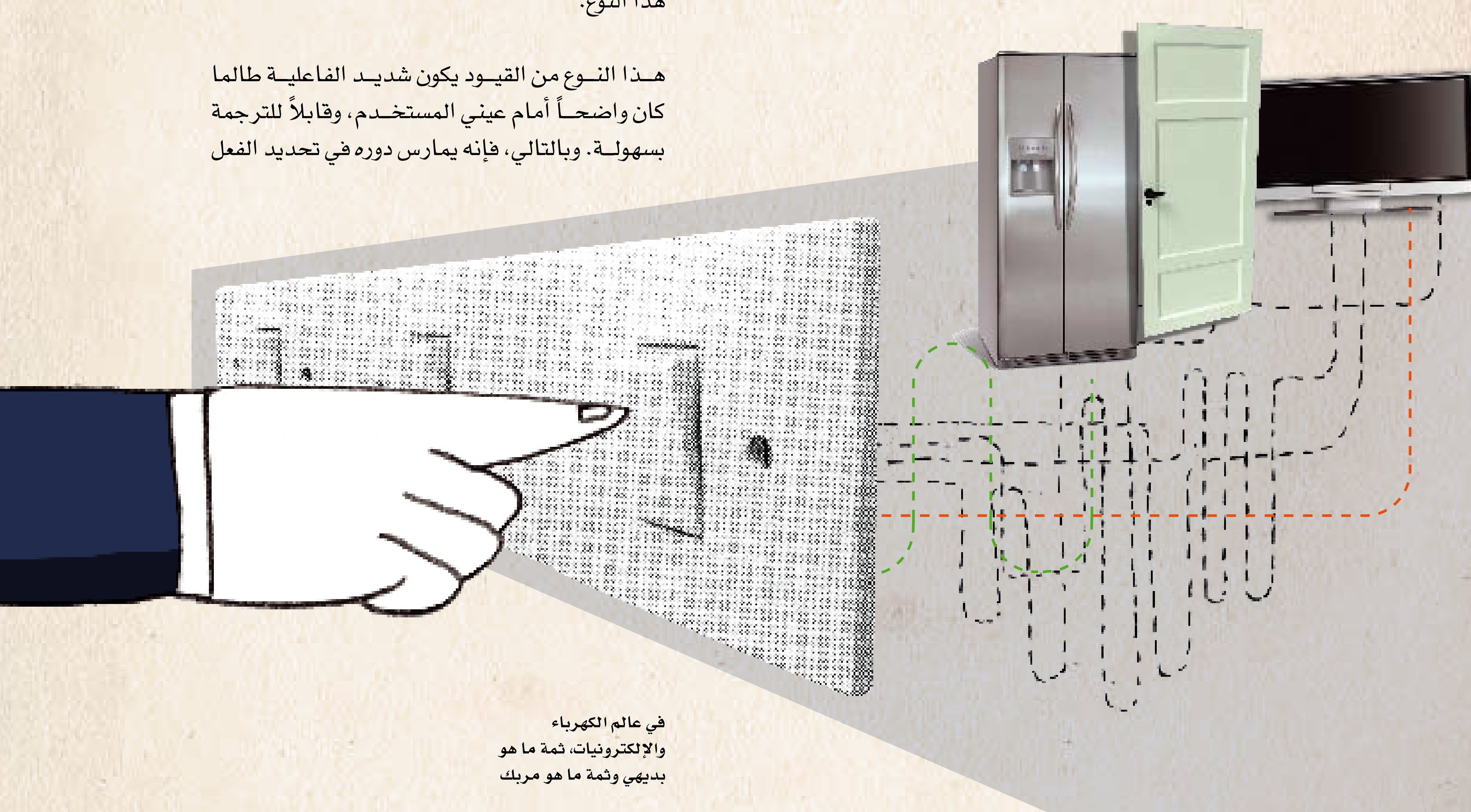
في كتابه «تصميم أشياء حياتنا اليومية» يقول دونالد نورمان إن التصميم الجيد يجب أن يحمل ما يرشدنا مباشرة إلى ما يتيحه وما يمنعه. ويكون ذلك عبر الاستخدام الجيد والفعال لمجموعة من الإتاحات والقيود تمكِّن المستخدم من معرفة ما يجب عليه أن يفعله بمجرد النظر، ومن دون الحاجة إلى تعليمات أو صور توضيحية أو كلمات إرشادية.

ويقصد بالإتاحات تلك المعلومات التي تخبرنا عن الأفعال المادية التي يسمح الجهاز بها كأساس

لتفاعل المستخدم معه. وعلى هذا، تكون المقابض هي الإتاحة الخاصة بالإدارة، والأزرار هي تلك الخاصة بالضغط، والفتحات هي الإتاحة الخاصة بإدخال الأشياء عبرها. وإذا طبقنا هذا الأمر على حالة الأبواب، سنعرف لماذا تسبب لنا كل هذا العناء. فحين يعمل الباب عن طريق الدفع، يجب أن يكون مصمماً بحيث يتيح هذا الفعل، وهذا الفعل وحده. إذا لاحظنا في باب ما وجود قرص مسطح على أحد جانبيه، لن يفكر أحدنا قبل أن يضع كفه على ذلك القرص ويدفع الباب. والشيء نفسه سيحدث إذا كان الباب مزوداً بقضيب معدني أفقي في مستوى اليد. أما المقبض المعدني الرأسي الذي نراه على معظم أبوابنا، فيتيح كلاً من الدفع والسحب، مما يجعل وضع علامة (اسحب/ادفع) شيئاً حتمياً.

أما القيود فتساعدنا في تفاعلنا مع الأجهزة والأدوات عن طريق قيامها بتقليل الاحتمالات الممكنة لطرق هذا التفاعل. يمكن لهذه القيود أن تكون مادية، أي تفرضها الخصائص المادية للأشياء. فأحجام الفتحات أو الثقوب وأشكالها تحد من الأشياء التي يمكن إدخالها عبرها، بحيث نفهم أنها فقط تلك التي تناسبها في القياس. بهذه الطريقة نعرف مثلاً أي الفتحات في جهاز الجوال هي الفتحة الصحيحة لوصله بالشاحن، بدون أن نقرأ الإرشادات. وقد تكون القيود قيوداً ثقافية يقررها ما هو متعارف عليه في ثقافة مجتمع ما، حتى وإن لم تكن هناك قيود مادية تجعله لازماً. فنحن نعرف أن أغطية الزجاجات تفتح بالدوران في عكس اتجاه عقارب الساعة، وتغلق بالدوران في اتجاهها. وصار الأمر متعارفاً عليه، بحيث لا نحتاج إلى السؤال عن ذلك في كل مرة نريد أن نفتح أو نغلق زجاجة أو وعاءً من هذا النوع.

هذا النوع من القيود يكون شديد الفاعلية طالما كان واضحاً أمام عيني المستخدم، وقابلاً للترجمة بسهولة. وبالتالي، فإنه يمارس دوره في تحديد الفعل



في عالم الكهرباء والإلكترونيات، ثمة ما هو بديهي وثمة ما هو مربك

التصميم الجيد يجمع القيمة الاستخدامية وقابلية التصنيع. ولكن كثيراً ما يتعرَّض هذا التوازن للخلل..

قبل أن يقوم المستخدم بتجربته. أما إذا لم يكن كذلك، فإن المستخدم لن يعرف الفعل الصحيح إلا بعد تجربة الفعل الخطأ. مفاتيح الأبواب يجب أن توضع في وضع رأسي معيَّن كي تعمل. لكن كل مفتاح له اتجاهان رأسيان محتملان. كي يكون المفتاح جيد التصميم، يجب أن يحمل إشارة واضحة تشير إلى الاتجاه الصحيح. أو أن يكون قادراً على العمل إذا تم إدخاله في أي من الاتجاهين. ورغم أن المفاتيح أشياء صغيرة، إلا أنها يمكن أن تمثل مصدراً لكثير من الإحباط اليومي وأحياناً المتاعب، خاصة إن كنت تريد الدخول إلى السيارة أو إلى المنزل في ليلة ممطرة وبيدين مشغولتين بالحقائب أو الأوراق.

التخطيط المنطقي

من الخصائص المهمة للتصميم الجيد، كون الجهاز سهل التعلم لا يحتاج مستخدمه إلى كثير من التدريب كي يعتاد عليه ويتقن استعماله. وترتبط سهولة التعلم، بمدى منطقية العلاقات بين مكونات النظام، وخطوات أداء المهام بواسطته. فالعقل البشري محدود القدرة فيما يتعلق بحفظ العلاقات العشوائية واسترجاعها وقت الحاجة إليها، بينما يختلف الأمر تماماً في حالة العلاقات المنطقية. ولذلك فإن التصميم الجيد يجب أن يتبع خريطة تمثل العلاقة المنطقية بين الترتيب المكاني للأشياء والمكونات الأخرى التي تتحكم في عملها. وبهذه الطريقة لن يكون علينا أن نتعلم قواعد العلاقة، لأنها تبدو لعقلنا في هذه الحالة أموراً بديهية.

من أشهر الأشياء في عالمنا التي تعاني من مشكلة حادة مع مبدأ التخطيط، هو الموقد. لو افترضنا أن لدينا موقداً تقليدياً يحتوي على أربع شعلات مرتبة في مربع، سيكون لدينا أربعة مفاتيح تقابلها مرتبة في صف طولي. ولو افترضنا أن المصمم قرر أن يرتبها عشوائياً تماماً بحيث لا تتبع نمطاً معيناً، فيكون لدينا في هذه الحالة أربعة احتمالات لكل مفتاح والشعلة التي يتحكم في عملها!. وبالطبع فإن هذا الترتيب العشوائي غير عملي على الإطلاق، حتى أن أحداً لن يجرؤ على تنفيذه مطلقاً. لكن الاختلاف بين الوضع المربع للشعلات والوضع الطولي لمفاتيحها، يمنع أن تكون العلاقة بين الاثنين مرتبة تبعاً لخريطة منطقية. وبدلاً من ذلك نجد أن الترتيب المتبع هو حل وسط بين العشوائية التامة، وبين الخريطة المنطقية. إذ يقسم المصمم مفاتيح التحكم إلى قسمين بحيث يتحكم المفتاحان في جهة اليمين في عمل الشعلتين في جهة اليمين، ويتحكم مفتاحا اليسار في شعلتي اليسار. المشكلة أن الأمر ما زال مربكاً، لأنه يترك احتمالين لكل مفتاح. هل المفتاح في أقصى اليمين يتحكم في الشعلة اليمنى الأمامية أم الخلفية؟

ماذا لو اتبعنا الخريطة المنطقية للعلاقة بين الشعلات والمفاتيح، ورتبنا الأخيرة في شكل نصف دائرة بدلاً من المربع؟ هذا التوافق في العلاقة، يجعل تعاملنا مع الجهاز عملية سلسة، وتزيل عنه التعقيد، وتنتفي معه الحاجة لتذكر العلاقات، أو لوجود إرشادات تعيننا على ذلك.

عملية التقييم

حين نستخدم الأجهزة والأدوات في حياتنا اليومية، فإن تعاملنا معها يسير في اتجاهين. الأول هو اتجاه التنفيذ، حين نمارس فعلاً معيناً أو سلسلة من الأفعال اللازمة كي ينفذ الجهاز مهمته المطلوبة. أما الاتجاه الثاني فهو اتجاه التقييم، والذي نتلقى فيه من الجهاز معلومات حول استجابته للفعل الذي قدمناه، وما إذا كنا سنحصل على النتيجة التي نريد أم لا.

وإذا كانت الإشارات الخاصة بطبيعة عمل الجهاز وتكوينه أساسية في إرشادنا لما يتوجب علينا فعله

لبدء تنفيذ مهمة ما، فإن الإشارات التي تمكننا من التقييم أثناء أدائه لهذه المهمة تُعد أساسية لإتمامها. فمن دونها يظل المستخدم في تساؤل حول ما إذا كان أي شيء قد حدث. فربما لم يضغط الزر بقوة كافية، ربما أخطأ وضغط زراً غير صحيح، أو ربما يعاني الجهاز من عطل ما. ومن دونها نغلق الأجهزة في الوقت الخطأ، أو نعيد تشغيلها بلا حاجة إلى ذلك، أو نكرر الأمر مرتين فيزدحم الجهاز بالأوامر أو يتوقف تماماً من العمل.

في التصميم الجيد يجب أن يعرف المستخدم ما الذي يجري بالضبط داخل الجهاز الآن. الأجهزة الإلكترونية التي تحتوي على شاشات يمكنها أن تستغل هذه الميزة بأفضل طريقة، كي توفر لمستخدمها أعلى درجة من الاتصال معها. أما مع الأجهزة التي لا تحمل شاشات فيجب أن يترك التصميم للمستخدم مجالاً للرؤية، وألا يتغاضى عن ذلك لصالح أناقة التصميم. فجهاز الكاسيت مثلاً يجب أن يسمح لمستخدمه بأن يرى المكان الذي يضع فيه الشريط، بالرغم من أن التصميم الذي لا يضع تلك المساحة الشفافة على واجهته، يبدو من النظرة الأولى أكثر أناقة و«نظافة».

والمشكلة الشائعة التي تحدث مع التصميم الذي لا يسمح برؤية الشريط، هي أن يضغط المستخدم زر التشغيل ولا يحدث شيء، ثم يكتشف بعد فحص مجموعة من الاحتمالات أن الجهاز منذ البداية كان فارغاً.



الجبرية في التصميم تلغي احتمالات وقوع المستخدم في الخطأ، ولكن اعتمادها يتطلب ذكاءً واعتدالاً..

التعامل مع الخطأ

الخطأ البشري هو جزء لا يمكن تجنبه من تعاملنا مع العالم الخارجي المحيط بنا بأكمله. وحين يقع عقلنا في الخطأ أثناء تعاملنا مع جهاز ما، فعادة ما يكون هناك سبب مقنع ومنطقي وراء ذلك. فإما أن المعلومات المتاحة أمامنا لم تكن كاملة أو كانت مضللة، ولذلك فإن القرار وقتها كان صحيحاً رغم خطئه. أو إننا كنا نعرف ما يجب علينا معرفته، لكن الخطأ نتج عن سهو أو خلط أثناء تنفيذ المهمة. ورغم أن هذه الأخطاء تبدو سيئة وغريبة عند التفكير بها بعد حدوثها، إلا أن حدوثها نفسه هو الدليل على كونها بدت في لحظتها منطقية ومتماسكة. ولذلك، لا يجب أن تصمم أدوات حياتنا بحيث تبدو وكأنها تعاقبنا على الخطأ! والأهم أنها يجب ألا تتجاهل حقيقة كون مستخدمها سيخطئ في استخدامها في وقت ما. فالتصميم الجيد هو ما يتسم بقدرة عالية على استيعاب الخطأ البشري. وتأتي هذه القدرة أولاً من فهم أنماط الخطأ التي يمكن أن يقوم بها المستخدم وقت تعامله مع الجهاز، والتأكد من أن التصميم لا يحتوي على ما يمكن أن يسمح بحدوثه. فمثلاً لا يجب أبداً أن يتم تصميم جهاز مساعد شخصي إلكتروني يتجاور فيه زران متشابهان في الحجم، أحدهما يقوم بإغلاق الجهاز والآخر يقوم بمسح كافة بياناته! كذلك يجب أن يحتوي التصميم على «خط رجعة»، يسمح بإرجاع الأمور إلى وضعها الصحيح بعد حدوث خطأ ما، وأن يكون اكتشاف الخطأ سهلاً، بحيث يظهر فور حدوثه ويتمكن المستخدم من إصلاحه قبل أن تترتب عليه مشكلات أخرى.

ولننظر مثلاً إلى الخطأ الذي يرتكبه سائقو السيارات حين ينسون المفاتيح داخل السيارة. هذا الأمر جعلته بعض شركات السيارات أقل حدوثاً في سياراتها من السيارات الأخرى. وذلك حين صممت الأبواب بحيث لا تغلق جيداً إلا باستخدام المفتاح. وبالتالي، لا يمكن لقائدها أن يغادرها ويغلق الباب إلا والمفتاح في يده. وجود هذه «الجبرية» في التصميم، أزاح من طريق المستخدم إمكانية وقوعه في خطأ يتكرر كثيراً. لكن اللجوء إلى هذا الأمر يتطلب الكثير من الحساسية والذكاء من قبل المصمم، فالجبرية التي تزداد عن حدها، تجعل الجهاز معقداً بالنسبة للمستخدم، وتجعله مزعجاً وعدائياً تجاهه أيضاً. كما حدث في الولايات المتحدة عندما فكر المسؤولون في طريقة جديدة لإجبار سائقي السيارات على الالتزام بحزام الأمان. فقد تم تزويد السيارات بآلية تمنع محرك السيارة من الدوران إلا إذا كان حزام الأمان في مقعد السائق والمقعد المجاور له مثبتين. وقد أثبتت هذه الجبرية كونها مزعجة وكريهة في وقت قصير من بدء تطبيقها، حتى أن أصحاب السيارات ممن لديهم معرفة بالميكانيكا لجأوا إلى إبطالها في سياراتهم. أما الذين يعرفون طريقة لإبطالها فقد احتالوا عليها، فثبتوها بصورة دائمة، ثم أخفوا الحزام المثبت تحت المقعد. ولم يكن ذلك فقط بسبب كون تثبيت الحزام عملية مزعجة بالنسبة للبعض، لكن لأن الآلية الجديدة قيدت حركة مستخدمي السيارة من دون أن يكون هناك ضرورة لذلك. فكانت لا تسمح لمحرك السيارة بالدوران إذا وضع سائقها حقيبته أو أمتعته على المقعد المجاور. لأنها تترجم الوزن الذي تحسه إلى وجود راكب في المقعد الأمامي، وبالتالي تمنع دوران المحرك إلا بعد تثبيت حزام الأمان!

لماذا تفتقد أشياؤنا للتصميم الجيد؟

يقوم التصميم الناجح على التوازن الدقيق بين القيمة

من الضروري أن يتفاعل المصمم مع المستخدم كي نحصل على منتج يحمل حرفية الأول ويتفهم حاجات الثاني..

الاستخدامية، والجمالية، وقابلية التصميم للإنتاج صناعياً. لكن الواقع يقول إن هذا التوازن يتعرض كثيراً للخلل. أحد أهم أسباب هذا الخلل هو انعدام التواصل بين المصمم وبين المستخدم الذي يمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة ينتقل فيها المنتج من العدم، إلى مكانه في المنازل والمكاتب والأسواق. والمصمم ينظر للمنتج أثناء عمله عليه نظرة مختلفة عن نظرة المستخدم له. فالمصمم المحترف يصبح خبيراً بالمنتج الذي يعمل عليه، وينغمس في تفاصيله ودقائقه، إلى الحد الذي يصبح فيه من المستحيل بالنسبة له أن يلتقط الصعوبات الدقيقة التي يمكن أن يعانيها المستخدم، أو المناطق التي يمكنها أن تتسبب في حدوث أخطاء أو «سوء تفاهم» بينه وبين الجهاز. كما أن شرائح المستخدمين المختلفة، هي ذات احتياجات مختلفة، وتترتب أولوياتها بطرق مختلفة، وتقابلها أيضاً صعوبات مختلفة. ولا يستطيع المصمم أن يصل وحده إلى جميع هذه الاعتبارات، ويعمل على أساسها. لهذا فمن الضروري أن تتوافر بيئة مناسبة لتفاعل المصمم مع المستخدم، كي نحصل على منتج يحمل حرفية الأول ويتفهم حاجات الثاني ويلبيها بسهولة.

من المهم أن تسود مجتمع المصممين ثقافة تتبنى هذا التوازن بين القيمتين الاستخدامية والجمالية. فنحن لا نريد أن تمتلئ حياتنا بأجهزة تفتقر إلى الجمال، لكننا لا نريدها وقبل كل شيء، أن تكون عاطلة من العمل!

يحكي المصمم الأمريكي روبرت سمر في كتابه «التصميم الاجتماعي» قصة توضِّح لنا إلى أي حد تفتقد ثقافة التصميم الآن لهذا التوازن. فقد تم تكليف المعماري سام سلون بتصميم المكاتب الجديدة التابعة لهيئة الطيران الفيدرالية في كل من سياتل ولوس أنجلوس. وقد تم الاتفاق على أن تجري عملية التصميم بطريقتين مختلفتين في الموقعين. ففي سياتل تقرر أن يشترك موظفو الهيئة مع المعماريين في تصميم المقر الجديد لعملهم، وأن يتم التنفيذ تبعاً لحاجاتهم وتفضيلاتهم، بينما يسير الأمر في لوس أنجلوس بالطريقة التقليدية حيث يتكفل المعماريون بتصميم المبنى بتفاصيله الكبيرة والصغيرة من الألف إلى الياء. في النهاية أصبح هناك مبنيان مختلفان. أحدهما في سياتل ويحمل الكثير من رؤية الموظفين لما يرونه مكاناً مثالياً للعمل، والآخر في لوس أنجلوس يحمل رؤية المعماريين وحدهم للمكان نفسه.

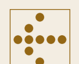
بعد عدة شهور بعد الانتقال إلى المبنيين الجديدين، أجرت الإدارة استطلاعاً للرأي لمعرفة كيف تأثر أداء موظفيها بعد انتقالهم للمباني الجديدة. وأظهرت النتيجة ارتفاع الأداء الوظيفي في مكتب سياتل بنسبة 7%، نتيجة لتوافق المبنى الجديد مع حاجات الموظفين ودعمه لسير العمل بينهم بطريقة سلسة وتلقائية. أما في مكتب لوس أنجلوس فلم يكن لانتقال الموظفين إلى مبناهم الجديد أي تأثير إيجابي على أدائهم الوظيفي. وفي حين كان المبنى الأول هو المفضل لدى مستخدميه، إلا أن الآخر هو الذي حصل على عدة جوائز للتصميم من المعهد الأمريكي للمعماريين!. ويعلل أحد أعضاء لجنة التحكيم عدم فوز مبنى سياتل بكونه: «سكني الطابع ويفتقد إلى الصرامة والتحكم المتوقعين»، وهذا هو بالضبط سبب تفضيل الموظفين له. وإذا كانت هذه هي الرسالة التي يبعث بها صفوة مجتمع المصممين، الذي يمنح الجوائز، ويرسي قواعد التميز في هذا المجال، فلابد أن تعاني الأجهزة والأدوات التي نستخدمها في حياتنا من سوء تفاهم دائم بينها وبيننا.

صورة شخصية



تكاد سيرة سعيد عاطف سعيد أن تكون صورة نموذجية للدور الذي يمكن للأسرة المحبة للعلم أن تلعبه في حياة أبنائها. فالفتى الذي فتح عينيه باكراً جداً على عالم الكمبيوتر وهو في المرحلة الابتدائية، أصبح اليوم كما يظهر من صورته الشخصية التي تعرضها منال أحمد*، راعي صناعة الروبوتات والطامح إلى نشر ثقافتها حتى خارج حدود المملكة.

سعيد سعيد..
وصناعة الروبوت في المنطقة الشرقية



ولد سعيد عاطف سعيد في 23 ديسمبر عام 1973م بمدينة الخبر. وكانت أسرته تقدِّر التعليم وتهتم بتطوير قدرات أفرادها. فكان سعيد في الصف السادس الابتدائي عندما أهداه والده جهاز كمبيوتر حمله إليه من اليابان.

تمكن سعيد من التعامل مع هذا الجهاز الغريب بسرعة، بعدما ألَمَّ بأبجدياته. وعلى الرغم من أن ذاكرة هذا الجهاز لم تكن تتجاوز 32 كيلوبايت، فقد استطاع الفتى سعيد أن يتعلَّم البرمجة بواسطته، وأن يبرمج عليه ألعاباً يصفها اليوم بالبدائية.

* صحافية سعودية

تغيير الاختصاص ولأي سبب؟

في العام 1991م، كان سعيد ينوي دراسة الطب، فالتحق بنظام الابتعاث بأرامكو السعودية. غير أنه فوجئ بأن هذا النظام لا يسمح بابتعاث طلبة الطب إلى أمريكا طالما أن بإمكانهم دراسته في جامعة الملك فيصل، وإنما هو للراغبين بدراسة الهندسة. ولأن سعيد كان يرغب في الدراسة بأمريكا أكثر من أي شيء آخر، فقد قرر تغيير تخصصه، والتوجه إلى دراسة الهندسة الكهربائية «ليس حباً فيها، وإنما فقط للدراسة في أمريكا»، على حد قوله، مضيفاً أن هذا السبب كان غاية في السذاجة.

الروبوت الأول يفوز بكأس العالم

في العام 2000م، وأثناء دراسته لنيل شهادة الماجستير في مجال الهندسة الكهربائية في جامعة كورنيل بنيويورك، نشرت الجامعة إعلاناً عن مسابقة للاشتراك في بطولة العالم لكرة القدم للرجل الآلي. واقترح المشرف على رسالة سعيد أن يشترك تلميذه في المسابقة كجزء من مشروع التخرج.

قُبِل سعيد في الفريق المكون من أكثر من 20 طالباً يدرسون في مراحل واختصاصات مختلفة في الجامعة. وكان على هذا الفريق تصميم رجل آلي

للمشاركة في البطولة العالمية «روبوكوب».

وفي هذا الصدد، يقول سعيد: «شرح لنا المشرف كيفية تصميم جهاز مركب «روبوت»، فقسمنا أنفسنا إلى مجموعات حسب التخصص:كمبيوتر، هندسة، تصميم شرائح إلكترونية، تصميم إدخال المعلومات ..الخ. وكنت المسؤول عن الهندسة الكهربائية، وعن بناء جهاز التحكم بالروبوت تحديداً، ومن ثم انتقلت لأصبح مدير المشروع. وبفضل من الله، أنجزنا العمل، من لا شيء إلى رجل آلي قادر على إنجاز المهمة. وسافر الفريق إلى أستراليا حيث فاز بكأس العالم. ومنذ آنذاك تحولت علاقة سعيد بالروبوت من الدراسة المجردة إلى حالة عشق.

تشجيع الأسرة مجدداً

خلال دورة نظَّمتها أرامكو السعودية حول لغة برمجة معيَّنة، دار حديث حول عدم استغلال القوة الكامنة في أجهزة الكمبيوتر مقارنة باستخدامها للإنترنت. فذكر سعيد كيف أنه تعلَّم أسس البرمجة على الكمبيوتر الذي أهداه إياه والده في صغره، وذكر كيف كان يبرمج عليه ألعاباً كان يصممها بنفسه. فطرح السؤال: «لماذا لا يتم توجيه الأطفال وإطلاعهم على قدرات الكمبيوتر ليتمكنوا من الاستفادة منه حتى أقصى حد ممكن؟».

لمعت في ذهن سعيد فكرة إنشاء مركز للطلاب يعلمهم البرمجة في سن مبكرة. وحمل الفكرة إلى منزل والده: «كانت العائلة مجتمعة. قصصت عليهم القصة وطرحت أمامهم فكرتي، فأثنى الجميع عليها، وقالوا لي اذهب غداً واشترِ ستة أجهزة كمبيوتر.. هيا!... هيا».

وفعلاً، اختار سعيد مكاناً لا تتجاوز مساحته 30 متراً مربعاً في مجمع سكني بسيط، لتبدأ رحلة مركز المواهب بدورة لطلاب المرحلة الابتدائية في تصميم موقع على شبكة الإنترنت، حضرها ابن شقيقة سعيد وابن الجيران فقط.

المركز الصغير ينمو

الإقبال الضعيف على المركز عند إطلاقه لم يحبط سعيد أبداً. بل استمر في بذل جهوده. وتدريجياً راح عدد الطلاب يرتفع بازدياد حماسة الأهالي للفكرة وللمشروع. فازداد عدد الدورات أيضاً.

ويذكر سعيد من الذين دعموا المركز الأستاذة سارة رحيمي من أرامكو السعودية، والأستاذة أريج سعيد التي راحت تقدِّم الدورات نفسها التي يقدِّمها المركز، ولكن لأطفال أصغر سناً تراوحت أعمارهم بين 5 و7 سنوات.

تنوعت دورات المركز لتشمل تخصصات مختلفة. ولما أراد سعيد أن يضيف إليها صناعة الروبوت، تنبَّه إلى أن هذه الصناعة تجمع فعلياً عدة تخصصات. فاستحدث دورة جديدة باسم «برمجة الروبوتات»، مما استلزم إضافة دورات جديدة في الميكانيكا والكهرباء.

أول رجل آلي سعودي

أثناء قيامه ببحث على شبكة الإنترنت، اطلع سعيد صدفة على دوري «فيرست ليغو» ببريطانيا، فقرر المشاركة فيه، وشكَّل لهذه الغاية فريقاً من 10 أشخاص (من زملائه في أرامكو السعودية). وحيث لم يكن هناك أي دوري عربي في هذا المجال عام 2005م، فقد فكر في إقامة مثل هذه المسابقة في المملكة. وفي ذلك العام، انضم فريق من 6 أشخاص إلى مركز المواهب، لدراسة أسس تصنيع الرجل الآلي. وشاركوا لأول مرة، وكأول بلد عربي في مسابقة «الروبوكوب» للأشبال في اليابان.

أما في العام التالي، فقد أقام المركز أول بطولة محلية لدوري «الروبوكوب»، شاركت فيه ستة فرق محلية كانت كلها قد خضعت لدورات تدريبية في مركز المواهب. وقد صور التلفزيون الألماني هذه البطولة. وسافر فريق المركز لاحقاً إلى ألمانيا للمشاركة في بطولة كانت تقام هناك.

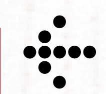
التفرغ للمركز

في أحد الاجتماعات التي قامت بتنسيقها جمعية الخليج للتعليم المؤسسي؛ دار حوار طويل حول التعليم شارك فيه مثقفون ومهتمون بالتدريس، وكان من بينهم سعيد الذي يقول: «قررت حينئذ تحويل المركز الصغير إلى مركز أكبر وأكثر فاعلية. وفي صيف عام 2007م، وفي موسم الدورات، انضم الأستاذ عمرو صالح المدني للمركز، وقررنا سوياً الاستقالة من وظائفنا والتفرغ كلية للمركز وتطويره».

تتركز أهداف المركز في نشر ثقافة الروبوت من خلال عدة محاور من أهمها: رعاية المسابقات العالمية الخاصة بالروبوت كـ «الفيرست ليغو» و«الروبوكوب»، بالإضافة إلى تزويد المدارس الراغبة بمناهج الهندسة الميكانيكية والكهربائية. فالمناهج التي يقدِّمها المركز هي من تصميم العاملين فيه بالاعتماد على الأبحاث المتعلقة بالهندسة الكهربائية والميكانيكية والمنشورة في الإنترنت والكتب الجامعية التي يتم تبسيطها وقولبتها لتتناسب مع طلاب المرحلة الابتدائية.

يبدأ المركز عمله في الثامنة صباحاً، «وعندما يعود الجميع إلى بيوتهم، نعود أنا وعمرو إلى المركز بعد أخذ راحة ساعة زمان وقد نبقى حتى العاشرة مساءً، فلا يوجد أجمل من منظر الطلاب يوم الخميس وهم يفضلون البقاء في المركز على اللعب مع أقرانهم».

من ناحية أخرى، تقدم الأستاذة نعم يماني دورات تابعة للمركز يمكن لأي شخص الحصول عليها من موقع «اليوتيوب» على شبكة الإنترنت كخطوة أولى. فطموح الأستاذ سعيد لا يتوقف على تحقيق الاكتفاء الذاتي بتقديم هذه المعرفة ونشرها على مستوى المملكة ولأبنائها فقط؛ بل يطمح إلى أن يكون المركز نواة لتصدير هذه المعرفة خارجياً بجودة لا تقل عن جودة المنتج الألماني، وبدرجة انتشار لا تقل عن درجة انتشار المنتج الصيني.



لماذا يميل الناس إلى بعض الأغاني والمقطوعات الموسيقية أكثر من غيرها؟ وهل كل ضجيج إعلامي أو رواج شعبي هو مؤشر سليم على جودة أغنية أو معزوفة ما؟ وأكثر من ذلك، لماذا نستمع اليوم إلى أغنيات وألحان أنتجت قبل زمن طويل، في حين أن أغنيات ضجَّت بها الشبيبة ووسائل الإعلام قبل أسابيع معدودة، تبدو اليوم وكأنها اختفت تماماً من الوجود؟

الدكتور فيكتور سحاب يتناول الأنماط الثلاثة الرئيسة في تعامل الناس مع الموسيقى وتقييمهم لها، الذي يتراوح بين ردة الفعل الأولية والدراسة التحليلية المتأنية قبل إطلاق الأحكام.

بين المستمع العادي والناقد والخبير..

كيف نقيّم الموسيقى؟

منال الضويان



حين يستمع الناس إلى أغنية جديدة، تختلف الآراء في العمل الموسيقي كثيراً. أما سبب هذا الاختلاف أو أسبابه، فهي أن لكل مستمع حافزاً للاستماع إلى الموسيقى، قد يختلف عن حوافز الآخرين، ولكل ثقافته وميله واختزانه الفني.

وفي الإمكان، من باب الاختصار، أن نصنّف الناس في تقييم الأغنية أو العمل الموسيقي، إلى ثلاثة أصناف كبيرة.

- الناس الذين يسمعون الموسيقى للتسلية والمتعة الآنية العابرة، سعياً في الترويح عن النفس. وهؤلاء هم العامة الغالبة.
- الناس الذين يشتغلون في النقد الموسيقي أو الإعلام الذي يتعاطى شؤوناً عامة، منها الموسيقى والغناء. وهم قلة مؤثرة في المجتمع وفي آراء العامة من جراء مهنتهم.
- وثمة ناس أعلى مرتبة في مراتب التقييم الموسيقي، هم فئة الباحثين أو الموسيقيين الجادين أو المؤرخين، الذين يستندون في رأيهم إلى عوامل يُفترض أنها موضوعية أكثر من الفئتين السابقتين في الإجمال. وهؤلاء قلة بين القلة.

المستمع العادي
هل يلام على قلة خبرته؟

أما الفئة الأولى، ففيها نسبة عالية جداً من الفتية والفتيات الذين يندر أن تكون لديهم ثقافة موسيقية، أو خبرة في الاستماع، أو أن يكون لديهم إلمام ذو شأن بعوامل التقييم الموسيقي وعناصره. ويغلب على آرائهم حين يُظهرونها، الإعراب عن انطباع أول بعد أن يسمعوا أغنية أو مقطوعة موسيقية. وقد يكون هذا الانطباع ذا أثر عابر، لكن معظم ما يُسمَع من هذه الفئة أنها تظن في المعتاد أن انطباعها الأول هو الرأي النهائي، الذي قد يتغير في الغد. ولا تلام هذه الفئة بالطبع في استعجالها الرأي، ولا تحاسَب في إبداء آراء قد يراها العارفون خاطئة. فالمسؤولية بمقدار المعرفة، في مثل هذه الحال. والعتب على الثقافة العائلية والمنزلية، أو الإعلامية، أو المدرسية المقصّرة.

وفي كثير من الحالات، يكون انطباع المستمع العادي سليماً حتى من اللحظة الأولى، لا سيما إذا كان قد نشأ في بيت أو بين صحب يسمعون الموسيقى الجيدة، وقد تدربوا على



سيد درويش وعبدالوهاب، حداثة لم تعد تثير جدلاً

التمييز السليم بالسليقة والحس الفني العفوي، بين الغث والسمين، فيما يسمعون، من دون أن تكون لديهم بالضرورة معرفة بالعناصر العلمية أو الذوقية التي تؤهل المرء لإبداء رأي أقرب إلى «الصواب».

دور المناخ الاجتماعي

لكن كثيراً ممن يصنّفون في هذه الفئة، يتأثرون، لا سيما في سن المراهقة، بمظهر مغنٍ أو وسامته أو قَصة شعره، وما إلى ذلك. وفي كثير من الأحيان تكون العوامل الاجتماعية أو السياسية ذات أثر في انحياز مستمعين شبان، فيغلب على رأيهم تعظيم أعمال فنية، لأسباب ليس منها الجودة الموسيقية. فمن العوامل الاجتماعية المنطقة أو البيئة المدرسية، ومن الأسباب السياسية الانتماء إلى حزب ما. وفي أحيان كثيرة شهدت الساحة الفنية موضة موسيقية كاسحة، من أهم عوامل شيوعها التحول التاريخي الاجتماعي، مثل ظهور الأمريكي إلفس بريسلي، بعد الحرب العالمية الثانية، أو ظهور فريق الخنافس «البيتلز»، عند تقلص السلطة الإمبراطورية البريطانية، بعد حرب السويس. لقد كان الجو العام في هاتين الحالتين مهيئاً بل تواقاً لتغيير ما في المزاج الموسيقي، عبَّر عنه نَفَسَان جديدان، فرحب الجيل الجديد، فيما كان الجيل القديم أشد تحفظاً. لم يكن أنصار بينج كروسبي أو فرانك سيناترا مستعدين للتغيير، الذي عبر عنه بريسلي في الولايات المتحدة، لكنه فرض نفسه، بعوامل اجتماعية وتاريخية لا تقاوَم. وذلك تماماً ما حدث في فرنسا، بعد الحرب العالمية الثانية، حين انزوت لوسيان دو ليل أو اعتزل موريس شيفالييه، وظهر في الجيل الجديد جورج براسان ثم إيف مونتان وجيلبير بيكو وإديث بياف وبعدهم شارل أزنافور وجاك بريل، مستفيدين من تعبيرهم عن

مزاج العصر، بعد الحرب العالمية الثانية، فيما كان عصر ما بين الحربين ذا نكهة أخرى.

للتاريخ بابان يدخل منهما العمل الموسيقي: الزمن والقدرة على مجالدته

لقد حظي الشيخ سيد درويش بانتشار واسع لدى الجمهور العربي، منذ البداية. لكن لا بد من الاعتراف بأن بعض انتشاره، بل كثيراً منه، كان لأسباب اجتماعية وسياسية وتاريخية، وأن قيمته الموسيقية انتظرت بعض الوقت لتحظى بالاعتراف الأكاديمي والفني والتاريخي الذي تستحق. وكان لمرحلة سعد زغلول والنهوض الوطني في مصر، مع ظهور مرحلة طلعت حرب، أثر ولا شك في بزوغ فجر محمد عبد الوهاب وأم كلثوم بمزاجهما الفني الجديد، بل ان ظهور وسائل انتشار غربية حديثة، مثل الإسطوانة والإذاعة ثم السينما، أسهم كثيراً في دعم هذا الانتشار بأدوات شديدة الجدوى. غير أن الزمن أعاد فيما بعد تقييم هذين الفنانين التاريخيين، فأنصف فنهما لفنهما بالذات، ونفى القول إنهما موضة وتنقضي، مثلما ستنقضي موضة إثر أخرى فيما نسمعه اليوم من غناء.

إننا نظلم الجيل الجديد إذا عممنا بالقول إن كل جيل جديد ينحاز لأسباب غير موسيقية إلى أعمال غير ذات قيمة موسيقية. فكم مرة ظهر في التاريخ، في كل العصور وفي كل الشعوب، موسيقيون شبان، اشتقوا طريقاً عبقرية، خرجت على المألوف والتقليدي، فانقلب عليها المحافظون، والتف حولها الشبان من التواقين إلى تعبير طازج، وثبت فيما بعد أن النمط الجديد هذا كان مفترقاً خطيراً وعظيماً في الفن. ويُروى الكثير في المقاومة الشديدة التي واجهها الشيخ سيد درويش، لدى إدارة معهد الموسيقى الشرقي، لأسباب سياسية، إذ كان معارضاً للملك فؤاد الأول، لكن مصطفى رضا بك وصَفَر علي، وكانا من الأعيان والمسؤولين في الوقت نفسه عن المعهد، كانا أشد معارضيه الموسيقيين. وقد واجه تلميذه محمد عبد الوهّاب فيما بعد، معارضة هؤلاء الشديدة، لا لمواقف سياسية، بل لتجديده في الموسيقى، وكانوا محافظين متشددين.

وفي أوروبا، يسجل تاريخ الموسيقى الكلاسيكية أن موتسارت وبيتهوفن لم يكونا يحظيان بحماسة كبيرة لدى شرائح معينة من المستمعين، المتمسّكين بالأساليب التي سبقت من الموسيقى الكلاسيكية، في موسيقى فيفالدي وباخ. بل ان بيوتر تشايكوفسكي، كبير الموسيقيين الكلاسيكيين الروس، الذي مات في سنة 1893م، لم يحظَ باعتراف



أم كلثوم، حوربت أولاً قبل أن تستقر في مكانة فوق كل نقد



جمهرة النقاد الغربيين، إلا في منتصف القرن العشرين. وحتى في روسيا نفسها، كان بعض النقاد في عصره، يصفون بعض أهم أعماله بأنها «عادية» أو حتى «متصنّعة». وحين قدم سمفونيته الأخيرة السادسة، قابلها الجمهور في عرضها الأول، بصمت وفتور وعدم فهم، ومات تشايكوفسكي بعد 9 أيام، ثم أعيد تقديم هذه السمفونية بعد 20 يوماً، فلقيت استقبالاً حماسياً، وخلدت في سجل الموسيقى رفيعة المستوى.

والمشكلة في هذه الحال، هي أن كثيراً من الموسيقيين غير الموهوبين، صاروا اليوم يتسترون بهذه الحجة ليزعموا أن التاريخ سينصفهم، أي أنهم مثل سيد درويش أو تشايكوفسكي، فلا تدري إن كان التاريخ سيقف إلى جانبك أم إلى جانبهم.

ومع تحفظنا هذا، ينبغي ألا ننحاز لكل رأي يبديه الجيل الجديد في ترحابه بموسيقي ناشئ أو إشاحته عنه، فهذه الفئة من الناس (أي المستمع العادي) هي مبدئياً، أقل الفئات اتباعاً للمعايير المعتمدة في التقييم الموسيقي، حين تنحاز إلى هذه الموسيقى أو تلك. وإذا كان رأيها ليس خاطئاً في كل الأحوال بالطبع، فإنه لا يؤخذ به على أنه الباب الرسمي إلى دخول أي مؤلف موسيقي التاريخ. فللتاريخ بابان يدخل منهما العمل الموسيقي: الزمن والقدرة على مجالدته، وهذا صراع لا نعرف نتيجته النهائية اليوم، ولا بد من الانتظار، ثم العنصر العلمي الذي يجيد فهمه مؤرخو الموسيقى ودارسوها الجادّون، أكثر من غيرهم.

النقَّاد والإعلاميون

يروي تاريخ الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية كثيراً من الحوادث ظهرت فيها روائع خالدة، فنعتها النقاد بأقذع الصفات، على أنها لا تستحق الترحاب والتقريظ، أو قابلها الجمهور بالإشاحة أو الرفض. ففي حادثة تاريخية، مطلع تشرين الأول/أكتوبر 1917، غنى الشيخ سيد درويش بين فصول مسرحية للشيخ سلامة حجازي، وكان استقبال الجمهور باهتاً، بل مُعرِضاً. فخرج الشيخ سلامة ليؤنب الجمهور على موقفه، وقال قوله الشهير إن الشيخ سيد سيكون خليفته على عرش الغناء.

والحقيقة أن كثيراً من النقاد الموسيقيين يستحقون كل احترام، لأنهم يوفرون مادة أولية ضرورية لمؤرخي الموسيقى، بوصفهم الموضوعي وتقييمهم المضيء. لكن هؤلاء قلة، منهم كامل الخلعي وقسطندي رزق، في أوائل القرن العشرين، وكمال النجمي، في نصفه الثاني. وصار الناقد الموضوعي الذي يستحق أن يؤخَذ مرجعاً، أقل من القلة، لا سيما في عصر انتشار الأدوات الإعلامية الفضائية، إذ صار إنتاج البرامج واستقبال الفنانين، بما «يقتضيه» الإنتاج من مسايرة وملاطفة، بل ومهادنة وربما تزلف، بعيداً جداً عن معايير التقييم المتجرد الصريح والموضوعي.

فـي النصـف الأول مـن القـرن العشـرين، مثال شـديد الوضـوح، هو قصـة مصطفى القشاشـي، صاحب مجلة «الصـباح»، مع محمـد عبد الوهّاب. إذ يقـال إن المجلة أنشئت لغرض واحد هو مهاجمة المطرب الناشـئ عبد الوهّـاب في سـنة 1927م، أو علـى مقربـة من هـذه السـنة. وقامت المجلة بالمهمة «خير» قيام، إلى أن تحوّل صـاحبها إلـى مصـادقة عبـد الوهّـاب، فتحوّلـت المجلة إلى الدعاية للموسـيقار الشاب. كذلك تروى قصـة أم كلثوم التي صـارت المجـلات الفنية تلوك سـمعتها، بتحريض قيـل إن وراءه منيـرة المهدية، التي خشيت صعود المطربة الشابة وخطر مزاحمتهـا على عرش الغناء. فـي كلا الحالين لا يمكن الركون إلى نقد موسيقي موضوعي.



النقد الذي يرتقي إلى مرتبة التأريخ هو الدارس للعمل الموسيقي في كل مكوناته، ولعلاقته بالمجتمع الذي نشأ فيه

أما في النصـف الثاني من القرن العشـرين، فالمشكلة هي أنك تكاد لا تجـد بين النقاد الفنيين من يؤخذ برأي له، إلا تحت عدسـة مجهر كشّـاف. وفي أحسـن الحـالات، تحفل المجـلات الفنية بصـور وروايـات، لكنها نـادراً ما تحتوي نقداً موسـيقياً، يُعتَدّ به. صـارت الصـداقة بين الصحافي والفنـان، هي المعيار الذي تقاس بـه قيمة الناقد، لا النقد نفسه وتجرده من الغرض. وكلما توثقت العلاقة بين الكاتب والفنان، ازداد احتمال انحيازه وابتعاده عن التقييم السليم للموسيقى، وتحسنت مكانته لدى صاحب المجلة أو الوسيلة الإعلامية، لأنه «مقرّب» من الفنان. والقرب من الفنان، في المبدأ، هو الصفة التي يجب أن تكون موضع تحفظ وخشية على «الموضوعية».

ومن أسـباب تقلص قيمة النقد الموسـيقي، أن تزايد عدد المجـلات والإذاعـات والأقنيـة التلفزيونية، أخـل بميزان العرض والطلب، في سوق الكتابة الفنية. فصار عدد الكتَّاب المطلوبيـن لمـلء صـفحات الفن في المجلات أو سـاعات البـث الإذاعي أو التلفزيوني، أكثـر بما لا يقاس من الكتَّاب المؤهليـن، أو الذين يمكن تأهيلهـم بالوتيرة الطبيعية، في المعاهـد والمؤسسـات التربويـة التي تخرّج النقـاد. وأدى اشـتداد الطلب حتى صـارت هذه المعاهد نفسها تستعجل تخريـج طلابهـا، وتختصـر في برامجهـا جرعـة الثقافة الغزيرة المطلوبة للمهمة النقدية.

المؤرخون والخبراء للموضوعية والتحليل العلمي

التاريخ هو الحدث، فمن دون حدث لا تاريخ. وهذه العبارة تشـرح كل شـيء في أسـاس الفرق بين النقد السليم في الفـن، وبيـن النقـد المنحـاز الفاقـد القيمـة. فالحدث المركزي في التاريخ الفني أو النقد الموسـيقي، يجب أن يكـون الأغنية أو المقطوعة الموسـيقية. والناقد الجاد أو المـؤرخ هو الذي يبني نقده أو روايته التاريخية على محور أساسي، هو تقييمه الأغنية أو المقطوعة، لا على صداقته أو عداوتـه لهذا الفنـان أو ذاك، ولا علـى أي معيار آخر، مثل مصـالح حزبـه أو بلده أو مجلتـه أو محطته الإذاعية أو التلفزيونية.

هذا شرط ضروري لكنه ليس شرطاً كافياً بالطبع. فالتقييم السـليم للموسـيقى، أي التقييم الذي يُدخل كلام قائله في مرتبة التأريخ الفني أو في مصاف النقد الجاد، لا بد له من التجرّد عن كل غرض سوى الغرض الفني. لكن بعد هذا، ما المطلوب ليكون ثمة نقد موسـيقي جيـد، وتأريخ فني يقاوم مر الزمن؟

إذا استعرضنا الكتابة الفنية التي تحتويها خزانتنا التأليفية، أو خزانة الشعوب الأخرى، ولا سيما أوروبا التي كان لها باع طويـل في النقد والتأريخ الموسـيقيين، فإننا نجد أن النقد الـذي ارتقى إلى مرتبة التأريخ، هو ذلك النقد الذي انطلق من مبدأ معالجة الحدث لا العلاقة الشخصـية، ليحلل هذا الحدث، أي ليدرس العمل الموسـيقي فـي مكوناته البنيوية والاجتماعية والتعبيرية وعلاقة كل هذا بالمجتمع الذي نشأ فيه هذا الفن.

وفي تاريخ الموسـيقى العربية أمثلة لا تحصـى في هذا. وسـأكتفي بمثال بعيد زمنه، منعاً لتحريك أي حساسـية. فإذا تصفحنا الصحف المصـرية الفنية والسياسية في العقـود الثلاثـة الأولى من القـرن الميلادي العشـرين، لوجدنا اسماً شائعاً، يطريه الصحافيون الفنيون بسخاء، هو منصـور عوض، في المرحلة التي كانـوا فيه كثيراً ما يُغفلون اسـم موسيقي آخر، اسـمه سيد درويش. ذلك أن منصـور عوض كان مديراً فنياً في شـركة «بيضـافون»، وكان التقرب منه مسـألة «ضـرورية» في نظر الصحافة ومصـالح الجريـدة أو المجلـة. أمـا التقـرب من سـيد

درويش، فمسألة موسمية في أحسن الحالات، ولا تحتاج إلى التملق. ومع ان لمنصور عوض فضلاً لا ينكَر في المجتمع الفني، في الموقع الذي كان يحتله، إلا أن أحداً اليوم لا يذكره، فأين ذكره من ذكر الشيخ سيد درويش؟

لنجاح لحن أو أغنية أسباب لا يكون النقد أو التأريخ جيداً إذا لم يشرحها

حين ينقضي زمن، ويصير الفنانون في دنيا الحق، وتزول كل المصالح والصداقة والعداوة، فما الذي سيبقى من نقد اليوم، سوى ذلك الذي ابتعد عن الشخص، واقترب من الموضوع؟ أليست تلك الكلمة (الموضوع) هي أصل النسبة: الموضوعية؟ أوليست الموضوعية هي الضمان الأول لمعرفة القيمة التي نبحث عن قياسها الصحيح، حين نكتب في النقد الموسيقي؟

لقد عالجت أهم المؤلفات النقدية الأوروبية على الخصوص: الشكل والمضمون وتطور الفكر الموسيقي وعناصر السبيكة الموسيقية في العمل. كذلك عالجت علاقة هذه المؤلفات الموسيقية بالتاريخ القومي والمزاج العام، وتطور الآلة الموسيقية وأثر هذا التطور في المؤلفات نفسها. وحين عولجت حياة الموسيقيين وسيرهم، فإنما عولجت من باب أثرها في الموسيقى نفسها، لا من باب «الحدوتة» أو من باب تحقير موسيقيّ ما لتعظيم آخر. وفي كثير من الحالات كان للكتابة الجادة في نقد الموسيقى، أثر حاسم في توجيه التربية الموسيقية، لأن المؤرخين الجادين كشفوا في هذه السيرة أو تلك، سر نبوغ يرتكز إلى تربية معينة، آتت ثماراً منشودة.

ولنضرب مثلاً، من أجل التوضيح والاختصار. إنه مثل في النقد الموسيقي الذي يتناول الشكل الموسيقي: في عشرينيات القرن العشرين، كتب أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة عامية هي: «في الليل لما خلي»، فلحنها محمد عبد الوهّاب، وكانت فتحاً موسيقياً أسهم في جانب من التحول التاريخي الذي شهدته الموسيقى العربية. هل يكفي أن المستمع أحب الأغنية لنقول بخلودها؟ لا نظن ذلك. فلخلود هذه الأغنية أسباب أخرى، لا يكون النقد أو التأريخ جيداً إذا لم يشرحها.

وإليكم بعض هذه الأسباب:
لقد كتب شوقي القصيدة في 15 بيتاً، فجعل لكل ثلاثة أبيات قافية. وبذلك صارت القصيدة خمسة أجزاء، من حيث شكل الشعر. فماذا فعل محمد عبد الوهّاب حين هم بتلحين القصيدة؟

قسم عبد الوهّاب القصيدة هو أيضاً إلى خمسة أقسام التزاماً بشكلها الشعري، فجعل الأبيات الثلاثة الأولى مرسلة بلا إيقاع، وموصولة غناءً لا لازمة موسيقية فيها بين البيت والبيت. وفي الأبيات الثلاثة الثانية جعل اللحن مرسلاً أيضاً، لكنه أضاف بين البيت والبيت التالي لازمة موسيقية تفصلهما. في الأبيات الثلاثة التالية أدخل الإيقاع، وجعل اللوازم الموسيقية بين الأبيات على آلتين موسيقيتين، وفي الأبيات الثلاثة الرابعة عزفت اللوازم الموسيقية آلتان موسيقيتان أخريان. وفي القسم الخامس والأخير، بلغ الذروة في التفكير الموسيقي، إذ قسم المقدمة الموسيقية التي بدأت بها الأغنية، وجعل أقسامها لوازم موسيقية بين الأبيات في القسم الخامس هذا. وإذا أضفنا إلى كل هذا عظمة التعبير الغنائي وجمال الألحان، فإن الإطراء لا يعود سخياً على الإطلاق، بل مستحقاً تماماً.

ذلك نمط منشود من التقييم السليم في الموسيقى، لأنك حينئذ تكون قد تناولت «الموضوع» ومكوناته، وأظهرت الجهد البنيوي فيه، ورقي التفكير الموسيقي، إضافة إلى الجمال الذي قد يلمسه المستمع العادي. وهذا مثال، لكن الأمر لا يقتصر على هذا الجانب بالطبع، في أي تقييم. فثمة أمور موضوعية كثيرة تتعلق بالشكل والمضمون، وكل عناصر تكوين العمل الموسيقي. وذلك أمرٌ شرحه يطول.

ضيف العدد

عبد الرحمن ثامر

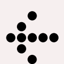
من مواليد مدينة الخبر عام 1979م. درس هندسة النظم الصناعية، ولكن خلف الهندسة تختبئ موهبة شعرية يكاد صاحبها أن يعتم عليها تواضعاً، وربما ضناً بها إلا على مستحقي الاطلاع عليها، جرياً على عادة كل المجيدين الجيدين. فكان يكتفي بنشر كتاباته في مواقع متخصصة على شبكة الإنترنت، علماً بأنه أقام عدداً من الأمسيات الشعرية في المملكة وخارجها. واقتناعاً من القافلة بوجوب اطلاع أكبر عدد ممكن من القرَّاء على ذائقة عبدالرحمن ثامر وموهبته الشعرية، كانت دعوتها إليه لكتابة هذا الباب.



الشعر أرواح اجتمعت في حرف



هو كما قال جبران: «إنما الشعر كثيرٌ من الفرح والألم والدهشة مع قليل من القاموس»، وهو كما لم يقله جبران. الشعر نبضٌ يُحسُّ ولا يوصف، الشعر أرواحٌ وأرواحٌ وأرواحٌ اجتمعت في حرف، والشعر نوعان، رغم كل شيء، الشعر عزفٌ ونزف، عزفُ قلبٍ يطربُ وعينٍ تُعجَب ونزف روحٍ مجروحةٍ وحياة مقهورة.



الشعر الحقيقي تهتز له الخلايا وترتجف له العين وترتعش له الكف، وكما قيل:

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه
فليس حريًا أن يقال له شعرُ

الشعر مسيرة الروح على الأرض وكتاب القلب المفتوح من أول حرفٍ إلى نقطة نهاية سطر الحياة.

****

امتدت روح الشعر فكان أحمد بن الحسين، كان أبو الطيب المتنبي شاعر العربية وفارسها الأول، هو المثال الأول والأوضح والأعلى للشعر وروحه. وقد كان يسبح في كل ما تلمحه عيناه وتتخيله روحه، وقد تجلَّى وتجلَّى حينما اجتمع الرثاء والحب والوفاء والصداقة في حرف واحد، في حرفه المرسل من الكوفة مع حمامة الصدق إلى سيف الدولة ولأجل خولة الراحلة عنهم جميعاً:

يا أُختَ خيرِ أخٍ يا بِنْتَ خيرِ أبٍ
كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أشرَفِ النّسَبِ
أُجِلُّ قَدْرَك أنْ تُسْمَيْ مُؤبَّنَةً
وَمَنْ يَصِفْك فَقد سَمّاكِ للعَرَبِ
لا يَمْلِكُ الطّرِبُ المَحزُونُ مَنطِقَه
وَدَمْعَهُ وَهُمَا في قَبضَةِ الطّرَبِ

ولأنه أراد غير ما سمع فقد فزع آملا إلى الكذب، ولما لم يجد مساحة غير التصديق شرق بالدمع وشرق الدمع به:

طَوَى الجَزِيرَةَ حتى جاءَني خَبَرٌ
فَزِعْتُ فيهِ بآمالي إلى الكَذِبِ
حتى إذا لم يَدَعْ لي صِدْقُهُ أمَلاً
شَرِقْتُ بالدّمعِ حتى كادَ يشرَقُ بي

ويلتهب فؤاده ويطول الليل عليه أكثر من غيره، ويقول محمود شاكر عند هذا النبض: «فليس يطول الليل على شاعر من أجل أخت أميره، وإنما يطول من أجل حبيبته التي فاته بها الموت»:

أرَى العِرَاقَ طَوِيلَ اللّيْلِ مُذ نُعِيَتْ
فكَيفَ لَيلُ فتى الفِتيانِ في حَلَبِ
يَظُنّ أنّ فُؤادي غَيرُ مُلْتَهِبٍ
وَأنّ دَمْعَ جُفُوني غَيرُ مُنسكِبِ

ويأبى الشعر إلا أن يجري على لسان أبي الطيب وأن يجعل فيه أسباب كل شيء، أسباب الحب والحزن والحياة والموت والوفاء:

وَلا ذَكَرْتُ جَميلاً مِنْ صَنائِعِها
إلاّ بَكَيْتُ وَلا وُدٌّ بِلا سَبَبِ
قَد كانَ كلّ حِجابٍ دونَ رُؤيَتِها
فَمَا قَنِعتِ لها يا أرْضُ بالحُجُبِ
وَلا رَأيْتِ عُيُونَ الإنْسِ تُدْرِكُها
فَهَلْ حَسَدْتِ عَلَيها أعينَ الشُّهُبِ

****

وامتدت روح الشعر فكان الملك الفارس الشاعر المعتمد ابن عبّاد ملك إشبيلية وكانت أميرة الحب والسيدة الكبرى ورفيقة الفرح والحزن اعتماد الرميكية. جمعهما الشعر وربطهما الحب ورافقهما الوفاء، فهما بيت شعر مكتمل حقيقة لا مجازاً، كان المعتمد الصدر وكانت اعتماد العجز، ففي لحظات تنزّهٍ مع صاحبه ووزيره الشاعر ابن عمّار على ضفاف نهر قال المعتمد وهو مأخوذ بمشهد الماء:

حاكت الريح من الماء زرد

وطلب من ابن عمّار أن يكمل فتوقف ابن عمّار، والتفتت اعتماد من بين جوارٍ يملأن الماء عند النهر، التفتت التفاتة الربيع للدنيا مكملةً البيت:

أي درعٍ لقتالٍ لو جمد

ليجدها وتجده على غير ميعاد ولتبدأ قصةٌ تشبه إلى حد الألم قصةَ الأندلس، ومن جميل ما قاله المعتمد في زوجته وقد جعل حروف (اعتماد) اسمها ابتداءً لأوائل الأبيات:

أغائبة الشخص عن ناظري
وحاضرة في صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون
ودمع الشؤون وقدر السهاد
تملكت مني صعب المرام
وصادفت ودي سهل القياد
مرادي لقياك في كل حين
فيا ليت أني أعطى مرادي
أقيمي على العهد ما بيننا
ولا تستحيلي لطول البعاد
دسست اسمك الحلو في طي شعري
وألّفت فيه حروف اعتماد

وبعد أن دارت بهما الأيام ونُزع ملك إشبيلة من يده على يد ابن تاشفين، أُخذ المعتمد أسيراً إلى أغمات في المغرب ومعه رفيقة دربه اعتماد وبعض أهله، قضى سنين أسر وقهر طويلة، ورحل الملك الأسير عن الحياة بعد أن رحلت حبيبة قلبه قبله، وأمر أن تُكتب رائعته التي رثى بها نفسه على قبره ومنها:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي
حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت
بالخصب إن أجدبوا بالريّ للصادي
بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا
بالموت احمر بالضرغامة العادي
بالدهر في نقم بالبحر في نعم
بالبدر في ظلم بالصدر في النادي
ولم أكن قبل ذاك اليوم أعلمه
أن الجبال تهادى فوق أعواد

ويكون الدهر شاهداً والدنيا ناظرة، وتتمثل الأيام في جسد الشاعر لسان الدين بن الخطيب حين ترك وراءه حدائق الأندلس وكل ما فيها يتغنى بموشحه:

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس

ليقف في أغمات المغرب على قبر المعتمد منشدًا:

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات
رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا
ويا سراج الليالي المدلهمات
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه
إلى حياتي لجادت فيه أبياتي

****

وامتدت روح الشعر فكان شاعر المهجر الأكبر إيليا أبو ماضي، شاعراً غاص في النفس الإنسانية، بكى معها وشدا لها وأشار بيده إلى منظر الشروق كي تنظر معه. يصف إيليا صاحب الحرف من وجهة نظر قلب شاعر:

هو من نراه سائرا فوق الثرى
و كأنّ فوق فؤاده خطواته
إن ناح فالأرواح في عبراته
وإذا شدا فالحبّ في نغماته
يبكي مع النائي على أوطانه
و يشارك المحزون في عبراته
وتغيّر الأيام قلب فتاته
ويظلّ ذا كلف بقلب فتاته
هو من يعيش لغيره ويظنّه
من ليس يفهمه يعيش لذاته !!!

كان إيليا داعياً للجمال وراسماً لوحاته بألوانه فيقول في رائعته:

أيّهذا الشّاكي وما بك داء
كيف تغدو اذا غدوت عليلا؟
إنّ شرّ الجناة في الأرض نفس
تتوقّى، قبل الرّحيل، الرّحيلا
وترى الشّوك في الورود، وتعمى
أن ترى فوقها النّدى إكليلا
هو عبء على الحياة ثقيل
من يظنّ الحياة عبئا ثقيلا
والذي نفسه بغير جمال
لا يرى في الوجود شيئا جميلا

ويقول في نفس مسار روح التفاؤل والبسمة:

قال السماء كئيبة! وتجهما
قلت: ابتسم يكفي التجهم في السما!
قال: الصبا ولى! فقلت له: ابتسم
لن يرجع الأسف الصبا المتصرما!!

وتملّكت فكرة التفاؤل ورؤية الجمال كلّ إيليا حتى صار يرى بأن الحزن على الموت يجب أن يكون حزناً رقيقاً قريباً من سماء السكون، فيقول من وجهة نظر حزن شاعر:

أنا إن أغمض الحمام جفوني
ودوَى صوت مصرعي في المدينة
وتمشّى في الأرض داراً فداراً
فسمعتُ دويّه ورنينه
ورأيت الصّحاب جاثين حولي
يندبون الفتى الذي تعرفينه
لا تشقي عليَّ ثوبك حزنا
لا ولا تذرفي الدموع السخينة
غالبي اليأس واجلسي عند نعشي
بسكون، إنّي أحبَّ السكينة

****

وامتدت روح الشعر فكان محمود درويش ، كان الوطن والغربة والطفولة والحب والحرب، وكان فوق ذلك كله الأم والأب. جعل درويش كل أحد يحن إلى خبز أمه وإلى قهوة أمه على الطريقة الدرويشية فيقول:

أحنّ إلى خبزِ أمي ..
وقهوة أمي .. ولمسة أمي ..
وتكبر فيَّ الطفولة
يوماً على صدر يوم
وأعشق عمري لأني
إذا متّ، أخجل من دمع أمي!

ويكون الأب وجرحه وقوداً لدرويش وسبباً كافياً لامتداد روح الشعر فيه، اليتم والحزن يشعل حروفه والناس لا يعلمون:

لململتُ جرحَكَ يا أبي
برموش أشعاري
فبكت عيون الناس
من حزني ... ومن ناري
وغمست خبزي في التراب ...
وما التمست شهامة الجار!
وزرعت أزهاري
في تربة صماء عارية
بلا غيم... وأمطار
فترقرقت لما نذرتُ لها
جرحاً بكى برموش أشعاري!
عفواً أبي!
قلبي موائدهم
وتمزقي... وتيتمي العاري!

****

وامتدت روح الشعر..
وامتدت روح الشعر..
وستمتد إلى نقطة نهاية سطر الحياة.


عليا
وحارة المواويل
محتضناً عامود إنارة..
منتظراً أن تشرق عليا
تنزل عليا من شقتها
ليس هنالك أي جديد
مازالت في نفس الحارة
البقالة والبقال
وأبو "ميسور" الحمّال
يحمل زيتاً..
يحمل همّاً
ويجر حروف الموال
(دا الصبر أمره طال
وشر بعد وقف الحال
ياللي معاك المال
برضو الفقير له رب كريم)
تتخطى عليا بهدوء..
وجع الأرصفة المنهارة
مازالت في نفس الحارة
عين "شريف" تنهش عفة "أم سعيد"
تصرخ "أم سعيد" صمتاً
يملأ عالمها الموجوع
وسعيد بين ذراعيها..

ديوان الأمس ديوان اليوم





جوع
هامشيون محطمون ينتظرون

في عالم الروائيين العرب، هناك حفنة منهم ممن زرعوا البهجة في قلوب القرَّاء بحنينهم الجارف إلى الريف وبساطته، فأضفى هذا الحنين على كتاباتهم لمسة تكاد تجمعهم في مدرسة روائية مستقلة.

هشام بن الشاوي * يقرأ لنا رواية الأديب المصري محمد البساطي «جوع» التي كانت قد وصلت إلى القائمة القصيرة للروايات المرشحة لنيل جائزة «بوكر» (Booker) العربية.

* ناقد من المغرب



في رواية «جوع»، يعود محمد البساطي إلى بئره الأول، القرية، مستودع الحكايا الآسرة، منحازاً إلى عالمها الأثير، عالم الهوامش البشرية.. راصداً معاناة أسرة مصرية بعيداً عن الكتابة الميلودرامية.

يكتب البساطي برهافة سردية عن عالم قاسٍ هو عالم الجوع، وعن البطش وقسوة الفوارق الاجتماعية.. يكتب عن جوع أسرة إلى الخبز وحاجتها إليه وإلى المعرفة والحب والأمان. والمتابع لكتابات الأستاذ محمد البساطي سيلاحظ بأن المكان في أعماله الإبداعية ليس مجرد خلفية أو ديكور، وإنما «شخصية روائية» رئيسة وفاعلة.

المكان وأبطاله

تبدأ الرواية بالآية القرآنية: «ادخلوها بسلام آمنين»، التي تزيِّن عادة البيوت الريفية في مصر بعد عودة أصحابها من الحج. وهي هنا لا تزال تزيِّن باباً من الخشب السميك.. «اللون مازال زاهياً، والكلمات رغم السنين مكتملة الأطراف. الولد الصغير في البيت كان يرعاها. هو لا يفك الخط، إنما أعجبه شكلها. منذ تفتحت عيناه على الدنيا يراها كلما هم بدخول البيت. كان يتسلق الباب لينظفها من الغبار ويغسلها بخرقة».

وبعدسة سردية محايدة، يصف الكاتب بؤس المكان من الداخل، بأقل الكلام. وليكسر هيمنة السارد العارف بكل شيء، ولينوع زوايا الرؤية، لجأ البساطي إلى تقسيم السرد إلى ثلاثة مشاهد-حركات: من وجهة نظر الزوج زغلول، ووجهة نظر الزوجة سكينة وأخيراً الابن الأكبر زاهر.

جوع وترقب الفرج

نرى الأسرة التي تستيقظ فجراً، وهي تتضور جوعاً.. سكينة تجلس على المصطبة والصغير رجب ينام على ساقها. ينتظران بزوغ الشمس، طلوع النهار، (معادل جمالي وموضوعي لانتظار الفرج والأمل في يوم جديد...)، لكي تذهب عند إحدى جاراتها تستلف رغيف الخبز. وزغلول «يسلِّك أسنانه» لينبهها إلى ضرورة البحث عما يسد الرمق.

ومن خلال تدفق السرد نعرف بأن زوجها كسول «يعمل يوماً ويبطل عشرة». تماماً مثل شخصية الأب في رواية «لحس العتب» لخيري شلبي.. ورغم الفاقة يهوى زغلول السهر في «المعزى»، يساعد في جمع الكراسي ويتطوع لحمل أفرشة العرسان.

وتتذكر سكينة حادثة تحطم (الدولاب)، والذي اعتبره العريس المتطير فألاً غير حسن. ولا ينسى الكاتب اقتناص بعض الحوادث الطريفة، فبعد أن امتنع الحمالون الأربعة عن حمل (الدولاب) خشية أن يتحطم وتتكرر المأساة، تطوع زغلول لحمله بعد أن خلع جلبابه، وسرواله ممزق من الخلف. حاولت زوجته تنبيهه والبعض يداري ابتسامته، فابتعدت غارقة في خجلها.. ولا يبدو على زغلول التعب والتوجع إلا حين يعود إلى البيت، تسأله سكينة عن الأجرة:

«- وعلى كده قبضت حاجة؟

- أستغفر الله. ثواب يا ولية. ثواب.

- ثواب؟ يعنى مافيش حاجة؟

- حاجة إيه يا ولية. بقول لك ثواب.

- وأولادك برضه ثواب.

- ولادي؟ مالهم ولادي يا بنت الـ...».

رغم أن الزوج يجيد عدة مهن هامشية، فإنه لا يستقر في عمله. يغادر المقهى، بعد أن يشتمه أحد الزبائن أو صاحب المقهى. وبوصول بعض الطلبة إلى القرية في الأجازة سيعجب بأحاديثهم، ويتبعهم منصتاً إليهم. إنه الفلاح الساذج الأمي الذي يذهب إلى لقاء الشيخ رضوان أستاذ الفقه والشريعة بالجامعة، وصاحب محل القماش ومشاريع أخرى، والذي يمثل قلة مرفهة ترفل في النعيم... لكن زغلولاً رغم فقره المدقع يتمتع بنقاء داخلي، لا يحقد على أحد ولا يفكر في التكسب بطريقة غير مشروعة.. إنه يبحث فقط عن إجابات لأسئلة تؤرقه تتعلق بالإيمان لدى الشيخ رضوان.. يتحدث ساهياً وهو ينبش الأرض بعود قش، (إشارة إلى نبش المسكوت عنه)، ولم يحس إلا والشيخ يفاجئه برفسة، والكثيرون يتطوعون للمشاركة في حفلة الضرب.



«جذبه الشيخ وكفه الممتلئة مرفوعة تتأهب لصفعه، بإصبعها الوسطى خاتم بفص كبير، سطع لحظة في ضوء الشمس، وهمست المرأة المليحة وكانت تقف بباب المحل:
– ذهب عيار 24. لمعته. أعرفه ولو على بعد مترين».

بمهارة قناص، يشير محمد البساطي إلى الكف الممتلئة والخاتم الذهبي الذي يلمع، ثم الصدر الأعجف والجلباب البالي. ولم يهتم زغلول بالضرب والألم. فقط كان يصيح منبهاً إلى أن جلبابه سيتقطع... ويغادر المكان رافضاً بكبرياء وأنفة قطعة الثوب.

وحين رأى الحاج عبدالرحيم –والاسم غني بالدلالات– وهو يكاد يقع من فوق البغل بسبب سمنته الشديدة ساعده، رأى في الواقع فرصة لأمل يشرق على حياته... ويشترك الحاج عبدالرحيم مع خديجة، التي تمتهن دق الطبول، في إحساسهما الحاد بالوحدة وحاجتهما إلى البوح، ويتميز عنها بطفولة قلبه وعفويته اللتين تفيضان عند وقوفهما بجوار شجرة التوت:
«– التوت .آخر مرة أكلته كان عمري عشر سنين.
قفز زغلول وتسلق ساق الشجرة، وصاح الحاج:
– طب خد منديل.
أخذ زغلول المنديل منه وعاد للصعود، راح يتنقل في خفة بين الفروع والحاج يرقبه والضحك على وجهه، رجع زغلول بالمنديل ممتلئاً، ورفعه مفتوحاً إلى الحاج الذي قال:
– آكل النص. وأنت النص.
– تاكله كله. أنا ياما كلت منه.
– طيب. أسيب لك حبتين بس.
كان يضحك ويهز قدميه مغتبطاً، وبعد أن انتهى قال:
– ارم المنديل. بقع التوت. لو شافته العجوز موش حانخلص من لسانها».

المشهد الثاني..
سكينة وديون الرغيف

عند موت الحاج عبدالرحيم، تمنع العجوز زغلول من رؤيته. تعود الأسرة إلى الجوع والحرمان، ويبدأ المشهد الثاني. ينطلق هذا المشهد من نفس اللقطة الانتظارية. فيتعرف القارئ على سكينة التي تتحمل أعباء أسرتها المهمومة بديون الرغيف. ها هي تراقب البيت الكبير وتهفو إلى دخوله، وتذكرنا معاناتها بالرواية الفاتنة لمحمد البساطي «فردوس» (هذه الرواية التي تتناص مع رواية «امتداح الخالة»، وفي ترجمة أخرى: «في مديح زوجة الأب» للبيروفي ماريو بارغاس يوسا)، تلك المرأة الجميلة التي تكابد في صمت... لكن معاناتها لم تكن الجوع والفقر وإنما الحرمان العاطفي، بعد أن احتكرت ضرتها القبيحة الزوج، وهي التي تفتن كل الأهالي بأناقتها وجمالها، ولكن زوجها هجرها لأنها لم تنجب بعد سنوات خمس من الزواج.

كانت سكينة (اسمها يشي باستسلامها وقدريتها)، تتوق إلى دخول البيت الكبير. وحين أفلحت في اقتحامه، وقع غطاء المصباح الزجاجي أرضاً، وهي تساعد الخادمتين في حمل (البوفيه). لم تهتم بالدم النازف من إصبعها، وفوجئت وهي ترمي شظايا الزجاج بجوار الحائط في الخارج بالباب يغلق، ونظرت غير فاهمة قائلة: «مفيش وراهم غير قفل الباب».

وفي معزى البيت الكبير بعد وفاة السيدة، تطوع زغلول للخدمة، وطلبت منه السيدة وداد أن يبلغ رسالة شفوية همساً إلى رجل كان خطيبها. ولما اعترض زغلول على طلب الرجل منه نقل كلام إليها وطلب منه أن يبلغها كلامه بنفسه، فاجأه الرجل المحترم بصفعة وغادر. أما سكينة فقد عاملتها الخادمتان كما لو كانتا من أصحاب البيت، تقوم بكل أشغالهما، وهما تستمعان إلى الأغاني وتأكلان متقمصتين دور «السيدة».

تنتقل سكينة مع أسرتها لتعيش في البيت الكبير. لأن الحاج هاشم، كان يحتاج إلى من يرعاه بعد رحيل الزوجة وإحساسه بالوحدة. وتنعم أسرتها بأكل وفراش نظيف...



ومثلما انتهى المشهد الأول بموت السيد، وقبل أن يغادرا البيت، تقول سكينة لزغلول بعد تفكير: «كنا أكلنا لقمة قبل ما نخرج».

الانتظار أيضاً للبدء بتجربة الابن زاهر

وتعود كاميرا السرد إلى وضعية الأسرة نفسها وهي تنتظر طلوع النهار على المصطبة، يبدأ (فلاش باك) آخر مع تجربة الابن زاهر، والأم تتحسر على أيام البيت الكبير والإهمال الذي طاله بعد رحيل أصحابه.

زاهر سيرث الفقر، الجهل وهموم البحث عن لقمة عيش... فبعد عجز سكينة عن سداد الدين ها هي ترسله إلى فرن عباس لإحضار «العيش الميري». وفي أول زيارة للفرن، طلب عبده الفران من زاهر أن يكنس الفرن ثم يأخذ ما يريد من كسر الخبز المعوجة أو التي احترق جانب منها. فيملأ حجر جلبابه بالأرغفة ويهرول بها في اتجاه البيت. وبسبب العيش الذي يعطيه عبده الفران للنسوة المعدمات، يعنفه المعلم عباس صاحب الفرن. فيقرر عبده الفران أن يغادر القرية.. أما صديقه عبدالله فكان يدلي له الطعام من فوق السطح.. لكن زاهراً لم يكن يعلن عن بهجته بالأكل، مثلما يفعل سعد في «فردوس»، حين يعثر على الطعام في بيت زوجة أبيه فردوس، بعد أن صارت أخواته يلتهمن نصيبه من الطعام في الليل.. فيتسلل إلى بيتها، وتفلت منه الصيحة حين يعثر على الطعام:

– «مهلبية يا خالة.مهلبية. وثلاثة أطباق. يا قوة الله».

ويجهز على أكلها الذي تخزنه لليوم التالي، حتى تستريح من الطبخ.. وزاهر يكتفي بوضع ما يعطيه صديقه عبدالله في جيبه، ويتلمسها بيده وهو في الطريق، ولا يأكله إلا بعد ابتعاده، بيد أن والد صديقه حين يرى زاهراً يعنفه ويصفعه أمام أهل الحارة، ويحذره من الاقتراب من البيت، وهو ما يعتبر أقسى نوع من الإقصاء الاجتماعي. وتتكرر مأساة امتهان الكرامة، ويتمزق جلباب زاهر بسهولة، ويطلب إحضار جلباب له:

«رماه الأب على كتف زاهر:

– خد. بدل الخرقة اللي انت لابسها.

وتراجع خطوتين ونفض جلبابه. وكان يتأهب للعودة حين رمى زاهر الجلباب على الأرض وابتعد، ولاحقه صوت الأب:

– شوفوا ابن ...».

وتتضاعف خسارة زاهر.. يفقد الأمل بفقدانه عبده الفران وصديقه عبدالله دفعة واحدة، مثلما حدث لوالده وأمه برحيل الحاج عبدالرحيم والحاج هاشم.. ويختم السارد



روايته بتسليط عدسته السردية على سكينة في وضعيتها نفسها، فوق المصطبة، وأشعة الشمس تلوح في الأفق والندى بدأ يجف، وزاهر يتجنب النظر ناحيتها، حتى لا تطلب منه إحضار العيش من الفرن بعد رحيل عبده الفران. وزغلول يمص عود القش، والصغير في حضنها.

الماضي والحاضر متعاقبان كالليل والنهار

«جوع» رواية تنحاز إلى عالم الهوامش البشرية، وترصد ما تكابده الطبقات المسحوقة من امتهان لكرامتها وآدميتها في سبيل الحصول على لقمة العيش في مجتمع قمعي طبقي وظالم.. ولأن الكاتب غير مولع بلعبة الشكل، على غرار ما يعتقده القائلون إن الرواية استنفدت كل أغراضها، فقد حاكى الشفهي والشعبي، بلغة دقيقة مكثفة إيحائية، تبتعد عن البهارات والزخارف، تتخللها كلمات من العامية المصرية وظفها باحترافية. واستخدم المونولوج والتداعي الحر المتداخلين مع السرد والوصف والحوار.. للتعبير عن الشرخ الداخلي للشخوص، وللانتقال السلس بين المشاهد السردية، كما وظف ببراعة وتناغم تقاطع الزمن الماضي مع الزمن الحاضر. الزمن الماضي ممثلاً في الاسترجاعات التي تكسر خطية السرد، والزمن الحاضر الذي يمتد منذ استيقاظ الأسرة فجراً حتى طلوع النهار، ولم يلجأ إلى التلاعب بهما وخلط أوراقهما، بل جعلهما يتعاقبان مثل الليل والنهار، ينسابان في هدوء في مجرى المحكي، وهي التقنية الأجمل في المعمار الروائي لهذه الرواية الفاتنة كسائر رواياته.



«جـــوع»..
مقتطفات من الرواية

الزوجة...

سكينة في قعدتها على المصطبة، ضاقت من انتظار طلعة النهار، الشمس بانت والناس ما زالوا نياماً، ولا دبّة قدم واحدة في الحارة، هي لا تستطيع أن تنتظر، مغص الجوع خفّت وطأته، يشتد في البداية، مثل ما يجري في شهر الصوم، تتحمّل الأيام الأولى في صعوبة، وجع البطن ودوخة، يومان أو ثلاثة وتروح الأوجاع، الواحد وما يتعوّد، وأكثر أيام رمضان تصومها دون سحور، ما يقلقها الولد الكبير، الصغير من نظرة واحدة تعرف ما يعانيه، وحتى من غير نظرة، كلما قرصه الجوع لبد فيها، تتحرك وهو يكاد يلتصق بها، وعندما يراها تقعد يحوم حولها ثم يتمدد ورأسه على ساقها، الكبير احتارت معه، من شهور ووجهه يتلون، يوماً ذابل، ويوماً يسترد عافيته، ما عاد يقترب منها ويتمسّح فيها حين يشتد به الجوع كما كان يفعل. وفي قعدته يشرد، تناديه مرتين أو ثلاثاً إلى أن ينتبه لها، وأوقات وهو في شروده يسيل اللعاب من ركن فمه، وتقول ربما عنده ديدان في بطنه، ولو كان ظنها صحيحاً لن يصبر على الجوع، الديدان حين لا تجد ما تأكله تنهش مصارينه. وزغلول في دنيا أخرى، والكلام معه لا يفيد، هو في قعدته بالطرف الآخر من المصطبة كفّ عن تسليك أسنانه، والآن يمصّ عود القش.

سمعت صرير باب، تعرف الصوت ومن أين يأتي، البيت الكبير، في هذا الوقت الباكر تحضر البنتان، كبيرتان بما يكفي للعمل في البيت. لا تعرفهما، تعيشان في الطرف الآخر من البلدة، تراهما لحظة دخولهما وتسمع ضحكتهما ثم يغلق الباب.

لا يبعد البيت الكبير كثيراً عن بيتها، ثلاثين خطوة، وحوله خلاء واسع أوقف زحف بيوت الأهالي الصغيرة باتجاهه، كما لو أن هناك خطّاً غير مرئي لا يجوز أن تتخطاه، برضاها أو رغماً عنها لا أحد يعرف، ويقال إن الحاج هاشم صاحب البيت الكبير يملك الأرض الخلاء، اشتراها يوم اشترى أرض البيت، قطعة واحدة، شيّد البيت وسطها. ومن وقت لآخر يأتي من يكنس الخلاء ويرشه بالماء.

أصحاب البيوت الصغيرة يزهون بالاقتراب منه، تزاحموا في الصفوف الأولى دون أن يتركوا فراغاً كافياً بين البيوت، مجرّد ممرات ضيقة يسع الواحد منها الحمار لو رفع راكبه ساقيه فوقه، يتمتعون بالخلاء والنسمة الطرية التي تأتي منه حتى في عز الصيف، كما يسمح لهم موقعهم الأمامي بمشاهدة زوّار البيت الكبير من أهل المدن، أحياناً سيارات، وحناطير إذا جاؤوا من المراكز القريبة والنساء يلبسن فساتين قصيرة وأحذية بكعب ورؤوسهنّ عارية من غير طرحة. (...)

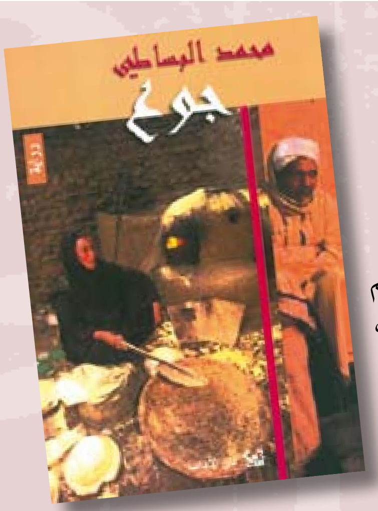
بيت سكينة في الوسط، اختارت مكاناً على المصطبة لقعدتها حيث يتخذ الفراغ في الصفوف الأولى من البيوت خطاً مستقيماً بامتداد بصرها، فترى واجهة البيت الكبير، والباب، والداخل والخارج.

البيت بلون وردي، اللون الذي تستريح له سكينة عن أي لون آخر، وتمنّت أن يكون لها لباس منه، وفي بالها عندما يتوفر قرشان في يدها أن تشتري القماش وتفصله.

رأت سكينة البيت عندما كان داراً واحداً وعلى جانبيه صفّان من أشجار الكافور العالية، ثم تتكاثف في الخلاء وراءه. الآن أصبح دورين، الدور الثاني لم يأخذ وقتاً طويلاً في بنائه، بدا مهيباً بعد أن اكتمل، لونها الوردي الذي تحبه كان زاهياً في الفضاء لا يحجبه شيء عن عينيها، ويحلو لها ساعة المغربية أن تنظر إليه وظلال أشجار الكافور تتحرك فوقه.

انتظرت بعد أن انتهى بناؤه أن ترى وجوهاً في شرفته الكبيرة أو نوافذه العريضة الخضراء، فلم ترَ أحداً، وتمضي الأيام والشهور ولا أحد. ظلّ خالياً. هم في البيت الكبير على ما يبدو اعتادوا المعيشة بالدور الأرضي؛ حتى البنتين والولد – والذي أضيف الدور الثاني لإقامتهم حين يأتون في الإجازات، كانوا يفضّلون حجراتهم التي عرفوها من صغرهم.

ما تعرفه عن البيت عرفته بالسمع. حوش كبير، أرضه مدكوكة على جانبه خمس حجرات. حجرة الخزين، وحجرة للولد، هو لم يعد ولداً، يعمل مهندساً، وتزوج ويقيم في إحدى المدن على مسافة مائتي كيلومتر، وحجرة لكل من البنتين، هما أيضاً تزوجتا، واحدة طبيبة والأخرى مدرِّسة في الثانوي، والاثنتان تقيمان في مدينتين مختلفتين، الحجرة الخامسة للست الكبيرة. الحوش يفتح عن طريق



ممر صغير على صالة واسعة لقعدة الزوّار، أرضها من البلاط الملوّن وبطرفها المنحني حجرة الحاج.

من دخلن البيت يحكين ما رأينه من فرش ومقاعد ودواليب وأسرّة من النحاس، ولا يحكين عن أهله. بائعة البيض. وتاجرة القماش التي تأتي بطلبات خاصة للست الكبيرة، وأم خالد أيضاً، تقوم بخدمات لنسوان الأعيان والموظفين، تنظّف أجسادهنّ من الشعر، تظهر أمام البيت الكبير حين تأتي بنتا الحاج وزوجة الابن في إجازة.

ودّت سكينة أن تدخل البيت وترى بعينيها ما سمعت به، وفكّرت في ألف سبب وسبب، وكل مرة تكون في الخلاء تذهب وتأتي أمام الباب المغلق. حاولت مع البنتين اللتين تعملان هناك، اعترضت طريقهما أكثر من مرة أثناء عودتهما، وفتحت معهما الكلام، والبنتان تتمهلان قليلاً، وتنظران إليها وتواصلان طريقهما دون أن تردّا، وبعدها كانتا حين تلمحانها مقبلة عليهما تدخلان أول حارة تقابلهما وهما تضجان بالضحك.

واحدة منهما تخرج كل يومين أو ثلاثة في الضحى وبيدها ربطة كبيرة، سكينة تعرف الربطة، رأتها أكثر من مرة، خرقة ممتلئة بالكراكيب، وتتعجّب من كثرة ما يرمونه، تمضي البنت بالربطة الى كومة هدم خارج الخلاء وتفرغ الربطة، وتعود والخرقة بيدها، وتكون سكينة نادت على ابنها الصغير، وما إن تدخل البنت البيت وتغلق الباب حتى تطلقه الى كومة الهدم:

– بص كده. رموا إيه النهاردة.

ويمضي الولد، ويعود بزجاجات وبرطمانات فارغة، وحين تتجمّع كمية منها ترسله بها الى السوق، هناك دائماً من يشتريها.

ويوماً رجع من تفتيش الكراكيب ومعه مكحلة خالية، كان شكلها جميلاً لم تر مثلها من قبل، احتارت أن تبيعها أو تحتفظ بها. هي لا تتكحّل، وخطر لها أن تعيدها للبيت الكبير، لا بدّ أنها سقطت سهواً وسط الكراكيب. الخاطر يلحّ عليها، لفّت الطرحة حول رأسها وذهبت، فتحت واحدة من البنتين الباب، الأخرى جاءت متمهلة، مدّت سكينة رأسها ونظرت مبهورة إلى الداخل، أشياء كثيرة هنا وهناك، لا تستطيع في نظرة خاطفة أن تلمّ بها، وانتبهت على سؤال البنت عمّا تريده؟

قالت سكينة إنها تريد أن ترى الست هانم.

– وعايزاها في إيه؟

– عايزاها في حاجة.

مال رأس البنت جانباً، وبانت في عينيها نظرة غير مريحة. قالت:

– حاجة إيه.

وسكينة لا تريد أن تعادي البنتين، فتحت قبضتها عن المكحلة وقالت:

– كانت بين الكراكيب.

– آه. ما أنا اللي رميتها. مخرومة.

– رميتيها؟ افتكرت راحت غلط. طيب.

وعادت بنظراتها إلى داخل الحوش، ولم تمهلها البنت، قالت بغلظة:

– انت بقى اللي بتفتشي الكراكيب كل مرة.

– أبداً. ولا بشوفها. هي المرة اللي كنت هناك وشفت المكحلة.

أغلق الباب وراءها. غير أن البنت كشفت نفسها، لا بدّ أنها توصي أحداً من بيتها ليقلّب في الكراكيب، وعندما يذهب لا يجد ما يستحق، يسبقه دائماً ابن سكينة، البنتان تخرجان دائماً وأيديهما فارغة، لا تريدان أن تحملا معهما شيئاً حتى لو كان مكسوراً أو عديم الفائدة، فقد يظن أحد في البيت أنهما تخفيان شيئاً ذا قيمة، فكّرت سكينة وفكّرت.. ما أسهل أن يدسّا بين الكراكيب ما ترغبان فيه، ستنبّه على ابنها أن يفتشها مرتين وثلاث، وربما راحت إليها بنفسها، وكانت على يقين من أن المكحلة سليمة، وفي البيت ملأتها بالماء، ورأت غير مصدّقة الماء ينبثق من خرم بها.

– طيب. حتى لو مخرومة. نسّد الخرم بأي حاجة.

ورمتها في ركن الحوش بين أشياء أخرى.

وذات يوم كانت في مشيتها هناك، لمحت الباب مفتوحاً، أسرعت ودخلت، فوجئت بعد أن تخطّت العتبة بالابنة الكبيرة، المدرّسة، عرفت أنها هي مما سمعته عنها، طويلة، شديدة النحول، جلد على عظم، والصدر، حبتا



ليمون صغيرتان، ووجهها ممصوص، تلبس الروب فوق جلباب البيت، اضطربت سكينة من نظرتها. قالت:
- الباب مفتوح. قلت. أي خدمة يا ست هانم.

نظرت الابنة الى البنتين متسائلة، قالت واحدة منهما:
- ساكنة هناك.
وأشارت نحو البيوت.
وقالت الابنة: كتّر خيرك.

سكينة ظلّت واقفة كأنما صعب عليها أن تغادر بعد أن دخلت، عدّلت من وضع الطرحة حول رأسها، كانت تنظر إليهن ويبادلنها النظرات، استدارت في بطء، توقعت أثناء خروجها أن تسمع من يناديها، ولم تسمع غير صوت إغلاق الباب، وقالت لنفسها:
- دايماً كده، يقفلونه.

لم تتوقف محاولاتها، تحوم حوله، عندما يتوافر العيش بقفص الجريد عقب الخبيز، والكل شبعان، تخطف رجلها إلى هناك، تمشي قليلاً بين شجر الكافور، وتزيح بقدمها أوراق الشجر الجافة.
- ولا حدّ يكنسه.
وترمق الدور الثاني ونوافذه الخضراء المغلقة:
- الواحد فوق يشوف البلد كلها، غير الهوا اللي يردّ الروح، ويسيبوه كده فاضي.
وتجمع أغصاناً صغيرة متساقطة ترمي بها جانباً، وتعود إلى بيتها.

ويوماً رأت الباب مفتوحاً، ترددت. الابنة الكبيرة سافرت! ظلت في ترددها ومشيتها المتمهلة، أصوات عالية تأتي من الداخل، وضحكات البنتين، غمغمت:
- هوه فيه إيه؟
مرت أمام الباب ونظرت، ما رأته جعلها تزيح الطرحة عن رأسها وتندفع الى الداخل وكلامها يسبقها:
- عنك أنت وهي، رجل البوفيه كده تتكسر.

البنتان تزيحان البوفيه الثقيل من مكانه، تحاولان نقله إلى ركن الحوش، والست الكبيرة واقفة ملتفة بروبها وشعرها الرمادي عقدته من الخلف بشريط أسود، وجهها هزيل تشوبه صفرة خفيفة.

سكينة في اندفاعها لمست بالكتف مصباحاً مطفأ كان على طاولة قريبة، ترنّح المصباح وكاد يسقط، لحقت يدها به، غير أن بنورته هوت وأحدث تهشمها صوتاً.

انحنت سكينة قائلة:
- خليك بعيد يا ست هانم. خليك بعيد.
راحت بكفها تكنس الزجاج المتناثر وتكوِّمه، القطع المدببة جرحت يدها وسالت منها قطرة دم، رمقتها خطفاً واستمرت تلم الزجاج ثم جرفته إلى حجرها، رفعت ذيل جلبابها وقالت:
- دقيقة أرميه.

خرجت. أفرغت حجرها بجوار الحائط، وكانت تنفضه حين سمعت صوت الباب يغلق، استدارت ونظرت نحو الباب غير فاهمة:
- مفيش وراهم غير قفل الباب.
بعدها خاصمت البيت الكبير، لم تعد تذهب إلى هناك، ولا ترقب بابه، واستمر خصامها لأكثر من شهر حتى جاء يوم سفر الخزين.

كانت تكنس الحوش وسمعت ضجة السيارات تدخل الخلاء. قالت:
- زغلول. الخزين يا زغلول.
وجاء زغلول من رقدته في المندرة، انحنى في وقفته على المصطبة حتى استطاع أن يلتقط خطاً مستقيماً من الفراغات بين البيوت، ورأى العربات الثلاث نصف النقل تقف وراء بعضها بعضاً أمام باب البيت الكبير.

سكينة أخذت قعدتها وقالت:
- هي العربيات نفسها.
وزغلول عاد الى الحوش، وسحب رغيفين كاملين من قفص الجريد، وتربّع في المكان الذي اختبر الرؤية منه، ووضع الرغيفين في حجره، وسكينة رأت الرغيفين ولم تبرطم كعادتها:
- ما كفاية رغيف ... الأولاد!

انتظر حتى ابتعدت نظراتها عن الرغيفين، وامتدت يده وكسر واحداً في رفق فكتم صوت الكسر، خشي أن يسأل عن غموس ولم يبرد بعد أثر سحبه للرغيفين. هي قالت

من نفسها:

– فيه حتّة خيار مخلّل. تلاقيها في الشبّاك.

قفـز رافعاً حجـره بالعيش، حفرة صـغيرة مربعة في جدار الحوش مغلقة بباب من الخشـب، فتحه وأخذ المخلل وكان ملفوفـاً في ورقة، وتحسّـس جوف الحفـرة، أحياناً يكون به طبق فيه لحسة عسل أسود تخفيها للولدين، لمست يده ورقة أخرى بها فتات جبن نشـفت أخذها أيضـاً، وورقة ثالثة بها قليل من السكر المخلوط بالشاي، أعادها للحفرة. تحفظها لتعمل له كوب شاي حين لا تكون في غضبها.

عاد لقعدته بجوارها. المرة السادسـة التي يشـاهدان فيها سـفر الخزين. كل أربعة أو خمسـة شـهور تسـافر العربات الثـلاث محملة إلى الولد والبنتين كل في مدينته. هو يعرف الكثيـر عمـا تحمله العربات، تصـادف مـرة وكان يمر من هناك أن ساعد في تحميلها.

رأيا العربة الأولى وقد أنزلوا جوانبها الثلاثة.

وقالت سكينة: تقول العربية دي لمين من الأولاد؟

– نشوف الحاجة اللي حاتشيلها الأول. وكله زي بعضه.

– لأ. الولد بيفرق. فاكر؟ العسـل الأبيض أكثر من البنتين، والحمام. شـايف قفص الحمام؟ أول حاجة يحطّوها في العربية.

– يبقى دي عربية ابنه. عايز يشدّ حيله.

– طب وأنت يا زغلول. عمرك ما أكلت حمام وحيلك مشدود على الآخر.

ومالت وضربته خفيفاً على كتفه. قال زغلول:

– وقفص بطّ. وفراخ. يا قوة اللّه. المرة دي قفص سمان.

– وعرفته إزاي؟

– شفته مرة، أصغر من الحمام.

– وأكلت منه؟

– أبـداً. اللي أكلوه بيحكـوا. لحمه ناعم وحلـو. وبيعمل في الراجل عمايل.

مالت قليلاً نحوه: بيعمل إيه؟

– وأقول لك ليه. كفاية اللي عندك.

(...)

ودفعته خفيفاً من كتفه. وقال زغلول:

– وصـفيحة الجبن. والعسل الأبيض. والعسـل الأسود. كل واحد شايل صفيحة على كتفه. ويوم ما ساعدتهم شيلوني الصفيحتين. وزلعة السمن، والزبدة.

– وياكلوا الحاجات دي كلها. ده كام شهر. أربعة؟

– هـم وحبايبهـم هنـاك. ودي صـفيحة إيه؟ يمكـن جبنة قديمة. وقفص مانجة، وجوافة.. وقفص إيه ده يا سكينة؟ حاجة ما أعرفهاش.

– ولا أنا أعرفها.

– وقفص جوّاه قش. دا البيض.

– وشـوال الـرز أهـه. المـرة اللي فاتـت جابوه فـي الأول. وشـيكارة العدس. والفول المدشوش، الشيكارة مخروقة، والفول بيقع. كنت حاسة أنه الفول.

– وقع كتير. طبعاً يرجّعوا. الكيـس. حايخيّطوه، واحد بيلمّ اللي وقع في حجره، حايحطه في الكيس.

– ويعملوا إيه هناك بالفول المدشوش.

– بصارة. أهل البندر على ما أسمع يحبوها قوي.

– ويعرفوا يعملوها.

– عندهم بنت أخذوها من البلد.

– واللّه وفكّروني. نفسـي أعملها. آخر مرة كانت من سـنة. ويومها أكلت لوحدك طبقين.

– شـفتي العربيتيـن بتـوع البنتيـن؟ ولا قفص حمـام. ولا سمان. يبقى الحاج موش راضي عن الراجلين.

– ويمكن موش راضي عن البنتين.

– آه يا سكينة. كل ده يطلع منك.

– أنا كنت قطة مغمضة لغاية ما عرفتك.

قول آخر

في التذكير والتأنيث العربية هي الأدق

الدكتور محمود الذوادي*

إن الدقة التعبيرية تمثِّل إحدى الوظائف المهمة التي تؤديها عملية التأنيث والتذكير في الأنساق اللغوية. فكلما ازدادت مستويات التأنيث والتذكير في لغة ما ازدادت درجة دقة تعبيرها في هذا المجال. فالإنجليزية، لا نكاد نعثر فيها على ظاهرة التذكير والتأنيث بينما تشمل عملية التأنيث والتذكير في اللغة العربية كل المستويات تقريباً. ومن هذا المنطلق فاللسان الإنجليزي هو بالتأكيد أقل دقة في التعريف بالجنسين من اللغتين العربية والفرنسية. فعلى سبيل المثال، إن ضمير الجمع بالإنجليزية في حالة الغائب «They» يستعمل للإناث والذكور مثله مثل ضمير الجمع «Sie» في اللغة الألمانية. فالمستمع الذي

* عالم اجتماع، جامعة تونس

تشمل القواعد التي تستعملها الأنساق اللغوية العديد من المسائل، من بينها مسألة قواعد التأنيث والتذكير. ونقتصر هنا على مقارنة هذه القواعد في كل من العربية من جهة والإنجليزية والفرنسية والألمانية من جهة أخرى.

تتبنَّى هذه اللغات مواقف من قضية التذكير والتأنيث لأسماء الكائنات الحية والجامدة على حد سواء:

1 - فالإنجليزية لا تكاد تهتم على الإطلاق بعمليتي التأنيث والتذكير كما نجد ذلك في اللغات الثلاث الباقية. فمعجمها لا يذكر لا التذكير ولا التأنيث أمام الأسماء. وبعبارة أخرى، فإنها تلتزم الصمت الكامل بالنسبة لتذكير وتأنيث الأسماء.

2 - أما في اللغتين العربية والفرنسية فأسماء الكائنات الحية والجامدة تكون إما مذكرة وإما مؤنثة. وبالتالي فهما تقرَّان بظاهرة الازدواجية الذكورية الأنثوية.

3 - وبالنسبة للغة الألمانية فموقفها من التذكير والتأنيث يجمع في الحقيقة بين موقفي الإنجليزية من جهة والفرنسية والعربية من جهة أخرى. أي أنها تؤنث وتذكِّر الأسماء، من جهة، وتلازم موقف الحياد (أي لا تؤنث ولا تذكر) إزاء بعضها، من جهة أخرى.

تباغته جملة بالإنجليزية أو الألمانية تبدأ بأحد هذين الضميرين لا يمكنه التعرف على جنس أفراد المجموعة المشار إليهم. بينما تسمح لغة الضاد في حالة الجمع على التعرف بدقة على جنس المجموعة وذلك لوجود ضميري جمع للمؤنث (هن) والمذكر (هم). وبعبارة أخرى، فإن شمولية عملية التأنيث والتذكير تعطي النسق اللغوي قدرة أكبر على مد المستمع بمعلومات أكثر حول جنس الآخر المتحدث عنه أو المخاطب.

فحضورنا لمكالمة هاتفية بين شخصين نعرف فيها بسهولة جنس المتحدث أمامنا ولكننا لا نعرف جنس المخاطب على الطرف الآخر لأننا لا نراه. ولكن هذا صحيح إذا كانت المكالمة الهاتفية بين فردين يتحدثان بالإنجليزية أو بالفرنسية أو الألمانية أو بخليط من هذه اللغات. والأمر يصبح مختلفاً تماماً لو أن المكالمة الهاتفية كانت بالعربية الفصحى. في هذه الحالة يتعرف المستمع بكل سهولة على جنس المخاطب في الطرف الآخر غير المرئي. أي أن الناطقين بالعربية لا يحتاجون إلى رؤية الآخر المخاطب للتعرف على جنسه الذكوري أو الأنثوي.

وبعبارة أخرى، فإن اللغة العربية تكتفي بعملية السماع للتعرف على جنس المخاطب الخفي كما هو الحال في المكالمة الهاتفية المشار إليها هنا. أما المستعملون للغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية فهم لا يقدرون على معرفة جنس المخاطب بالاعتماد على حاسة السمع فقط. ومن ثم فهم يضطرون للاعتماد على حاسة البصر.

هذا التميز للغة العربية في التأنيث والتذكير يجعلها أكثر اللغات تأهلاً، في عصر الاتصالات السمعية المكثَّفة بين الأفراد عبر القارات، للتعرف على جنس المخاطب. وفي ذلك رصيد معلوماتي للمستمع الناطق بالعربية لا يتوافر لنظيره في اللغات الثلاث الحديثة.

ولا يخفى على المرء الدور الإيجابي الذي تلعبه وفرة المعلومات عند بني البشر بخصوص تعاملهم مع محيطهم الصغير والكبير بكل مكوناتهما.



البحر

تقف على الشاطئ، أي شاطئ، وتتطلع، فترى مساحة رتيبة تمتد حتى آخر ما يطاله نظرك.. قد تكون هذه المساحة ساكنة، أو مائجة قليلاً أو كثيراً، ولكنها تبقى هي نفسها هنا وهناك وهنالك.. حتى تبدو وكأنها تخلو من أي متغير أو طارئ أو خطاب. ومع ذلك، فعلى هذه الصفحة الزرقاء التي لا يدرك البصر نهايتها كُتب القسم الأكبر من تاريخ الإنسانية وليس من معالم ثقافتها وحضارتها وتطورها فقط. حتى أن كلمة «البحر» أصبحت مرادفاً للضخامة، ضخامة العدد، ضخامة المساحة، وللإشارة إلى كل ما يصعب قياسه أو حصره. فهل يمكن لـ **فريق القافلة** أن يحصر في هذا الملف بصفحاته المحدودة كل هذا العالم الشاسع وحضوره الكبير في تاريخ الإنسانية وثقافتها؟ إنها مجرد وقفة تأمل على الشاطئ.

Corbis



يقول الروائي إبراهيم الكوني في «خماسية الخسوف» إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا بجوار البحر، سواء أكان هذا البحر من الماء أو من الرمال. ولأن النوع الأول من البحار هو موضوعنا في هذا الملف، فإننا بلحظة تأمل سريعة نستطيع أن نتأكد من صحة هذا القول.

فقد قامت المجتمعات البدائية في العصور الحجرية القديمة على ضفاف الأنهر. ولكن الحضارات الكبرى قامت لاحقاً على شواطئ البحار أو في مناطق داخل اليابسة ذات منفذ على البحر. وكأن هذا البحر الذي كان موطن الخلايا الحية الأولى قبل 3500 مليون سنة يبقى شرطاً ضرورياً لاستمرار الحياة وتطور الحضارة الإنسانية.

فقبل آلاف السنين اكتشف الإنسان في البحر مصدراً للطعام. فلم يبتعد عنه حتى عصرنا هذا الذي نصطاد فيه أكثر من 90 مليون طن من الأسماك سنوياً. وخيرات البحر لا تقتصر على الأسماك، بل تشمل ما يستحيل إحصاؤه بين اللآلئ الصغيرة وحقول النفط العملاقة. وكلاهما معروفان بتاريخهما وحاضرهما في منطقة الخليج.

وقبل آلاف السنين اكتشف الإنسان أن البحر يمكنه أن يكون سبيلاً للسفر أسهل من الطرق البرية الوعرة، فصنع زوارقه الخشبية البدائية والبسيطة. واليوم، يستمر الإنسان في تطوير وسائل النقل هذه مسخراً لها كل ما توصلت إليه العلوم والصناعات وصولاً إلى الأقمار الاصطناعية وأكثر برامج الكمبيوتر تطوراً.

ولأن البحر هو مورد رزق وهو صلة الوصل بين الحضارات والمجتمعات والثقافات (أو الميدان الفاصل ما بينها)، فقد صاغ، عبر آلاف السنين هذه، أنماط العيش على شواطئه. فكان شأناً يومياً في حياة المتعاملين معه مباشرة مثل البحارة والصيادين، وكان أيضاً الميدان التاريخي الذي قضى على بعض الحضارات، وأقام أخرى بدلاً منها. وما بين هذا وذاك، يتغلغل البحر عميقاً في تأثيراته داخل اليابسة حتى يصل إلى الحياة اليومية لأي إنسان في أي مكان من العالم تقريباً. سواءً تمثل هذا التأثير في «علبة سردين» أو في استعمال الوقود الذي شحن من منابعه بواسطة الناقلات البحرية.

سقنا هذه المقدمة الطويلة للتأكيد على استحالة الإحاطة بكل ما يمكن أن يكون البحر قد تركه من بصمات على الثقافة الإنسانية عبر التاريخ، وبالتالي فإن كل العناوين الفرعية في هذا الملف هي مجرد نقاط من بحر.

البحر.. من هنا وحتى المجهول

تُظهر الصور الفوتوغرافية التي التقطت للأرض من الفضاء أن اللون الطاغي على كوكبنا هو الأزرق، لأن 71 في المئة من الكرة الأرضية مغطاة بالبحار والمحيطات، ولا تحتل اليابسة سوى 29 في المئة فقط من مساحتها.

وعندما نتصفح الموسوعات بحثاً عن عالم البحار نطالع مصطلح «المحيط العالمي» الذي يضم كل المسطحات المائية الكبيرة على وجه الأرض من محيطات وبحار متفاوتة الأحجام. غير أن المدهش هو الاختلاف الكبير في ترسيم حدود هذه المحيطات والبحار.

ففي بعض المصادر، تحدد مساحة المحيط الهادئ أكبر محيطات العالم، بنحو 155 مليون كلم مربع، وفي مصادر أخرى بنحو 181 مليوناً. ومرد هذا الفرق إلى خلافات حول تصنيف البحار الفرعية كجزء من



عبدالسلام التويجري

المحيـط أم كبحـار مستقلـة. حتى المحيـط المتجمـد الشمالي، هناك مـن يعده جـزءاً مـن المحيط الأطلسـي وليس محيطـاً مستقـلاً. إذ إن بعض البحـار ينفتح بشكل كبيـر على المحيط كما هو حـال بحر العرب مـع المحيط الهنـدي، في حين أن بعضها يقتصر فـي اتصاله بالمحيط علـى مضيق ضيق كما هو حـال البحر الأبيض المتوسـط الذي لا يتصل بالمحيـط الأطلسـي إلا عبر مضيق جبل طارق الضيـق، وبالبحر الأحمر عبر قناة من صنع الإنسان هي قناة السويس.

ولكن البحر في وجدان الإنسان لا يخضع لتصنيف الموسوعات والقواميس.. إنـه تلك المساحة الزرقاء الممتـدة أمامه وهو يقف على الشاطئ حتى كل شواطئ العالم التي لا يعرف أين هي ولا أين تقع ويعجز أن يرسم في خياله صورة ولو جزئية عنها.. إنه الممتد من هنا وحتى المجهول.

حياة صاخبة.. لا نسمع صوتها

مـن النادر أن تـرى العين أثراً لحياة حيوانية أو نباتية على سطح البحر الرتيـب. ولكن، تحت سطح الماء مباشرة، يضج البحر بالحياة النباتية والحيوانية التي خصها العلماء بتصنيفات مختلفة تماماً عن تصنيفات الحياة على اليابسة. فهناك العوالق المكونة من كائنات نباتية أو حيوانية تنجـرف مع التيارات، وهنـاك السوابـح المكونة من حيوانات تسبح وفق مشيئتها مثـل الأسماك والحبار والثدييات البحريـة، وهنـاك القاعيات التـي تضم بعض النباتات التي تعيش فـي القاع وأيضاً بعض الحيوانات مثـل السرطانات والكركند ونجمة البحر والديـدان وما إلى ذلك.. أما أحجام هـذه المخلوقات فتختلف ما بين المجهـري منها مثل البكتيريا والقرش الحوتي الذي يصل طولـه إلى 18 متراً.. ولإدراك حجم التنوع الحيواني في البحار نكتفي بالإشارة إلى أن الأسماك التي تعرّف الإنسان إلى أنواعها تبلغ 13,300 نوع. وكل هذه المخلوقات الحيوانية تتغذى على بعضهـا فتعيش فـي صراع دائم إما للدفاع عن نفسهـا ضد المفترسين أو للإيقـاع بفريسـة ضرورية لتغذيتها. إنه عالـم وحشي وقاسٍ وعنيف تخبئـه عن عيوننا صفحة الماء الزرقاء. ولكنه أيضاً عالم بالغ الروعة. إذ مـن بيـن كل الأفلام الوثائقيـة، تبقى مشاهد أعمـاق البحار الأكثر إبهاراً للعين.

ويتجمع القسم الأكبر من الكائنات البحرية (النباتية والحيوانية) قريباً من الشواطـئ، أي في المياه التـي لا تزيد أعماقها عن 100 إلـى 150 متراً، أي المياه التي تخترقهـا أشعة الشمس. غير أن بعض الحيوانات البحرية تعيش على أعماق أكبر بكثير ولا تقترب من المياه الضحلة إلا بحثاً عن الغذاء.

الاستثناء الوحيد في هذا المجال هو البحر الميت. ذلك أن هذا البحر الذي يحـده من الشـرق الأردن ومن الغرب فلسطين، إنما سمـي ميتاً لأن ملوحته عاليـة إلـى درجة لا تسمـح لحياة بحرية فيـه. كما أن استهـلاك المياه من روافـده ازداد فـي السنوات الأخيرة، مما جعله يجف شيئـاً فشيئاً، على نحو ينبئ بأنه قد يصبح اسماً على مسمى، فيموت فعلاً ويزول عن سطح الأرض موقع تاريخي لا يعوّض. ولا تقتصر فرادة البحر الميت على كونه أشد البحار ملوحة في العالم، بل أيضاً لأن موقعه هو أعمق موقع على اليابسة أيضاً.

البحر لحياة اليابسة

من دون الغوص في الجغرافيا وعلوم البحار التي تضيق بها آلاف المجلدات، نقـول إنه لـولا البحر لما كانت هناك حياة على اليابسـة. فالبحر المالح هو مصـدر الماء العذب الـذي نشربه، لأن تبخر مائه يولـد السحب الممطرة. والبحـر هـو المحـدد لأحوال المنـاخ في كل بقـاع الأرض مـن خلال حركة تياراته. والبحر هو مصدر للثروات الطبيعية الحيوانية والمعدنية. وإن كانت بعض هذه الأوجه للبحر قد لا تخطر مباشرة على بال الواقف على الشاطئ، فممـا لا شك فيه أنها منطبعة في أعماقه وفي لا وعيه، وتزيد من مهابة هذا البحر الذي به يرتبط كل شيء مهما كان موغلاً في أعماق اليابسة.

البحر منشئ الدول ومبيدها

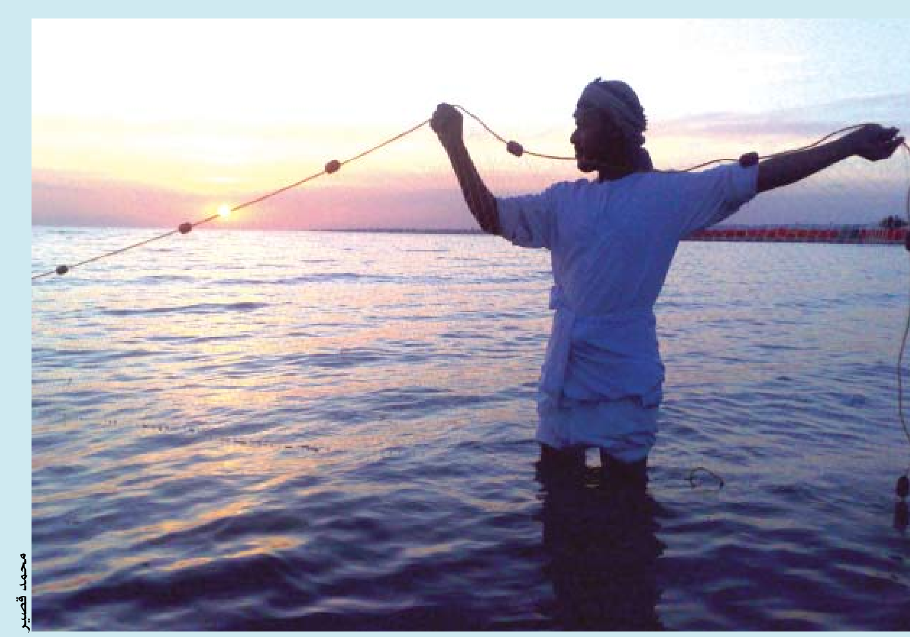
ولأن البحـر كان في أحيان كثيرة المجال الفاصل ما بين بعض الدول عن بعضها، كان من الطبيعي أن يتحول إلى ميدان للصراع. ومنذ أن أتقن الإنسـان فن الملاحة للنقل أو للتجارة، انتبـه إلى أهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه الزوارق والسفن المسلحة في حسم الصراعات.

إن أقـدم معركـة بحرية وصلتنا أخبارها هي تلـك التي هزم فيها الحثيون القبارصة قبالة جزيرة قبرص في عام 1210 ق.م. ومنذ



ذلك التاريخ وحتى شهر أغسطس من العام الماضي، عندما واجه الأسطول الروسي البحرية الجورجية قبالة أبخازيا، تعدد الموسوعات أكثر من 850 معركة بحرية بين أساطيل دول العالم المختلفة.

بعض هذه المعارك كان محدود النتائج. غير أن بعضها غيّر وجه التاريخ. مثل معركة «أكثيوم» البحرية التي دارت رحاها بتاريخ 2 سبتمبر من العام 31 ق.م. قبالة المستعمرة الرومانية في اليونان اكثيوم بين الأسطول التابع للقائد الروماني أوكتافيان وأسطول تحالف كليوباترة ملكة مصر مع مارك أنطونيو. وشكّلت هزيمة الأسطول الثاني نهاية الجمهورية



محمد قصير

البحر.. ميدان البحث عن الأرزاق

الرومانية وبداية عصر الإمبراطورية، وأيضاً نهاية المرحلة الهلنستية في مصر وبداية زوال ما تبقى من آثار حضارتها وثقافتها الفرعونية. وخلال حصار العثمانيين لمدينة القسطنطينية في العام 1453م، لجأ السلطان العثماني محمد الفاتح إلى مناورة بحرية فريدة من نوعها غيّرت مجرى التاريخ. إذ بعدما عجزت سفنه من إحكام الحصار على المدينة في المنطقة المعروفة باسم القرن الذهبي، لوجود سلاسل معدنية عملاقة تسد الطريق عليها، أمر بشق طريق بري ونقل السفن براً على مزالج خشبية، وإنزالها في الماء قبالة الموقع المطلوب لإحكام الحصار. مما أدى إلى حسم المعركة لصالحه، وتغير تاريخ آسيا الوسطى برمته بزوال الإمبراطورية البيزنطية.

أما معركة «الأرمادا» فتبدو مدهشة إذا ما قرأناها بشيء من التدقيق. فهذه المعركة التي جرت بين الأسطولين الإسباني والإنجليزي في أغسطس من العام 1589م، عندما حاول الأول غزو إنجلترا، انتهت بهزيمة الإسبان الذين خسروا نحو 600 قتيل و800 جريح، وأصيبت خمس من سفنهم بأضرار (علماً بأن أسطولهم كان مؤلفاً من 22 سفينة حربية و108 سفن تجارية مسلحة). أما الإنجليز فلم يتكبدوا أكثر من 50 إلى 100 قتيل وثماني سفن صغيرة. الأرقام تبدو متواضعة جداً إذا ما قيست بضحايا الحروب. ولكن المؤرخين يعتبرون هذه المعركة البحرية بداية كسوف الزعامة الإسبانية في أوروبا، وظهور بريطانيا كقوة بحرية أولى في العالم، ستزحف لاحقاً لاحتلال بقاع كثيرة في المشارق والمغارب على حد سواء.

وفي التاريخ العربي، لعبت الأساطيل البحرية دوراً كبيراً في الفتوحات وفي الدفاع عنها، وطوال القرون السبعة الأولى بعد الهجرة كانت البحرية العربية ذات شأن يحسب حسابه على الصعيد العسكري.

كان الانتصار العربي الأول على البيزنطيين في «ذات الصواري» عام 655م. وفي عام 698م، هزم العرب اليونانيين في معركة قرطاجة، وهزموا الفرنكيين في عام 820م قبالة سردينيا، والبنادقة عام 841م قبالة تارانتو. وتمكنوا في العام 965م من تدمير الأسطول البيزنطي قرب كالابريا (إيطاليا) غير أن البيزنطيين هزموا الأسطول المصري في السنة نفسها قبالة قبرص. وحتى في دولة المماليك ظل كبار السلاطين يولون البحرية أهمية كبيرة، كما كان حال الظاهر بيبرس. غير أن أهمية البحرية العربية راحت تتضاءل شيئاً فشيئاً بفعل الوهن الذي كان يتزايد في كافة مرافق الحياة السياسية، مقارنة بالنهضة السياسية والاقتصادية والثقافية، وحكماً البحرية، التي كانت تزداد رسوخاً ونمواً في أوروبا. ولكن ماذا عن العرب والبحر بعيداً عن المعارك؟

البحر عند المسلمين والعرب

ذكر القرآن الكريم كلمة البحر ومشتقاتها 42 مرة: بحر والبحران والبحرين والبحار وأبحر وبحيرة. وقد نزلت آيات بهذه الكلمات، في سور: البقرة والمائدة والأنعام والأعراف ويونس وإبراهيم والنحل والإسراء والكهف وطه والحج والنور والشعراء والنمل والروم ولقمان والشورى والدخان والجاثية والطور والرحمن وفاطر والفرقان والتكوير والانفطار.

ففي سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَإِذ فَرقنا بِكُم البَحرَ فَأنجَيناكُم وأغرَقنا آلَ فرعَون﴾ (البقرة، 50)، وفي سورة الكهف قوله العزيز: ﴿أمّا السَّفينَةُ فكانَتْ لمَساكينَ يعمَلونَ في البحر﴾ (الكهف، 79)، وفي سورة لقمان: ﴿ألَم تَرَ أنّ الفُلكَ تجري في البَحر بِنعمَة الله﴾ (الكهف، 31). وقال تعالى في سورة فاطر: ﴿ومَا يَستَوي البَحرانِ هَذا عَذبٌ فُراتٌ سائغٌ شَرابُه وَهَذا ملحٌ أُجاجٌ﴾ (فاطر، 12). وفي سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ البَحرَينِ يلتَقيانِ بَينَهُما بَرزَخٌ لا يَبْغيَان﴾ (الرحمن، 19-20). وذكر القرآن الكريم كلمة اليَمّ، وهي مرادف للبحر، ثماني مرات، في سور: الأعراف وطه والقصص والذاريات. ومنها قوله تعالى: ﴿فَانتَقمنَا مِنهُم فَأغرَقناهُم في اليَمّ بِأنّهُم كَذّبُوا بِآياتِنا﴾ (الأعراف، 136).

وقد يسأل سائلٌ: كيف يكون البحر سائغاً شرابه؟ إذ يعتقد الكثيرون أن البحر هو المالح وحده. لكن المعاجم العربية تسمي البحر: الماء الكثير، سواء أكان مالحاً أو غير مالح. وكان قدامى العرب على نحو ما في القرآن الكريم، يسمون المالح: الأُجاج، وغير المالح: الفُرات، ومن

ذلك سمي اسم النهر العظيم الذي ينبع في تركيا ويمر بسوريا وينتهي إلى العراق، فشط العرب، ليصب في الخليج. وفي مصر يسمّون نهر النيل البحر أيضاً، مع انهم حين يقسمون البلاد قسمين: بحري وقِبلي، فإنما يعنون بالبحري ناحية البحر الأبيض المتوسط، أي شمال مصر، وبالقبلي ناحية القِبلة التي هي بمثابة الجنوب في مصر، إذ ان مكة المكرمة في خطوط العرض تستوي وأقصى حدود مصر الجنوبية مع السودان. فالبحر عندهم هو البحر والنهر كلاهما.

وقديماً جداً في وادي الرافدين، كان السومريون في عقيدتهم الوثنية، يعتقدون أن الخليقة بدأت حين كان الماء يملأ الكون، ففصل الآلهة الماء المالح عن الماء العذب ليُوسِعوا للأرض. وكانوا يعتقدون كذلك أن ملتقى الماءين المالح والعذب هو في موطن الآلهة، دِلمون. ودلمون هذه ليست سوى البحرين اليوم. وكانت دِلمون حضارة تشمل مناطق واسعة من الخليج، ازدهرت قبل ستة آلاف سنة، وسبقت ظهور حضارة السومريين بألف عام. ويرى بعض المؤرخين أن أصل تسمية البحرين هي هذا المعتقد السومري القديم. فقد كان البحارة والغطاسون الباحثون عن اللؤلؤ وهم في قاع البحر قرب شواطئ البحرين والقطيف على الناحية الغربية من الخليج، يستطعمون ماء عذباً ينبع من قاع البحر. فظن السومريون أن التقاء البحرين هنا موضعه، وأن ابتداء الخليقة إذن كان هنا.

ويسمي الجغرافيون اليوم البحر الممتد بين شرق إفريقيا وشاطئ اليمن حتى الهند، بحر العرب. ذلك أن هذا البحر، وهو جزء من المحيط الهندي، إنما كان موطناً لطرق سفن العرب، التي كانت تأتي بتجارة الهند والصين وشرق إفريقيا، إلى اليمن، حتى تنقلها القوافل المكية القرشية، إلى بلاد الشام، حيث تتولى السفن تسويقها في البحر الأبيض المتوسط. وكان بحارة عُمان أشهر من تولى مهنة البحر في العصور السابقة للإسلام في بحر العرب. ويقول علماء تاريخ إن العرب كانت لهم مستعمرة في سومطرة بإندونيسيا، في بداية التقويم الميلادي، أي منذ ألفي سنة، بل ان العرب تاجروا بين مدغشقر وإندونيسيا منذ القرن الرابع قبل الميلاد. وكانوا يسيرون سفنهم الشراعية في هذا البحر بالرياح الموسمية التي كانوا يعرفونها تمام المعرفة. وقد ذكرهم بليني المؤرخ الروماني. وقال أغاثارخيدس، رئيس مكتبة الإسكندر ذي القرنين وكاتب رحلة لامبولوس، إن العرب كانوا تجار المحيط الهندي وبحارته. ويرى المؤرخ فون فيسمان، أن الحميَريين اليمنيين ملكوا أفضل أساطيل البحر في المحيط الهندي قبل الإسلام، وكانوا يديرون بأنفسهم أسطول الإمبراطورية الساسانية.

ومعرفة العرب البحر ظاهرة ولا شك في الشعر الجاهلي، ومنه قول طرفة بن العبد، الذي عاش أواخر القرن الميلادي السادس، في معلقته الشهيرة:

كأنّ حُدوجَ المالكية غُدوَةً
خلايا سفينٍ بالنواصفِ من دَدِ
عَدوليةٌ أو من سفينِ ابنِ يامنٍ
يجوزُ بها الملاّحُ طوراً ويهتدي
يشقُ عُبابَ الماءِ حَيزومُها بها
كما قسَمَ التُّربَ المُفايِلُ باليد

الحُدوج هي الإبل، والنواصف مجاري الماء في الوادي، والدد هو اللهو واللعب، والعدولية هي السفن الآتية من عدوليس الحبشية، وابن يامن صانع سفن عماني كان شهيراً، (وقد ذكره امرؤ القيس أيضاً في قصيدته التي تبدأ بقوله: سَما لكَ شوق)، والحيزوم هو صدر السفينة أي مقدمها، والمفايل هو الولد يلعب بالحصى. شبّه طرفة الإبل بالسفن، وهي تشق البحر، مثلما يشق الولد التراب وهو يلعب بالحصى.

كذلك حدثنا عمرو بن كلثوم في بعض شعره الجاهلي عن نشاط بحري للعرب، قبل الإسلام، إذ يقول:

ملأنا البرَّ حتى ضاقَ عنّا
وظهرُ البحرِ نملؤهُ سَفينا

وفيما ينكر بعض المؤرخين الغربيين المشكوك في حوافزهم تفوق البحارة العرب في الطرق البحرية التي كانوا يذرعونها بين جنوب شبه الجزيرة وشرق إفريقيا والهند، يدحض المنصفون منهم، وتدحض الحقائق التاريخية الشكوك ببساطة تامة. ذلك أن الإسكندر ذا القرنين

حكاية العرب مع البحر.. قديمة

اجتاح المنطقة بأسباب أحد أهمها بلوغ شواطئ بحر العرب، ليتجنب دفع مكوس لتجار اللبان والحرير والتوابل والفضة الآتية من سفن كانت تأتي بها عبر الخليج والبحر الأحمر والقوافل الصحراوية. وقد ورثت روما ثم بيزنطة فيما بعد هذه المشكلة الجغرافية السياسية، وحكمت سياستها قروناً طويلة.

السفن العربية

كان سر تفوق العرب أسلوب صنعهم السفن المبحرة في بحرهم. إذ ان السفن كانت تتحرك بقوة الريح، ولذا كانت الأشرعة بمثابة المحرك في السفينة. وكان ثمة عنصران طبيعيان أساسيان في السفر إلى المحيط الهندي: الرياح الشمالية التي كانت تسيطر على البحر الأحمر طول السنة، والرياح الموسمية التي كانت تتحرك بها السفن في المحيط الهندي وبحر العرب. لم تكن رياح البحر الأحمر التي تهب طول السنة من الشمال، تساعد البحارة الذين يستفيدون في رحلة الذهاب جنوباً ولا يستطيعون العودة شمالاً. أما في المحيط الهندي فكانت المشكلة مختلفة. فالرياح الموسمية تتجه في الصيف من الغرب إلى الشرق، وهي عاتية وشديدة الخطر. أما في الشتاء فهي تتجه من الشرق إلى الغرب، لكنها لطيفة لا تثقل السفينة. عيب هذه السفن أنها لا تحتمل الرياح القوية العاتية، التي كانت تستطيع السفن الغربية الكبيرة الثقيلة المشدودة بالمسامير أن تحتملها. لكن هذا العيب كان صناع الأشرعة العرب يعالجونه بذلك الشراع العجيب الذي حيّر الغرب طويلاً. كان الشراع الذي يستعملونه مثلثاً عريض القاعدة، وزاويته في أعلى الساري، فيما كانت أشرعة السفن الرومانية ثم البيزنطية مربعة الشكل. وكان هذا النوع العربي المثلث من الأشرعة يستطيع أن يستقبل من أعلاه الريح الآتية من ناحية السفينة الأمامية، فيلتقط دفق الهواء ويحوله إلى بطن الشراع. فتكاد السفينة أن تبحر برياح معاكسة لوجهتها.

ما هو وجه العظمة في هذا الاختراع؟

كانت هذه الأشرعة تمكن السفينة من الإبحار نحو الهند في الشتاء، حين تكون الرياح لطيفة، لكن اتجاهها غير مؤات. ولما كانت وجهة السفر إلى الشواطئ الهندية من عمان أو اليمن جنوبية شرقية، ورياح الشتاء



السفن العربية.. تفوقت طويلاً

وممتازة للإبحار. المشكلة هي أن السفن تستطيع أن تأتي من الهند في الشتاء بيسر، لكن كيف تذهب إليها صيفاً في محيط عاصف؟

لحل هاتين المشكلتين، ابتكر العرب شراعاً لم يدرك سره الغرب، إلا متأخراً. كان العرب يصنعون سفناً في الخليج وعُمان، لا تزال معروفة إلى يومنا هذا، تسمى: الدّو، وهي مصنوعة من خشب يُربَط بألياف،

الموسمية الآتية من الهند شمالية شرقية، كان يمكن للسفن العربية أن تبحر نحو الهند. أما الأشرعة المربعة، فلم يكن في استطاعتها دفع السفن الرومانية إلا بالرياح الموسمية الصيفية العاتية. وكان هذا ميزة حاسمة للبحارة العرب، لأنهم كانوا يستطيعون أن يأمنوا في سفرهم البحر، في رياح الشتاء اللطيفة، ويحجمون عن السفر مع رياح الصيف العاتية.

البحر... ألوان

البحر أزرق!
كلنا يعلم هذا.. لكن البحر في أحيان يبدو مائلاً إلى اللون الأخضر، ذلك في المناطق الضحلة قرب الصخور والشطآن. وفي أحيان يكتسي بالبياض، لدى انقلاب الموج عند الشواطئ، أو يبدو هذا البياض عند غضب الرياح واشتداد الأنواء، فيلبس رداء الزبد الهائج. وكم مرة بدا لنا البحر أسود قاتماً، في حلكة الليل، أو حتى في حلكة موجة حزن أو ألم، وكأن ذلك اللون حالة وجدان، تتبدل مع تبدل ما في قلوبنا.

ما الذي يجعل البحر أزرق؟
يقول لنا العلماء إن الشعاع الآتي إلينا من الشمس يبدو لنا أبيض، لأنه يخلط في حزمته كل ألوان طيف الضوء، من الأحمر إلى الأزرق. وإن موجة الضوء الأزرق قصيرة، وموجة اللون الأحمر طويلة. والموجة الطويلة قادرة على اختراق الهواء مسافة أطول من المسافة التي يستطيعها الضوء الأزرق. لذا يبعثر الهواء الضوء الأزرق، فيلوّن البحر والهواء بلونه.

ولإثبات هذا، يضيف العلماء أن الشمس عند الشروق أو عند الأصيل، تبدو أشد احمراراً. ذلك أن شعاع الشمس في أول النهار أو آخره، يجتاز مسافة أطول في هواء الأرض، فيصل إلينا الشعاع، وقد صُفِّيت منه الأشعة الزرقاء وبقيت الأشعة الحمراء.

وهذا بالضبط ما يحدث في البحر أيضاً. إذ ان مياهه لا تكتفي باتخاذ الزرقة من الهواء، بل ان المياه نفسها تفعل في الأشعة ما يفعله الهواء، فتبعثر الضوء الأزرق، لنراه بعيوننا مرتداً إلينا، وتمتص الألوان الأخرى، فتختفي عن ناظرينا.

إلاّ أن البشر لم يأخذوا ألوان البحر على مظهره الأول. فهناك البحر الأحمر بين مصر والسودان غرباً وشبه الجزيرة العربية شرقاً، وقد قيل الكثير في سبب تسميته بالأحمر. فمنهم من ردها إلى لون المرجان، ومنهم إلى بعض الطحالب البحرية، وآخرون ردوها إلى وعورة الملاحة فيه وكثرة الدماء التي أريقت فيه قديماً.

أما البحر الأسود فيتوسط تركيا وروسيا وأكرانيا ورومانيا وبلغاريا. ولا تفسير لتلك التسمية، سوى أنه غني بكبريتيد الهيدروجين الأسود اللون، أو احتمال أن يكون بحارة اختاروا هذا الاسم في الزمان الغابر، في أيام عاصفة تكفهر بها السماء. وتطل الصين من شرقها على البحر الأصفر، الذي اتخذ اسمه هذا من اصفرار مياهه التي تصب فيها أنهار عظيمة تحمل الطمي إليه.


©2007 Marion Boddy-Evans. Licensed to About.com, Inc.

وقد يتخيّل المرء أن تلك الألوان تبدو واضحة حين نطل على هذه البحار. لكن المشاهد، حين ينظر إليها، فنادراً ما يلاحظ أي لون غير الأزرق.

يقول الفنان الإيطالي ليوناردو دا فنشي في لون البحر: «ليس للبحر المائج لون واحد في كل الدنيا. لكن من يراه من اليابسة، يراه قاتم اللون، ويزداد قتامة كلما اقترب الأفق. لكنه يرى أيضاً بياضاً أو لمعاناً يتحرك ببطء، أشبه بتحرك غنمة في قطيعها... فمن الشاطئ يمكن أن ترى الموج وهو يعكس لون اليابسة القاتم، وفي أعالي البحار ترى في الموج الهواء الأزرق ينعكس على وجه الماء.

«يغيّر ألوانه البحر»

إذا كان: يغيّر ألوانه البحر، هو عنوان ديوان (1970م) لنازك الملائكة، شاعرة العراق الراحلة الكبيرة، فإن الرسامين يوافقون على أن البحر فعلاً يغيّر ألوانه، لا لأن الطبيعة متلونة متبدلة في أحوالها وحسب، فيتغير لونه وفق حالتها، بل لأن الرسام لا يراه بالعين ذاتها في كل أحواله وعلى مدار أيامه، بل يرى فيه مرآة لروحه. وقد تنوعت ألوان البحر في تراث الرسامين في العالم تنوعاً مدهشاً قد لا يخطر بالبال.


نازك الملائكة

عوض الهمزاني

في الرواية والسينما..

من سندباد إلى التيتانيك







... من فلم «موبي ديك»

عندما ظهرت السينما في القرن العشرين، وجدت نفسها أمام تراث روائي عريق وضخم يتناول البحر موضوعاً وميداناً لأحداثه. وبدا هذا التراث جذاباً جداً لهذه الصناعة الناشئة لجهة قدرته على شد جمهور المشاهدين الحالم بالمغامرات البحرية من دون أن يجرؤ على خوضها فعلاً. وربما كان الأمر نفسه هو وراء شغف الروائيين الذين عرفوا البحر عن قرب في كتابة أعمال أدبية لا تحصى حول البحر والحياة البحرية ومغامراتها. ومهما حاولنا الاختصار في هذا المجال لا بد من التوقف أمام بعض العناوين الخالدة في أدب البحر.

السندباد البحري

السندباد البحري هو بحار من البصرة عاش في عصر الخلافة العباسية، وتروي حكايته (أو حكاياته) مغامراته في الرحلات البحرية السبع التي قام بها في المحيط الهندي ما بين شواطئ إفريقيا وشرق آسيا. ويزعم بعض المؤرخين أن لحكاياته أصلاً فارسياً، فيما يرى آخرون، ومن دون الزعم أن أصلها سنسكريتي، أن مؤلف نواتها الأولى كان على اطلاع على فن السرد الهندي. ولكن المؤكد أن أقدم نسخة من حكاياته موجودة اليوم هي عربية خالصة.


محمد الحربي

والمدهش في حكايات سندباد التي تجمع الخيال الجامح إلى أحداث حقيقية مستقاة من مغامرات البحارة في المحيط الهندي ومشاهداتهم، هو أنها موضع خلاف حول ما إذا كانت جزءاً أصيلاً من «ألف ليلة وليلة» التي تُضم في بعض نسخها، أم أنها عمل متكامل مستقل.

المهم في هذه الحكايات هو أنها تركت آثاراً وبصمات لا تُحصى في الثقافة العالمية. فقد تم تصويرها للسينما والتلفزيون 20 مرة ما بين العام 1947 وحتى العام 2007م. ونرى السندباد حاضراً في رواية «الكونت دي مونتي كريستو» حيث يظهر كاسم مستعار لادموند دانتيس. والشاعر إدغار ألن بو كتب قصة بعنوان «الليلة الثانية بعد الألف لشهرزاد» وفيها يروي قصة الرحلة الثامنة والأخيرة لسندباد. والشاعر البولوني بوليسلو ليسميان كتب مجموعة حكايات بعنوان «مغامرات السندباد البحري». وفي رواية جون بارث «الرحلة الأخيرة لواحد بحري» يشكل السندباد البحري ورحلاته الإطار لمجموعة الرحلات التي يقوم بها هذا المجهول المسمى «واحد بحري». وأيضاً نرى السندباد البحري في رواية آلان مور «عصبة السادة الخارقين». وفي أفلام صورت من هولندا إلى طوكيو مروراً ببوليود الهندية.

موبي ديك

نشر الروائي الأمريكي هيرمان ميلفيل روايته «موبي ديك» في العام 1851م. أولاً في لندن، ومن ثم في نيويورك. ورغم ظهور بعض الاختلاف في آراء النقاد، فقد حظيت هذه الرواية فور ظهورها بنصيب وافر من التقدير. غير أن إعادة طبعها واكتشافها مجدداً بعد الحرب العالمية أعطاها حق قدرها، فتم تصنيفها كواحدة من أفضل ما كتب في تاريخ الروايات الأمريكية على الإطلاق.

تحكي هذه الرواية قصة قبطان بحري يدعى آهاب سبق له أن تعرض لهجوم من حوت أبيض ضخم معروف من قبل البحارة باسم موبي ديك، وفقد من جراء ذلك ساقه، فيقرر الخروج في رحلة للبحث عن هذا الحوت وقتله انتقاماً. ومن ضمن مرافقي آهاب هناك إسماعيل المتعقل (الذي ينجو لوحده من الموت في نهاية الرواية)، وعدد من الشخصيات المختلفة.

تجمع هذه الرواية في أكثر من 800 صفحة الرومنطيقية، والواقعية المستقاة من خبرة الكاتب في البحر. غير أن قيمتها الرئيسة تكمن في غناها الذي لا مثيل له من حيث عدد القضايا التي تتطرق إليها بدءاً بالتراتبية الاجتماعية وصولاً إلى الدين والقيم الأخلاقية، وعلاقة الإنسان بالكون ككل. وهذا ما جعل عالم النقاد والقرّاء يحتاجون إلى وقت طويل لاكتشافه، والإقرار بعبقرية هذا العمل الفريد. وقد ترجمت هذه الرواية إلى معظم لغات العالم، وترجمها إلى العربية الدكتور إحسان عباس، يرحمه الله.

الشيخ والبحر

هي قصة طويلة أو رواية قصيرة (127 صفحة) كتبها الروائي الأمريكي آرنست همنغواي في كوبا سنة 1951م، ونشرها في العام التالي. وكان لها الأثر الأكبر في فوزه بجائزة نوبل عام 1954م؛ «بسبب أستاذيته في فن السرد كما تجلّى مؤخراً في الشيخ والبحر، وللأثر الكبير الذي تركه على الأسلوب الروائي المعاصر»، حسبما جاء في بيان اللجنة المانحة للجائزة.

تروي هذه القصة المواجهة الملحمية التي تدور بين صياد كبير في السن يدعى سانتياغو وسمكة «المارلين» العملاقة. فبعدما أبحر هذا الرجل لمدة 84 يوماً بحثاً عن هذه السمكة، عثر عليها في اليوم الخامس والثمانين، وعلقت السمكة بخيط الصنانير، غير أنها بدلاً من أن يجرها الزورق، راحت هي تجر الزورق وفق هواها، واستمر صراع الصياد معها ليومين وليلتين ذاق فيهما شتى ألوان الألم والعذاب.



أسطورة أطلنتيس

استناداً إلى أفلاطون اليوناني، كانت هناك دولة ذات قوة بحرية كبيرة تدعى أطلنتيس، غزت قسماً كبيراً من غربي أوروبا وشمال إفريقيا قبل 9000 سنة من عهد صولون أي حوالي العام 9600 ق.م. ولكن هذه الحضارة العظيمة غرقت في البحر في «يوم وليلة من سوء الحظ» لم يكن هناك من تحدث عن هذه الحضارة غير أفلاطون. وكل حديث عنها لا يجد مصدراً غير ما قاله هذا الفيلسوف اليوناني. وخلال العصور القديمة نوقشت مسألة أطلنتيس ووجودها، غير أنها عادت ودخلت طي النسيان، حتى أعيد نبش ملفها في القرنين الماضيين.

رجّح البعض أن يكون موقع هذه الحضارة في إحدى جزر بحر إيجه، وأن انفجاراً بركانياً وموجة تسونامي أغرقا الجزيرة. ورجح البعض أن يكون موقعها في مكان ما من المحيط الأطلسي، نظراً للتشابه ما بين الاسمين.. وعلى الرغم من بعض الجهود «العلمية» التي بذلت لاكتشافها، فإنها لا تزال حتى يومنا هذا لغزاً أو أسطورة من دون أساس، أو ذات أساس صغير ومختلف عن المحكي عنها. ولكن ديمومة هذه الأسطورة، ومساعي الكثيرين إلى التأكد من صحتها، تكشف رغبة ربما كانت هي نفسها الرغبة وراء ظهورها: تخيل حضارة كاملة وكبيرة حيث يستحيل بناء غرفة واحدة.. تحت سطح البحر.

وبعدما استسلمت السمكة، واجه الصياد سرباً من أسماك القرش حامت حول الفريسة، فكان صراعه مع هذه الوحوش المفترسة أشد شراسة من صراعه الأول، وانتهى بالإفلات منها والعودة سالماً إلى الشاطئ، ولكن بعدما تركت أسماك القرش غنيمته مجرد هيكل عظمي مربوط إلى الزورق.

وتتميز هذه التحفة الأدبية عن باقي أعمال همنغواي بشاعريتها وجنوح الخيال فيها حتى اللا معقول. وهذا ماشكّل مفاجأة بالنسبة إلى قرائه آنذاك لأنهم ألِفوا فيه كاتباً ينفر من المتخيل والوعظ ويسعى إلى أكبر حد من الالتزام بالواقع. أما في الشيخ والبحر فيجد القارئ نفسه فيما يشبه الأرجوحة بين أرق العواطف والأحاسيس الإنسانية من جهة وضراوة الصراع المتوحش من جهة أخرى. وهذا ما رفع هذه القصة إلى مستوى أرقى ما كُتب في الأدب العالمي خلال القرن العشرين.



الأدب والسينما لا يرتويان من البحر

والسينما تصور

صورت السينما «موبي ديك» عام 1956م، ولاحقاً «الشيخ والبحر» حيث قام الممثل المعروف أنطوني كوين بدور سانتياغو. وكذلك صورت عدة مرات رواية «20 ألف فرسخ تحت الماء» لجول فيرن التي تكاد تكون وملحقاتها المتعلقة بـ «الكابتن نيمو» أكثر الروايات البحرية تقديماً في السينما. وما من موسم سينمائي تقريباً يخلو من فلم بحري، بدءاً بحكاية سفينة «تيتانيك» التي أخرجها جيمس كاميرون عام 1997م وحظيت بشهرة عالمية، بعدما كانت قد صورت للسينما أكثر من 12 مرة سابقاً، وصولاً إلى قراصنة الكاراييب الذي ظهر منه جزءان من بطولة جوني ديب، وحصدا نجاحاً لافتاً أيضاً.

فالجمهور يحب أفلام المطاردات بين السفن «مطاردة أكتوبر الحمراء»، و«بورا بورا»، ويحب مغامرات القراصنة كما في «مغامرات البارون مونكهاوزن»، ويحب ثورة البحارة ضد سادتهم المتغطرسين مثل رائعة أيزنشتاين «الدارعة بوتمكين» والفلمين اللذين يرويان «العصيان على السفينة باونتي». ناهيك بجاذبية الأفلام الوثائقية عن عالم البحار والحياة في أعماقها.

ولا يختلف الأمر كثيراً في السينما العربية، فالفلم الكويتي الأول هو «بس يا بحر» (راجع الإطار). وحين أرادت السينما السورية أن تقتبس من الأدب التفتت أول ما التفتت إلى روايات حنا مينا البحرية «البازرلي»، «الشراع والعاصفة». إضافة إلى النجاحات اللافتة التي حققتها في السينما المصرية أفلام اسكندرانية وغيرها من الأفلام البحرية مثل «صراع في الميناء» و«حميدو» وغيرهما..

«بس يا بحر»

هو عنوان فلم سينمائي كويتي أخرجه خالد الصديق، سنة 1972م. وهو ينظر نظرة غنية إلى البحر، فهو مصدر السمك واللؤلؤ وكثير من الخير، لكنه أيضاً مخيف يُزهق الأرواح، ومنها روح مساعد، الفتى صياد اللؤلؤ. ومع هذه النظرة الوجودية إلى البحر، إلا أن الفلم يغوص في بعض أسرار مهنة الغطس، وأسلوب الغطاسين. وقد حفل بكثير من أغاني الصيادين وضرب طبولهم. وفيه زفة عروس تقليدية، وبعض التقاليد الشعبية المتعلقة بالبحر، مثل إغراق هرّة فيه تسكيناً لغضب أمواجه. والمهم في هذا الفلم، أنه يبين بجدلية فنية، تلك المشاعر المختلطة حيال البحر. فهو مصدر الخير، إلا أن التجارب معه لا تخلو من المآسي.






من فلم «بس يا بحر»

الحاضر دائماً في الفن

فـي الثالث من فبراير من العام 1598م، علِـق حوت ضخم على شاطئ مدينة شيفينينغن الهولندية. وكان من ضمن الذين هرعوا إلى مشاهدته صاحـب مطبعة يدعى هندريك غولتزيوس، الذي سارع إلى رسم مشهد الحـوت، وطبعه بواسطة الحفر، وتوزيع الصورة على الفضوليين. فكان ذلك المشهد البحري الخالص الأول الذي يُرسم، والصورة الصحافية الأولى في التاريخ.

فصحيح أن البحر ظهر في اللوحات الإيطالية منذ مطلع القرن الخامس عشـر. ولكنه ظل كخلفية في لوحـات ذات موضوعات دينية. ولم يتحول إلـى موضوع بحد ذاتـه إلا على أيـدي الأساتذة الهولنديـين منذ مطلع القرن السابع عشر. وفي نهاية القرن نفسه وبدايات القرن التالي، ظهرت بتأثير من الهولنـدي فان دي فيلديز مدرسة للرسم البحري في إنجلترا سرعان ما طغت على كل ما عداها من مدارس ازدهاراً وإنتاجاً.

وفـي عصر سيـادة بريطانيـا علـى البحـار، راح الرسامـون الإنجليز يرسمون السفن والأساطيل وصوراً شخصية للأميرات والقادة. وتميزت هـذه الصور بأمانتها الشديدة للواقع ودقتهـا في رسم التفاصيل، وكأن مهمتهـا كانـت وثائقية بحتة. ومن الأسماء التـي لمعت في هذا المجال نذكـر دومينيك سيريس ونيكولاس بوكـوك. ولكن أسماء كبيرة جداً في القرن الثامن عشر انضمـت إلى رسامي المشاهد البحرية حتى شملت العملاقين جواشو رينولدز وجورج رومني.

وبشكل عـام، كان ملوك أوروبا بأسرهم يطلبـون من الرسامين لوحات تمثـل أساطيلهـم وانتصاراتهـم البحريـة. وبعد تراجع هـذه الفئة من الزبائـن استمر حضور البحر في اللوحة لألف سبـب وسبب وصولاً إلى الاحتجـاج علـى إهمال الدولـة كما هو حـال واحدة من أشهـر لوحات المدرسـة الرومنطيقيـة «الناجون من الميدوزا» التـي رسمها الفرنسي تيودور جيريكو لإثارة الرأي العام ضد الحكومة التي تقاعست في بحثها عـن الناجين من غرق إحدى البواخر. ومقابل ذلك، وبعد الرومنطيقية بقليل نجـد الرسام أوجين بودان أحد مؤسسـي الانطباعية يتردد أمام الإقامة فـي باريس للعمل كأحد كبار أساتذتهـا في فن الرسم، ويفضل علـى ذلك البقـاء عنـد شاطئ بلـدة تروفيل حيث كان يرسـم البحر والأشرعة والمتنزهين، فترك لنا عشرات اللوحات في هذا المجال.

وحتـى في القـرن العشرين، لعبـت اللوحات البحريـة دوراً مفصلياً في تاريـخ الفن. فقـد كان الرسام الفرنسي هنري ماتيـس ذا نظرية تأخذ علـى الرسم الكلاسيكي هوسـه بالبعد الثالث الـذي يشتت الانتباه عن



لوحة ماتيس «حيوانات البحر»

اللون والخط. وارتـأى ذات مرة في العام 1950م أن يجري تجربة ليس من خلال الرسم، بل من خلال قص الورق الملون وإلصاقه على اللوحة ليـرى النتيجـة. واختار الرسـام موضوعاً هـو «حيوانـات البحر» (les bêtes de la mer) ، وراح يقصـ الـورق الملون علـى أشكال مستوحاة من الطحالب ونجوم البحر والأسماك والأصداف. فكانت النتيجة فتحاً جديداً في تاريخ الفن، وتأسيساً لمذهب فني جديد يعتمد «لصق الورق»، فانتهت لوحته التجريبية في متحف الناشيونال غاليري في واشنطن.






البحر في الشعر..

خمس نقاط من بحر



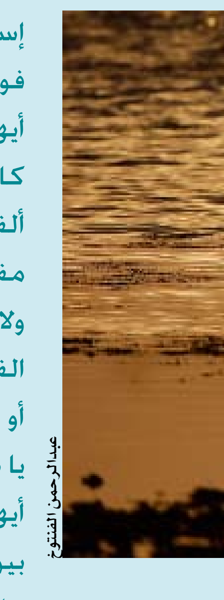
نظراً لاستحالة حصر بحر القصائد التي قيلت في البحر في مختلف «بحور» الشعر، طلبت القافلة إلى الشاعر **شوقي بزيع** أن يختار خمس قصائد فقط من أفضل ما يعبِّر عن تفاعل الشعراء مع البحر. فاختار هذه النماذج الخمسة، وهي على التوالي للشاعر الفرنسي **سان جون بيرس** الذي حوَّل ديوانه الفريد «منارات» إلى عمل ملحمي غني بالصور والمفارقات ورأى في البحر انعكاساً لبحر الداخل الإنساني الذي لا حدود لتلاطمه، والشاعر الإسباني **غارسيا لوركا** الذي قارب البحر من خلال أسلوبه الحواري الشفاف والآسر والمفتوح على أسطرة الواقع المعيش، و**محمود درويش** الذي احتفى بالبحر في الكثير من قصائده لكنه بعد خروج الفلسطينيين من بيروت رأى فيه وجهاً آخر من وجوه التشرد والمنفى، و**نزار قباني** الذي رأى في البحر وجهاً من وجوه ذكوريته الطاغية، و**سعدي يوسف** الذي يخاطب البحر بلغة المناشدة والرجاء وطلب المساعدة لاستعادة روح التمرد وألف الحياة المفقود.

يا بحر كلِّ عمرٍ وكل اسم
أيها البحر الرحِمّي لأحلامنا
والمسكون بالحلم الحق
أيها الجرح المنفتح في خاصرتنا
يا جوقة عتيقةً على بابنا
أنت الهجوم وأنت الألف
أنت الجنون كله والرغد كله
وأنت الحب وأنت الحقد الرحيم الجبار
من كل شيء نتعلم وفي كل شيء تصمت
في كل شيء تنهض ضد طعم الدموع
هل أنت أيها الهائم من سيسلّمنا هذا إلى
شواطىء الواقع؟

(سان جون بيرس)

البحر يبتسم من على بعد
أسنان من زبد وشفاه من سماء
ماذا تبيعين أيتها الفتاة الماكرة وحضنك للهواء؟
أبيع أيها السيد ماء البحر
ماذا تحمل أيها الفتى الأسود ممزوجاً بدمك؟
أحمل أيها السيد ماء البحار
هذه الدموع الأجاج. من أين تأتي يا أماه
من بكاء ماء البحار
وهذه المرارة أيها القلب من أين تولد؟
من علقم ماء البحار
والبحر يبتسم من على بعد
أسنانٌ من زبد وشفاه من سماء

(فيديريكو غارسيا لوركا)


عبدالرحمن الفتنوخ

وسلاماً أيها البحر المريض
أيها البحر الذي أبحر من صور إلى
إسبانيا
فوق السفن
أيها البحر الذي يسقط منا
كالمدنْ
ألفُ شباكٍ على تابوتك الكحلي
مفتوحٌ
ولا أبصر فيها شاعراً تسنده
الفكرةُ.
أو ترفعه المرأةُ.
يا بحر البدايات إلى أين تعود؟
أيها البحر المحاصرُ
بين إسبانيا وصورْ
ها هي الأرض تدورْ
فلماذا لا تعود الآن من حيث أتيت؟

(محمود درويش)

كلما شمَّ البحر رائحة جسمك
الحليبي
صهل كحصانٍ أزرق
وشاركني الصهيل
هكذا خلقني الله....
رجلاً على صورة بحر
بحراً على صورة رجل
فلا تناقشيني بمنطق زارعي العنب
والحنطة
ودكاترة الطب النفسي
بل ناقشيني بمنطق البحر
حيث الأزرق يلغي الأزرق
والأشرعة تلغي الأفق
والقصيدة تلغي ورقة الكتابة

(نزار قباني)

يا بحر من بستانك الصدفي
امنحني محارةْ
مرجانةً، شيئاً من الأعماق لوناً غير
لؤلؤتي المحارةْ
يا بحر أغرقْني وأغرقْني
أكن للشوق شارةْ
هبْني ولو لمحاً من الرؤيا
خذ كلَّ ما أعطتنيَ الدنيا
اجعله قبراً لي واسدلْ فوقه حبي
ستارةْ
أمس ارتجيتك أن تردَّ إلى تمرّدي
اخضرارهْ
أن تغسل الأسماءَ
تمنحها الحقيقة والنضارةْ
يا بحرنا الأزليَّ إن تهنا فضيَّعناك
حينا
فلأن شيئاً مات فينا...
يا بحر جئنا مرة أخرى فلا تكن
الضنينا

(سعدي يوسف)

البحر في الأغنية

جمع الجَمال إلى الرهبة والأمل إلى الحزن

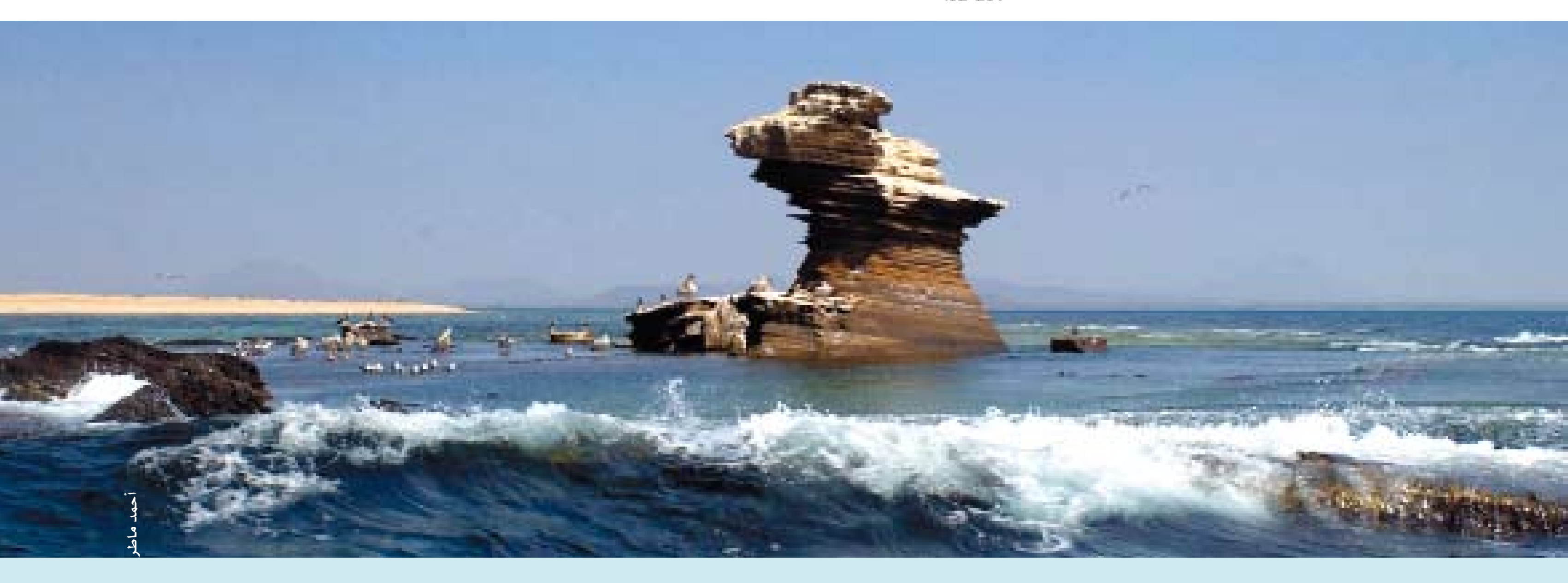
حظي البحر بكل ما فيه من عظمة وغموض ووعود بنصيب جيد من الأغاني والألحان في كل ثقافات العالم. ولو بدأنا بتناول بعض المعاني البحرية في الأغنية العربية للاحظنا أن السفر أو الهجرة من أبرزها. فقد غنّى سيد درويش طقطوقة في تفضيله العيش في مصر على الهجرة بالوابور إلى أمريكا، وهي أغنية «سالمة يا سلامة» الشهيرة التي يقول فيها:

«صفّر يا وابور واربط عندك
نزلني في البلد دي
بلا أمريكا بلا أوروبا
ما فيش أحسن من بلدي».

أما في الغناء اللبناني فقد كان البحر موضوعاً مشتركاً بين كل الأغنيات التي تتحدث عن هجرة اللبنانيين في حقبات شتى من القرن العشرين، وأشهرها للمطربة صباح في موالها الشهير «واقفة عالبحر بكاني السفر»، وأغنية كانت واسعة الانتشار في مطلع الخمسينيات للمطرب اللبناني القديم فؤاد زيدان ومطلعها:

عالشط قلبي راح مني وراء الأحباب
لما حبيبي بعد عني والمركب غاب

وعلى شاطئ بحر الهجرة نفسه وقف وديع الصافي في وداع الأحباب معاتباً صخرة الميناء في أغنيته الجميلة:



يـا صـخـرة الـمـيـنـا لا تـشـمـتـي فينا
ياما على اعتابك بكيو حبايبنا بكيو أهالينا

وببلاغـة عبّر البعض عن مهابة البحر وأهواله، مثل محمد عبدالوهاب فـي مواله الشهير: «في البحر لم فتّكم في البـر فتّوني». فالمخلص هو الـذي لا يتخلى عـن الحبيب في البحر على هوله، أمـا الآخر فقد تخلّى في البر حيث لا أهوال.

وتوقف مغنون أمام حجم البحر الذي لا يقاس، مثل فيروز التي تغني:

شايف البحر شو كبير
قد البحر بحبك

أو غناء صباح:

قد البحر وموجاته
والطير وغنياته
وحرقة قلبي ونهداته
هالقد بحبك هالقد

واستمـد آخرون من البحـر عناصره الجمالية وأبرزهـا زرقته. كما هو الحال في قصيدة نزار قباني التي يغنيها عبدالحليم حافظ:

الموج الأزرق في عينيك
يناديني نحو الأعماق
وأنا ما عندي تجربة في الحب
ولا عندي زورق.

غناء بحارة الخليج

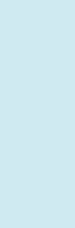
وحيـن يكون موضوع الغناء هو البحر فـلا يجوز إغفال غناء بحارة الخليج، الذيـن يختزنـون في غنائهم تـراث الغطاسيـن الباحثين عـن اللؤلؤ، وهو تـراث يزيـد عمراً على مئـات السنين. وفي أغاني البحر فـي الخليج، كتب الباحـث الموسيقي الكويتي خالـد علي سيد حميد أطروحـة دكتوراة، سنة 2005م، عنوانهـا: «الخصائص الفنية لبعض أغاني البحر بدولة الكويت». وقـد استعرض حميد في أطروحته عدداً من أغنيـات البحر، ظهر فيها أن الـدور الذي يلعبـه البحر في وجدان البحـارة في الخليـج، أشبه بدوره في معظم أغنيات البحر العربية الأخرى. فهو محط مشاعر رومانسية ومحرك عواطف الحب، مثلما يتضح في أغنيات: يا زين روض الوفا، أو نظرة الوجه الحسيـن، أو عينـي على اللي، أو غزال الروم. وهـو أيضاً الطريق إلى فرقة أليمـة، مثلما تقول أغنية: ما أقوى على الفرقة. لكن في أغنيات البحر هذه معاني أخرى، كالتعاون في أغنية: مدّوا السواعد، نظراً للأهمية التي يمثلها تعاون البحارة على مواجهة صعاب الإبحار والغوص ومخاطرهما.

وفي الموسيقى الأوروبية

ومـن أشهر مـن كتبوا عملاً موسيقيـاً مباشراً من وحي البحـر في الغرب، المؤلـف الموسيقي الفرنسي كلود دوبوسـي (1862 - 1918م)، الذي ألف عندما كان في مراحل نضجـه الموسيقي، قصيداً سمفونياً سمّاه «البحر». وكان دوبوسي آنذاك قد رسّخ أسلوبه الجديد الخاص في التأليف الموسيقي، فأطلـق عليه النقاد اسـم «الانطباعية الموسيقية»، وذلـك تمشياً مع موجة الفن الانطباعي، الذي كان يسود في تلك المرحلة في مجال الفن التشكيلي، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في فرنسا على الأخص.

أمـا المؤلِّـف الثانـي الهام من وحـي البحر، فـي الموسيقـى الأوروبية الكلاسيكيـة، فقـد وضعـه الموسيقـار الروسـي الشهيـر رمسكـي - كورساكـوف (1844-1908م)، وذلـك فـي عملـه الموسيقـي الأشهر «شهرزاد». وموضوع شهرزاد مأخوذ أساساً من حكايات «ألف ليلة وليلة»، وحصـة البحر في هذا العمـل الموسيقي الشهير توزعـت على الحركة الأولـى، وعنوانها «البحـر وسفينة سندبـاد»، ثم الحركـة الرابعة التي حملـت عنوانين، الثاني منهما: «البحر، غـرق السفينة على الصخور». وقد أبدع كورساكوف بموهبته الموسيقية الفذة، وبراعته المشهودة في التوزيـع الأوركسترالي الباذخ، بتصوير البحـر في الحركتين، بمختلف حالاته المتفاوتة بين أقصى الهدوء، وأقصى الهيجان.

وفـي الغـرب كما في الخليـج العربي وأينمـا كان في العالـم، فللبحارة أغانيهـم الخاصـة المميزة إيقاعـاً ومضموناً، وظلت تـؤدّى حتى ظهور السفـن الحديثـة التي بـددت الكثير مـن القلق القديـم، وباتت تتطلب مجهوداً جسمانياً أقل، وتوفّر لبحارتها مصادر تسلية مختلفة.



القرصنة

لفتت أعمال القرصنة التي تكاثرت قبالة الساحل الصومالي مؤخراً، انتباه العالم الذي يبدو وكأنه يستفيق مندهشاً من «انبعاث» هذه الظاهرة التي طالما أقلقت البحارة والمبحرين طوال التاريخ وروّعتهم، الأمر الذي يدعونا إلى التوقف أمامها بقدر ما يسمح به المجال من التفصيل.

فقد نشأت القرصنة بنشوء الملاحة البحرية. والمؤكد بالوثائق أنها مورست منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد في بحر إيجة والبحر المتوسط. مارسها الإغريق والفينيقيون خلال رحلاتهم التجارية، فكانوا يستهدفون الأطفال والفتية لبيعهم في أسواق العبيد. ومنذ تلك الأزمنة لم تغب القرصنة عن بحار العالم، حتى بات لكل مجتمع أبطاله وضحاياه في هذا المجال.

تزدهر القرصنة بازدهار حركة الملاحة البحرية، ولذا بلغت ذروتها ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر. وعمّت كل بحار العالم من دون استثناء. فكان لكل بحر قراصنته الذين يغيرون على السفن وينهبونها وأحياناً على البلدات الساحلية، حتى أن بعضهم أسس «جمهوريات» مثل جمهورية «زابوريزيان» في شرقي أوروبا التي أسسها قراصنة يطلقون على أنفسهم اسم «قوزاق»، ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر.

ولكن قبل تلك الفترة كان «الفايكنغ» أبطال القرصنة ما بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي. فروعوا بحار شمال أوروبا وشمال إفريقيا توغلاً في المتوسط حتى إيطاليا. ومنذ أواسط القرن التاسع، كان القراصنة العرب الذين اتخذوا من جنوب فرنسا والساحل الإيطالي مقراً لهم يغيرون على كل البحر المتوسط، حتى أنهم دخلوا روما ونهبوها في العام 846م. كما اتخذ بعضهم من جزيرة كريت مقراً لهم ما بين العامين 824 و961م.

الصين، الهند، الفلبين، جزر المحيط الهادي، إندونيسيا. كلها عانت من القرصنة التي كانت تنشط وتخفت ولكنها لم تختفِ يوماً عن بحارها. غير أن الذاكرة الشعبية في معظم أنحاء العالم تربط القرصنة بعصرها الكلاسيكي أي ما بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر، وبشكل خاص قراصنة البحر الكاراييبي الذين ارتقى بعضهم إلى مصاف أبطال الروايات وحكايات الأطفال.

وللدلالة على حجم صناعة القرصنة، نذكر ما يقوله المؤرخ روبرت دايفيس بشأن القراصنة البربر الذين نشطوا في غربي

Corbis

historicalseaport.smugmug.com

المتوسط طوال العصر الكلاسيكي، أي ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، إذ يقدر أن هؤلاء تمكنوا خلال تلك الفترة من أسر ما بين مليون ومليون ونصف المليون أوروبي وبيعهم في أسواق العبيد في شمال إفريقيا وأنحاء السلطنة العثمانية. واستطراداً نشير إلى أن ما يقدر بأربعين في المئة من قراصنة الكاراييبي في الفترة الكلاسيكية كانوا من العبيد الذين تم أسرهم على أيدي القراصنة، فانضموا إليهم تخلصاً من جور أسيادهم.

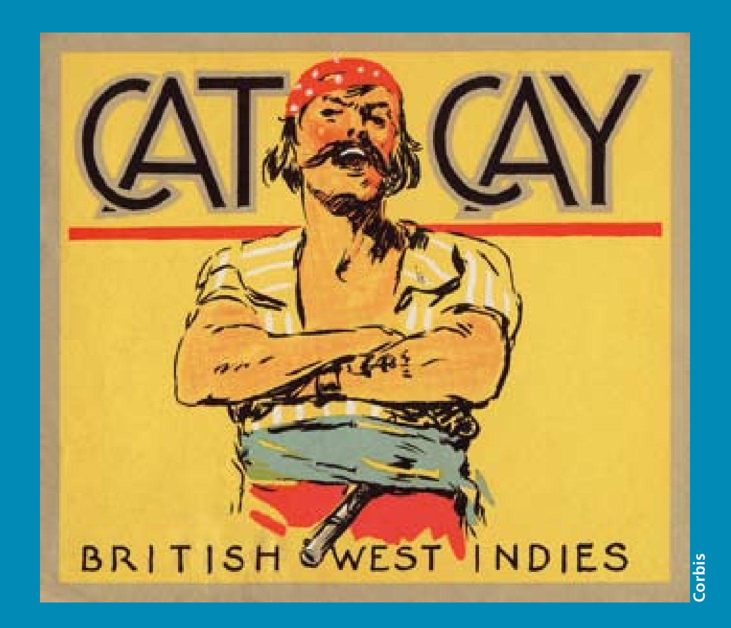
القرصنة اليوم

لم تختف القرصنة قط حتى قبل نشاطها قبالة السواحل الصومالية. إذ بقيت موجودة في جزر شرقي آسيا والمحيط الهادئ، حيث كانت (وربما لا تزال) تستهدف يخوت الأثرياء إما للنهب أو للاحتجاز وطلب فدية. كما ظهر نوع جديد من القرصنة يقضي باحتلال سفينة وإخلائها من طاقمها وتحويلها بسرعة إلى أحد الموانئ لطليها وتغيير هويتها بالتعاون مع بعض المسؤولين الفاسدين.

وحيثما عصفت الفوضى الأمنية لسبب ما في مكان ما، يمكن للقرصنة أن تظهر فجأة. وهذا ما حصل خلال انسحاب الأمريكيين من فيتنام، إذ نشط قراصنة تايلند في اعتراض زوارق النازحين الفيتناميين لنهبهم وقتلهم واستعباد بعضهم. ويقدر «مكتب الملاحة الدولي» عدد أعمال القرصنة في العام 2006م بنحو 239 عملية. وقد ارتفع هذا العدد بنسبة 10 في المئة في العام 2007م. كما أن العمليات المسلحة ارتفعت بنسبة 35 في المئة.

بحارة في مصاف عظماء التاريخ

عندما نقارن أثر المنجزات الفردية على مسار التاريخ، يحتل البحارة مكانة متقدمة جداً، إن لم تكن الأولى.
فمن البحارة عظماء لا يمكن قياس فضلهم على الحضارة الإنسانية. منهم ماركو بولو (1245 - 1324م)، الذي كان صلة الوصل الأولى ما بين أوروبا الحديثة والصين وعرَّف الثقافتين على بعضهما. ومنهم أيضاً فرديناند ماجيلان (1480 - 1521م) أول من دار حول العالم وأثبت كروية الأرض (رغم مقتله في منتصف الطريق). والعالم بأسره يعرف كريستوف كولومبوس (1451 - 1506م) مكتشف أمريكا.
ولا يجوز في هذا الإطار إغفال اسم ابن ماجد، البحار العربي العُماني، الذي تُوفي عام 1489م، وكتب نحو أربعين كتاباً في علم البحار والإبحار.



Corbis

ويقول المحللون إن نهاية الحرب الباردة بين أمريكا والاتحاد السوفياتي أدت إلى تضاؤل الدوريات البحرية. ومن جهة أخرى انتعشت التجارة العالمية والنقل البحري بفعل معاهدة التجارة الدولية والرخاء الاقتصادي (الذي سبق الأزمة الحالية)، وهذا ما خلق الظروف المثالية لانتعاش القرصنة مجدداً.

الواقع والخيال

ألهبت القرصنة خيال الأدباء والفنانين الذين صاغوا لهؤلاء صوراً متخيلة بعيدة جداً عن الواقع. فصورة القرصان الذي يقتل من دون شفقة غير دقيقة تماماً. لأن غالبية القراصنة كانوا يعفون عن ضحاياهم إذا سلموا أموالهم وأمتعتهم من دون مقاومة، فيما يشبه التقليد الهادف إلى تشجيع المبحرين على عدم مقاومتهم.

كما أن صورة القرصان الغارق في الكنوز وصناديق المجوهرات غير دقيقة بدورها. إذ ان معظم هؤلاء كان يتغذى لأيام ولأسابيع على الموز والحمضيات.

وإظهار عالم القراصنة على أنه مجرد فوضى عارمة غير صحيح على الإطلاق. فقد نظّمت هذه المجتمعات الصغيرة نفسها وفق تراتبية وأسس لا يتردد المحللون بوصفها «ديمقراطية»، تحقق نسبة من العدل والمساواة بين أفرادها أكبر مما كان سائداً في المجتمعات المستقرة. كما كانت لهم صناديق تعويضات سخية لمن يصاب بجروح في المعركة أو يفقد بعض أعضائه.

حتى علم القراصنة (جمجمة وسيفان متقاطعين على قماش أسود) المسمى «جولي روجر» لم يكن علماً عاماً كما توهمنا السينما، بل اقتصر استعماله على الأرجح على القرصان كاليكو جاك راكهام في القرن الثامن عشر الميلادي.



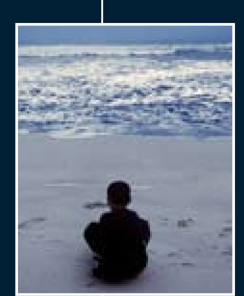
الذكرى المئوية الثانية لمولد لويس برايل، مبتكر نظام برايل



طاقة للعالم.. للوطن طاقات

www.saudiaramco.com





القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
مايو - يونيو 2009
المجلد 58 العدد 3

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com